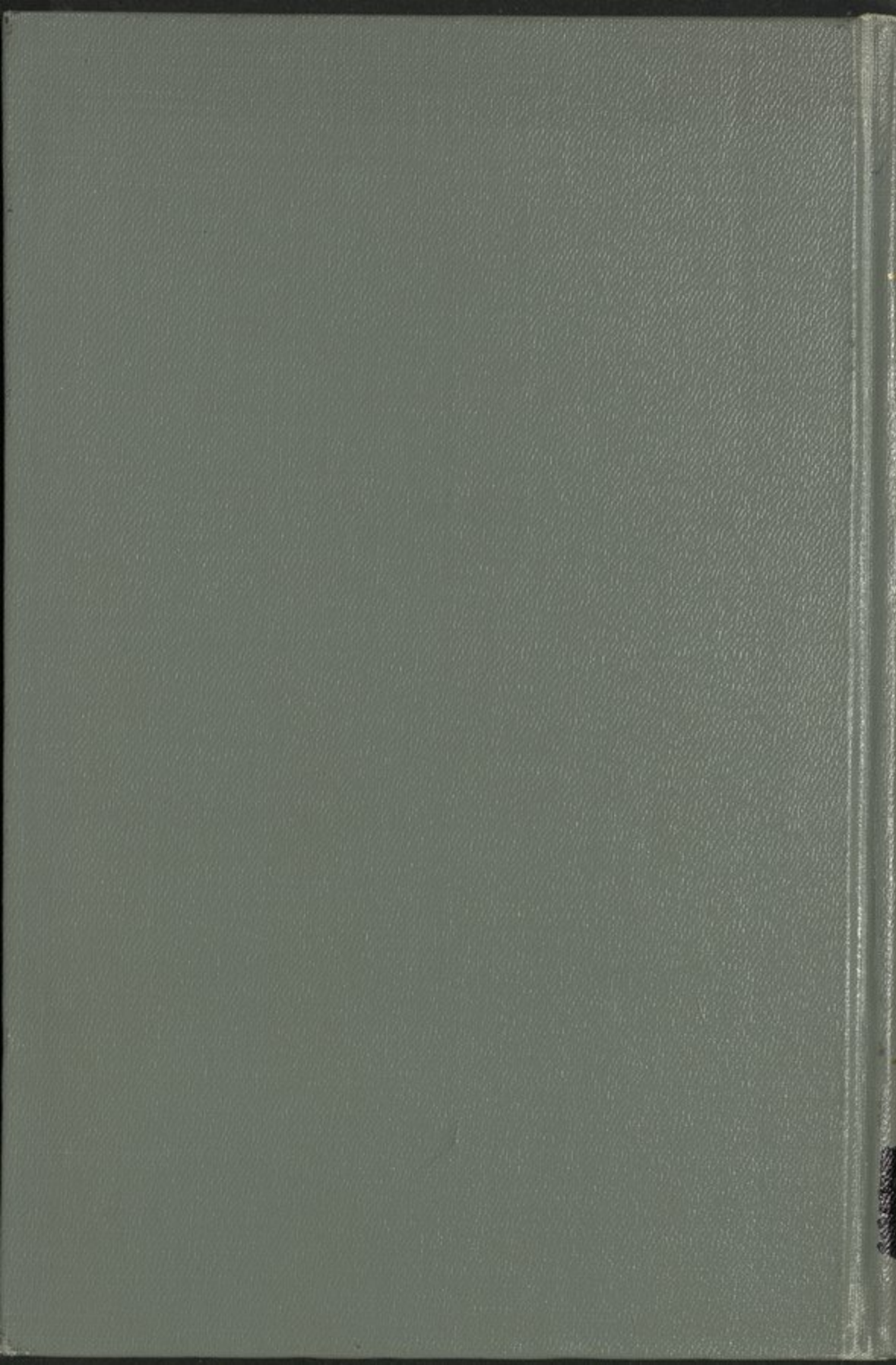
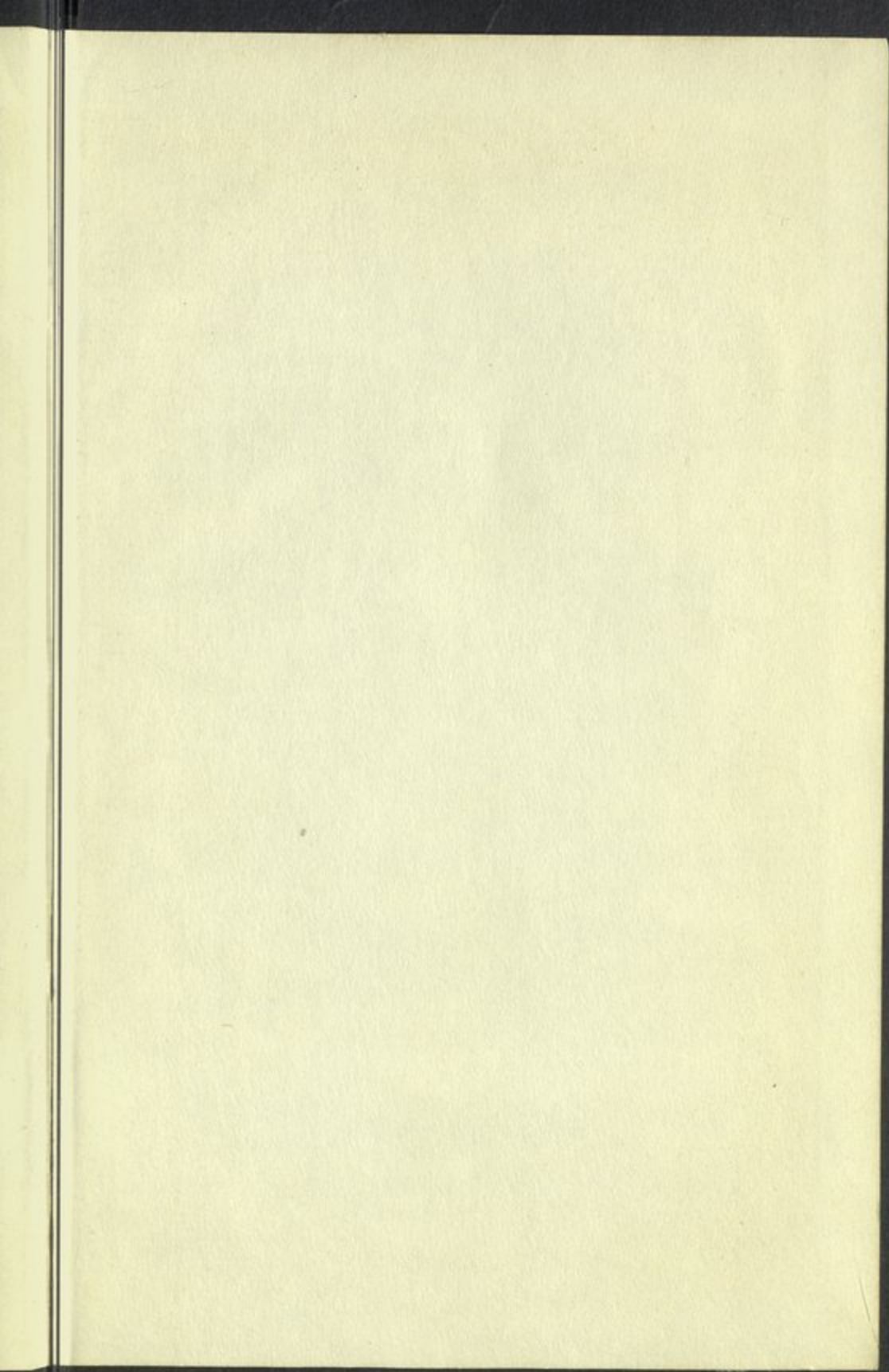
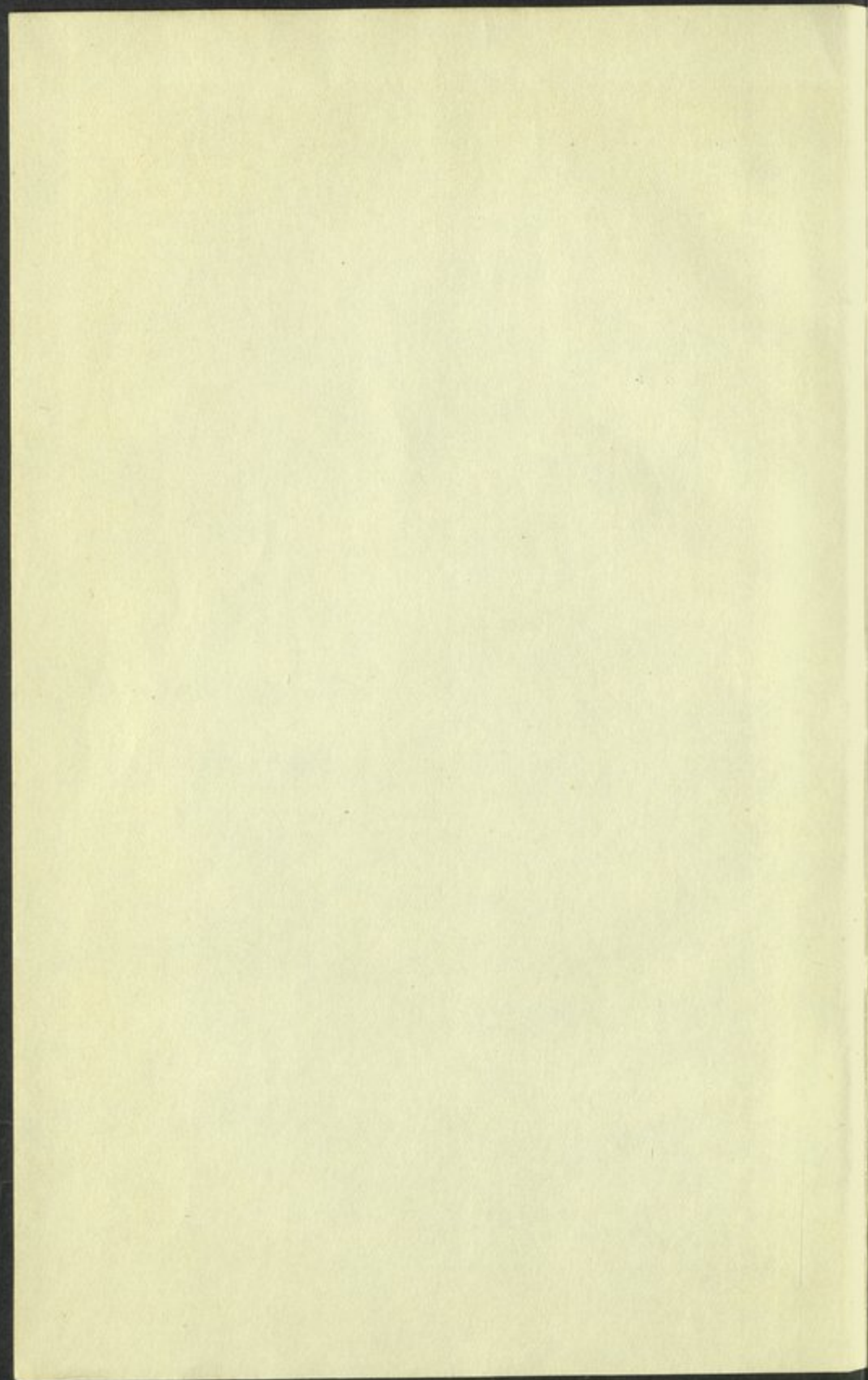


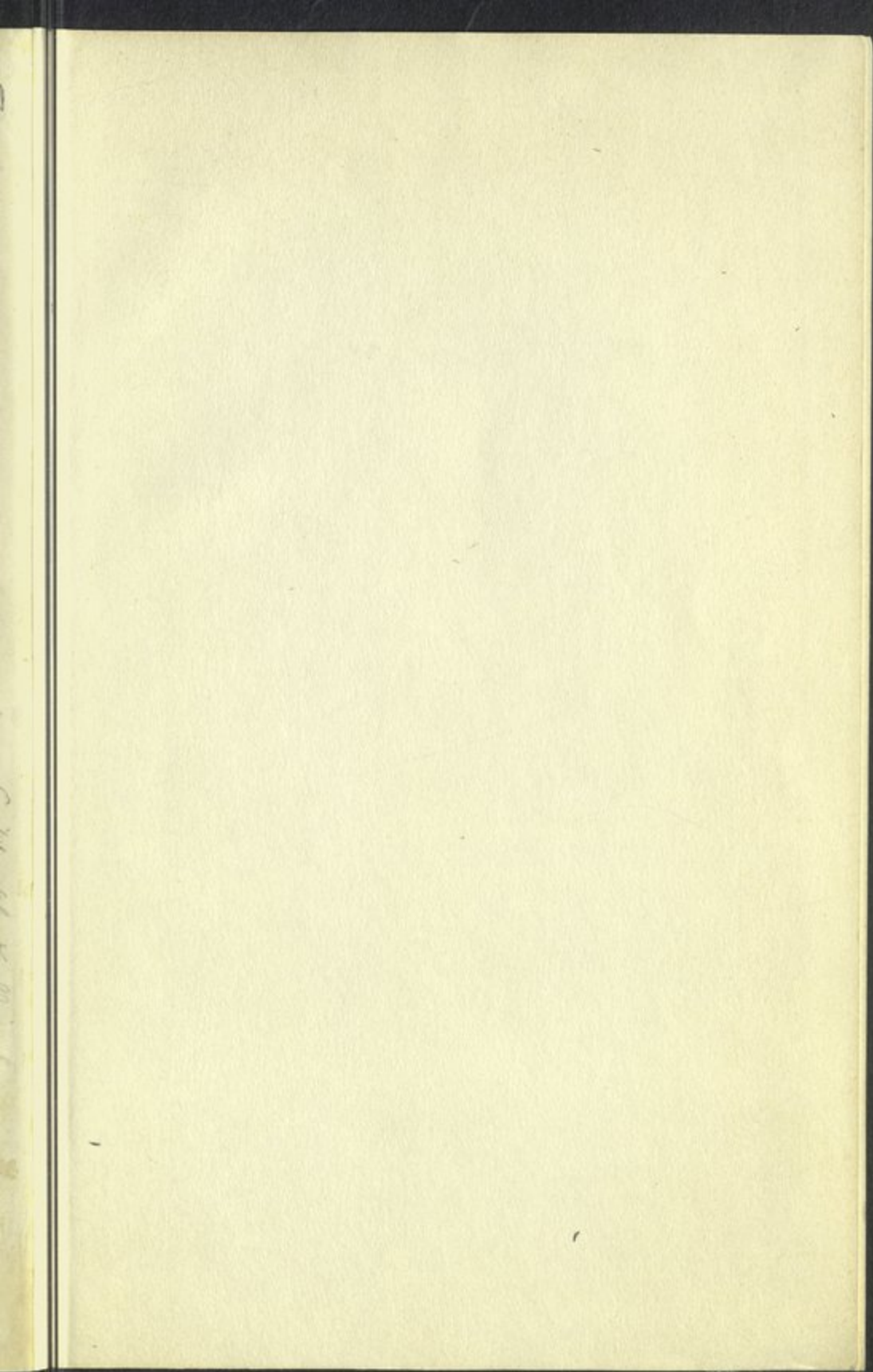




N. MAKHOUL
BINDERY
20 NOV 1970
Tel. 260458







هدية
عبد الرحمن
١٩٤٤/١٠/٢٤

روح الثورة و الثورة الفلسطينية

تأليف

الدكتور غوستاف لوبون

نقله إلى العربية

محمد عاقل زعيرة

المحامي والاساذ في معهد الحقوق في فلسطين

طبعة ثانية منقحة

سنة ١٩٣٤

48710

عنيت بنشره

المطبعة العصرية

بالفجالة، بمصر

Oct-May 1936

Gift. Al-Raddiyah

11/11/11
7



کتب خانہ اسلامیہ

کتاب خانہ اسلامیہ

کتاب خانہ اسلامیہ

کتاب خانہ اسلامیہ

کتاب خانہ اسلامیہ

کتاب خانہ اسلامیہ

کتاب خانہ اسلامیہ

48310

کتاب خانہ اسلامیہ

کتاب خانہ اسلامیہ

کتاب خانہ اسلامیہ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أقول بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله :

إن علم الاجتماع من العلوم التي غنى العلماء في الوقت الحاضر باستجلاء قواعدها ، ومن أكابر هؤلاء العلماء الدكتور غوستاف لوبون مؤلف « حضارة العرب » ، الف هذا العلامة ، بعد سياحات كثيرة قام بها في أقطار الأرض ، كتباً ذات قيمة في مدنيات بعض الأمم ، ثم وضع ثلاثة كتب بسط فيها ما استنبطه في تلك الأثناء من العبر وما ظهر له من سنن الاجتماع وهي : « سر تطور الأمم » ، و « روح الجماعات » ، و « الآراء والمعتقدات » ، ثم عرض ما جاء في هذه الكتب من الآراء الكلية على مسائل أخرى فأخرج للناس « روح الاشتراكية » ، و « روح الثورات والثورة الفرنسية » ، وقد نقلت هذين المؤلفين الى العربية ، فقدمت طبع الثاني لصغر حجمه ، وسأطبع الأول بعده إن شاء الله تعالى (١) .

نقل المرحوم فتحي باشا زغلول كتاب « سر تطور الأمم » ، وكتاب « روح الجماعات » الى العربية . فأرجو أن أعرض عما قليل ، على القراء ترجمة كتاب « الآراء والمعتقدات » (٢) ، فيكون قد اجتمع عندهم كتب غوستاف لوبون الثلاثة الأساسية وكتابان من كتبه التحليلية . ولا أرى أن أشير الى ما في مؤلفات الكاتب المشار اليه ، ولا سيما « روح الثورات والثورة الفرنسية » ، من الفوائد العليمة والحقائق التاريخية ، فالأمر أصبح مشهوراً لا يحتاج الى بيان . وإنما أنقل على سبيل الذكر العبارات الآتية :

قال إميل فاكه العضو في المجمع العلمي الفرنسي ، وهو من أشهر كتاب فرنسة : « قد أثرت أفكار غوستاف لوبون السياسية الصائبة في نفسى تأثيراً جعلني في الوقت الحاضر أعتمد عليها ، فالفصل الذي بحث فيه عن أوهام رجال الثورة الفرنسية حسن من كل الوجوه ، وهذه الأوهام هي اعتقاد صلاح الانسان ، وأن من الممكن فصل الأمم

(١) قد طبع في المطبعة المصرية بمصر

(٢) نقلت هذا الكتاب الى العربية ، وقد طبع في المطبعة المصرية بمصر

عن ماضيها ، وتحويل المجتمع بوضع القوانين ، ولا يخفى ما أدت اليه هذه الأغلاط الكبيرة من النتائج .

« أشارك غوستاف لوبون في ما ذكره عن علل نجاح نابليون بونابرت ، فالنصر وحده ، وهو الذى دل على نابليون ، لم يجعله سنة ١٧٩٩ معبود فرنسا ، وإنما الذى سهل نجاحه هو نفور الناس من الظلم والاضطهاد والازمة المالية والطمع فى الاملاك العامة » « أعجب بغوستاف لوبون كخصم للقدر التاريخى الذى شب على اعتقاده أبناء جيلي ، فهذا القدر من الأمور المختلة . »

وجاء فى مجلة العالمين :

« ان ما أتى به غوستاف لوبون من البحث الدقيق فى مؤلفاته فى الفلسفة وعلم الحياة والتاريخ مكنه من إيضاح بعض الأمور العظيمة التى ظلت غامضة حتى الآن . وقد استطاع أن يوضح قواعد الحركات الثورية فى كتاب مبتكر جديد بحث فيه عن روح الثورات والثورة الفرنسية .

« أوضح فى هذا الكتاب وجه الشبه بين السنن النفسية للحوادث الكبيرة التى حولت مصير الأمم كثورة الاصلاح الدينى والثورة الفرنسية كما أنه أوضح فيه شأن الشعوب الضعيف فى الحركات الثورية ومناقضة عزائم أعضاء المجالس وهم منفردون لعزائمهم وهم مجتمعون والتأثير الكبير للعاطفة والدين فى سير أبطال الثورة الفرنسية »

باريس فى ٦ يناير سنة ١٩٢٤

عادل زعبي

مقدمة المؤلف في الطبعة الخامسة عشرة

مختلف الآراء في الثورة الفرنسية

لم أضع هذا الكتاب لأمدح الثورة الفرنسية أو لأذمها بل لأفسرها بما ذكرته من السنن النفسية في كتاب « الآراء والمعتقدات » ،

ومع أن الغاية التي توخيتها تجعلني لا أبالي بالآراء التي قيلت في الماضي فإني رأيت الاطلاع عليها مفيداً فخصت فصلاً لبيان ما أتى به المؤرخون من مختلف الأفكار في الثورة الفرنسية .

لا تعبر الكتب إلا عن آراء أصبحت قديمة ، وهي وإن أمكن أن تهيم الأفكار المستقبلية فلما تعرب عن الأفكار الحاضرة ، والمجلات والجرائد وحدها هي التي تعبر عن الوقت الحاضر تعبيراً صادقاً ، ولهذا فلن ما يجيء فيها من النقد مفيد جداً .

يمكن أن نستخرج من المقالات التي نشرت حول هذا الكتاب ثلاثة آراء دالة على ما يدور الآن حول الثورة الفرنسية من الأفكار :

فالرأي الأول يعد الثورة الفرنسية معتقداً يجب قبوله أو رفضه برمته ، والرأي الثاني يعتبرها سرّاً غامضاً ، والرأي الثالث يعدها حادثة لا يجوز الحكم فيها قبل نشر كثير من الوثائق الرسمية التي لم تطبع بعد ، ولا يخلو البحث بايجاز عن قيمة هذه الآراء الثلاثة من فائدة .

تعتبر الاكثرية في فرنسا تلك الثورة من المعتقدات ، ولذلك تظهر لهذه الاكثرية حادثاً ميموناً قد أخرجها من طور الحمجية وحررها من ظلم الأشراف ، ولا يزال يعتقد كثير من رجال السياسة أنه لولا نشوب الثورة الفرنسية لكانوا الآن أجراء عند الأمراء الاقطاعيين .

وقد ظهرت هذه الحالة النفسية في بحث مهم خصصه السياسي الشهير إميل

أوليفيه لمناهضة كتابي ، فبعد أن ذكر هذا العضو الفاضل في المجمع العلمي النظرية التي تعد الثورة الفرنسية حادثة غير نافعة قال :

« تناول غوستاف لوبون هذا الموضوع فجاء في كتاب حديث بحث فيه عن روح الثورة الفرنسية وتجلت فيه قوة تأليفه وبيانه » أن الثمرة التي اقتطفت بعد القيام بكثير من أعمال التخريب لا بد من نيلها في نهاية الأمر مع سير الحضارة بلا عناء .

لم يرض أوليفيه بهذا الرأي ، فالثورة الفرنسية عنده ضربة لازب ، وقد ختم كلامه بما يأتي :

« هل يأسف على وقوع الثورة الفرنسية من لا يريد أن يكون مسخراً لصيد الضفادع في الغدران كي لا تقلق الأمير الاقطاعي في نومه ؟ وهل ينوح على حدودها من لا يريد أن يرى كلاب شاب عات تخرب حقله ؟ وهل يحزن على نشوبها من لا يريد أن يسجن في البستيل لولوع رجل من بطانة الملك بزوجه أو لانتقاده أحد الوجوه ؟ وهل يأبى على اشتعالها من لا يريد أن يبغي عليه وزير أو موظف وأن يكون تحت رحمة أحد من الناس وأن يؤخذ منه أكثر مما يفرض عليه وأن يهينه ويشتمه من يدعي أنه فاتح ؟ - لذلك أشكر ، وأنا من الطبقة الوسطى ، أولئك الذين أقذوني بعد عناء شديد من هذه القيود التي لولاهم لظلت تقيدني ، وأهنئهم على رغم زلاتهم . »

فالمعتقد الذي تجلّى في مثل هذه الكلمات قد ساعد ، مع قصة نابليون ، على جعل الثورة مرضياً عنها في فرنسا ، ومصدر هذا الوهم الشائع ، حتى بين كثير من أقطاب السياسة ، هو المبدأ القائل إن طرق الحياة عند الأمة تكون بحسب نظمها ، والواقع أن تلك الطرق تابعة للتبكرات العلية والاقتصادية ، فتأثير القاطرة في مساواة الناس غير تأثير المقصلة ، ولا ريب في نيلنا منذ زمن طويل ما بلغناه وبلغته أمم كثيرة من المساواة والحرية سواء علينا اشتعلت هذه الثورة أم لم تشتعل .

و يؤدى الرأي الثانى القائل إن الثورة الفرنسية سر غامض الى محافظة هذه الثورة على نفوذها أيضاً ، فاليك ما جاء في مقالة خصصها مسيو دورمون مدير إحدى الجرائد الكبيرة في باريس للبحث في كتابي :

« لم تزل الحوادث المدهشة التي زعزعت أركان العالم لغزاً من الألغاز ، ولم تكتشف مباحث علم النفس سر تلك الأزمات العجيبة التي سبقي معدودة من حوادث التاريخ المخارقة . »

وينشأ عن تلقى الثورة الفرنسية على هذا الوجه ظن الناس أنها سلسلة وقائع نشأت عن عوامل خفية ، وتدل الكلمات التي أوردناها على درجة الشكوك والريب التي تزيد البحث في الثورة المذكورة إبهاماً وتسوِّغ حكمة العلماء الذين يقتصرون على نشر الوثائق .
إذا يرى المنصف ، الذي يود أن يكون ذا رأى صائب في الثورة . نفسه الآن إما إزاء عقائد عمياء ، وإما إزاء مزاعم قاتلة ان هذا الحادث العظيم يتعذر إيضاحه بالمعارف الحاضرة .

وقد لاحظ لي ، عندما شرعت في درس الثورة الفرنسية مستعيناً بطريقتي في علم النفس ، أن شكوك المؤرخين في هذه الأزمة الكبيرة ناشئة عن شرحهم بالمعقول ما صدر عن روح التدين والعاطفة والجماعات من الحوادث .

وفي كل صفحة من صفحات تلك الثورة برهان على ذلك ، فنطق الجماعات ، لا المنطق العقلي ، هو الذي يكشف لنا سبب استحسان المجالس الثورية التداير المخالفة لرأى كل عضو من أعضائها ، ولا يوضح لنا العقل لماذا تنزل نواب الأشراف في ليلة شهيرة عن امتيازات كانوا شديدي التمسك بها مع أنهم لو كانوا قد أقبلوا عنها في وقت آخر لاجتنب نشوب الثورة الفرنسية على ما يحتمل ، وكيف يمكننا أن ندرك علة كون الأذكاء المسلمين من أبناء الطبقة الوسطى ، الذين كانوا وهم في بعض اللجان يضعون المقياس المترى ويأمرون بإنشاء المدارس الكبيرة ، قد استصوبوا أفعالا وحشية كقتل لافوازييه والشاعر شينيه وهدم قبور سان دني الفخمة إذا لم نطلع على تقلبات الذات باختلاف الأحوال ؟ ثم كيف يمكننا ادراك السبب في انتشار الحركات الثورية إذا لم تكن عارفين سنن الاقتاع الحقيقية التي تخالف ما تدل عليه الكتب من الطرق مخالفة تامة .

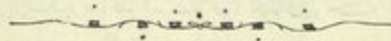
وقد تأصلت قواعد المنطق العقلي في فرنسة تأصلا جعل الناس لا يتصورون معه إمكان وقوع حوادث التاريخ بعيدة من العقل مع أنه يجب علينا لفهم ما يعجز المنطق العقلي عن إيضاحه من الحوادث أن نغير الطرق التي نوضح بها وقائع التاريخ .
أرى الأفكار التي ينتها في هذا المؤلف ستشيع سريعا ، وما نشر من المقالات الكثيرة ثبت لنا أنها أثرت في كثير من العلماء المدققين . جاء في جريدة التايمس التي هي أهم صحف انكلترة ما يأتي :

• يجب على رجال السياسة كلهم أن يطلعوا كتاب غوستاف لوبون الذي لم يبال فيه

بما قيل في تفسير الثورة الفرنسية من النظريات المدرسية فأوضح ما للشعب من الشأن الضئيل في الحركات الثورية وما في عزائم أعضاء المجالس وهم يجتمعون من المناقضة المطلقة لعزائمهم وهم منفردون وما سير أبطال الثورة المذكورة من الروح الدينية وما للعقل من التأثير القليل فيهم ، فلولا هذه الثورة لصعب إثبات أن العقل لا يحول الرجال وأن المجتمعات لا تتجدد كما يريد المشترون ذوو السلطان العظيم .

حقاً إن تاريخ الثورة الفرنسية سلسلة من الحوادث التي وقعت في الغالب مستقلة بعضها عن بعض كقصة النظام الملكي الذي نقض لعدم وجود من يدافع عنه وقصة المجالس الثورية وقصة الفن الشعبية وزعمائها وقصة الجيوش وقصة النظم الجديدة وغير ذلك من القصص الدالة في الغالب على قوى نفسية متصادمة يجب درسها حسب طرق علم النفس .

نعم قد يجادل في قيمة ما أتينا به من الشروح ولكنني أعتقد أنه يصعب بعد الآن أن يكتب تاريخ الثورة الفرنسية من غير أن ينظر الى ذلك .



مقدمة المؤلف

إعادة النظر في التاريخ

ليس الدور الحاضر دور اكتشاف فقط ، بل يبحث فيه ثانية عن مختلف المعارف ، فبعد أن قال العلم بعدم وجود حادث يسهل الاطلاع على علته الأولى أخذ يفحص قواعده حديثاً فبدت له مختلة ، وهو يشاهد الآن دخول مبادئه القديمة واحدة بعد الأخرى في خبركان ، فعلم الآلات يخسر قواعده ، وصار الناس يرون أن المادة ، التي كانت معدودة في الماضي جوهر الكائنات الأزلي ، قوى فانية تكاثفت لأجل قصير .

ولم يشذ التاريخ عن ذلك على رغم ما فيه من الحداث الذي ينقذه من النقد الشديد ، فلا يستطيع أحد أن يقول الآن إنه يعرف صفحة منه معرفة تامة ، وما كان يلوح أنه علم يقيناً من الوقائع أعيد البحث فيه مرة ثانية

والثورة الفرنسية من الوقائع التي كان يظهر أن درسها تم ، فهي بعد أن بحث فيها كثير من المؤلفين ، وعمّ القول إنها أوضحت إيضاحاً كاملاً ، وإنه لم يبق سوى تعديل بعض تفاصيلها ، أخذ يتردد أشد المدافعين عنها في أحكامهم فيها ، وهكذا أصبح كثير من الحقائق القديمة موضعاً للاخذ والرد ، وصار الايمان بعدد كبير من المذاهب المقدسة مزعزعا ، وما كتب أخيراً عن الثورة الفرنسية قد كشف القناع عن تلك الشكوك والريب . ولم يكتف العلماء بالمراة في قيمة أبطال تلك الفاجعة العظمى ، بل أخذوا يسألون هل كانت دعائم النظام الحديث ، الذي حل محل النظام القديم ، تتوطد من غير عنف بتأثير مبتكرات الحضارة بعد أن رأوا أن عواقب تلك الثورة لا تساوى أعباءها

هنالك أسباب كثيرة أوجبت إعادة النظر في ذلك التاريخ المحزن ، منها أن الزمان سكن ثوران النفوس ، وأن كثيراً من الوثائق أخذ يخرج من الخزائن ، وأن الناس صاروا يعلمون كيف يشرحونها بحرية تامة .

ولعل علم النفس الحديث هو الذي سيؤثر أكثر من كل شيء في أفكارنا ، معينا لما بنا على العلم بروح الرجال وعوامل سيرهم ، ونخص بالذكر من اكتشافاته ، التي

يمكن أن يستعين بها التاريخ ، المؤثرات الارثية ، والسنن المسيرة للجماعات ، والعدوى النفسية ، وكيفية نشوء المعتقدات نشوءاً غير شعورى وتمييز أنواع المنطق المختلفة .
والحق إن هذه التطبيقات العلية التى اتخذناها فى هذا المؤلف لم ينتفع بها حتى الآن .
فلا يزال المؤرخون مكتفين بدرس الوثائق . على أن ما ذكرناه يكفى لالقاء ما أشرت اليه من الشكوك والشبهات فى نفوسهم .

قد يكون تفسير الحوادث العظيمة التى تحول مصير الأمم من الصعوبة بحيث يضطر الانسان الى الاقتصار على ملاحظة هذه الحوادث .

وقد أثر فى نفسى منذ مباحثى التاريخية الأولى تعذر اكتناه بعض الحوادث الجوهرية ، ولا سيما نشوء المعتقدات ، فشعرت بأن أموراً أساسية ضرورية لا يباحها تفوتنا وبأنه لا يجوز ان ننظر شيئاً من العقل الذى قال ما أمكنه ويتحتم علينا أن نبحت عن وسائل أخرى للوقوف على ما يحجز العقل عن تفسيره .

بقى أمر هذه المسائل الكبيرة غامضاً فى نظرى وما أتيت به من السياحات للبحث عن انقراض المدينيات المنقرضة لم يقلل من هذا الغموض شيئاً يذكر .

إلا أن كثرة التأمل والتفكير ساقنى الى الاقرار بأن هذه المعضلة مركبة من معضلات أخرى يجب البحث عن كل واحدة منها على حدة ، وهذا ما فعلته فى عشرين سنة فأوردت نتائج مباحثى فى سلسلة من المؤلفات .

ببحث فى أحد مؤلفاتى الأولى عن مر تطور الأمم ، فبعد ان بينت فيه أن الأمم التاريخية ، أى الأمم التى نشأت حسب مصادفات التاريخ نالت فى آخر الامر صفات نفسية ثابتة ثبات أوصافها التشرىحية أوضحت كيفية التى تحول بها هذه الأمم نظمها ولغاتها وفنونها ، ثم شرحت فيه لماذا يحتمل أن تفك عرى النفس عند تبدل البيئة فجأة ولكن يوجد ، عدا هذه المجتمعات البشرية المؤلفة من الأمم ، مجتمعات بشرية متقلبة تسمى الجماعات ، ولهذه الجماعات التى تمت على يدها أكبر الفتن التاريخية صفات تختلف عن صفات الأفراد الذين تتألف منهم اختلافاً تاماً ، وقد بحثت عن هذه الصفات وعن كيفية نشوءها فى كتاب سميت « روح الجماعات » ،

ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل أبصرت بين عوامل التاريخ المهمة عاملاً قوياً أى المعتقدات ، وقد بحثت عن هذه المسئلة الصعبة فى كتابى الاخير الذى سميت « الآراء

والمعتقدات ، فبينت فيه كيف تنشأ المعتقدات وهل تكون عقلية إرادية ، كما عرفت ، أم تكون غير شعورية مستقلة عن كل عقل .

يبقى إيضاح المعتقدات أمراً متعذراً إن عدت إرادية عقلية ، وقد تمكنت ، بعد أن أثبت أنها غير عقلية في الغالب وغير إرادية على الدوام ، من حل المعضلة العظيمة الآتية وهي : كيف يستصوب أرباب العقول النيرة في كل جيل معتقدات لا يسوغها العقل

سيظهر حل المعضلات التاريخية التي بحث فيها منذ سنوات كثيرة ظهوراً واضحاً بعد الآن ، فقد توصلت الى نتيجة دالة على أنه يوجد بجانب المنطق العقلي الذي يربط الأفكار بعضها ببعض منطق الجماعات والمنطق الديني اللذان يستحوذان في الغالب على عقولنا ويسيراننا .

وبعد أن حققت ذلك علمت أن إدراك كثير من الحوادث التاريخية يظل ممتنعاً عند إيضاح هذه الحوادث بنور المنطق العقلي القليل التأثير في تكوينها .

وقد اقتضى الوصول الى القواعد التي لخصناها هنا في بضع صفحات سعى سنين كثيرة ، وذلك بعد ان ينست من إتمامها ورجعت غير مرة الى الجدة في المختبرات التي يشق الانسان بأنه يقرب فيها من الحقيقة وينال شيئاً من العلم اليقين .

إن سبر غور الرجال مفيد كالنتقيب في الحوادث المادية ، وهذا ما يجعلني أرجع إلى علم النفس على الدوام .

ولما ظهر لي ان بعض النتائج التي استنبطتها من مباحثي واسعة المدى نويت أن أعرضها على بعض الحوادث ، وهكذا تناولت درس روح الثورات ، ولا سيما الثورة الفرنسية . وكلما كنت أتوغل في تحليل هذه الثورة الكبرى كانت أكثر الآراء التي اقتبستها من الكتب وكنت أظنها متينة تنهار انهاراً متتابعاً .

يجب لا يوضح هذا الدور أن لا يعد حادثاً واحداً كما فعل كثير من المؤرخين ، فهو مؤلف من حوادث مستقلة وقعت في آن واحد ، وقد نشأ عن كل واحدة منها أمور وقعت حسبما تقتضيه سنن النفس ، ويظهر أن ممثلي تلك الفاجعة الكبرى ساروا كمثلي الروايات التي وضعت سابقاً فقال كل واحد منهم ما يجب أن يقوله وعمل ما يجب أن يعمل .

لا شك في اختلاف أولئك الممثلين الثوريين عن ممثلي الرواية المكتوبة لكونهم لم

يدرسوا أدوارهم ، ولكن قوى خفية كانت تملها عليهم فكانوا يقومون بها كأنهم من الحافظين لها ، وقد أوجب اتباعهم منطقاً لم يدركوا من أمره شيئاً اتباعاً مقدرّاً تعجبهم مثلنا من الحوادث التي كانوا أبطلها ، فالقوى الخفية التي كانت تسيرهم لم تخطر ببالهم قط ، ولم يكن أمر شدتهم وضعفهم في يدهم ، فهم وإن كانوا يتكلمون باسم العقل ويدعون أنهم مسيرون به لم يكن العقل رائدهم بالحقيقة ، قال بيوفارين :

« كنا لا نريد أن نأتى ما نلام عليه من الأفعال ، ولكن الأزيمة كانت تدفعنا اليه ، ولا يستدلن القارىء بهذا الكلام على أن الحوادث الثورية خاضعة لمقادير مهيمنة مطلقة ، فالمطلع على ما وضعناه من الكتب يعلم أننا نعترف بما لأرباب التأثير والنفوذ من القدرة على إبطال عمل المقادير ، غير أنهم لا يقدرّون إلا على إبطال شيء قليل منها ، وكثيراً ما يعجزون عن وقف الحوادث التي لم يتسلطوا على سيرها منذ البداءة ، فالعالم الذي يقدر على استئصال المكروبات قبل فعلها يعترف بعجزه عن ذلك عند استفحال المرض .

افترق المعتقدون الذين أتوا أحكاماً في الثورة الفرنسية التي هي من عمل المعتقدين أيضاً ، الى فرقتين : إحداها تلعن الثورة المذكورة والأخرى تعجب بها ، ولذلك ظلت الثورة المذكورة من جنس المعتقدات التي تقبل أو ترفض جملة من غير أن يتدخل منطق عقلي في هذا الاختيار ، فالثورة الدينية أو السياسية وإن جاز أن تستند إلى العقل في بداءتها لا تنتشر إلا معتمدة على عوامل الدين والعاطفة التي لا صلة بينها وبين العقل مطلقاً . لم يستطع المؤرخون الذين بحثوا في حوادث الثورة الفرنسية على نور المنطق العقلي أن يدركوا سرها . فيما أن هذا المنطق لم يكن محدثاً لها وبما أن القائمين بها أنفسهم كانوا غير مطلعين على كنهها لا نخطئ . إذا قلنا ان تلك الثورة أمر لم يفقهه من أتاه ومن قصه ، ولم يكن في أدوار التاريخ دور أدرك فيه الحال إدراكاً قليلاً وجهل فيه الماضي جهلاً تاماً وكشف فيه المستقبل كشفاً ناقصاً نظير ذلك الدور .

لم يقم سلطان الثورة الفرنسية على ما كانت تنشره من المبادئ ولا على ما كانت تضعه من الأنظمة ، إذ الأمم لا تبالي بالمبادئ والأنظمة إلا قليلاً ، وإنما السبب في قوة هذه الثورة وفي رضى فرنسة بما أتته من المذابح والهدم والهول وسائر المظالم وفي مدافعها ظافرة إزاء أوربة المدججة بالسلاح هو إقامتها ديانة جديدة لا نظاماً جديداً ،

ولقد أثبت التاريخ ما للمعتقد القوى من القوة التي لا تقاوم ، فقد خضعت دولة الرومان المنيعة الجانب لجيوش من رعاة البدو الذين أضاء قلوبهم ما جاء به محمد (صلعم) من الايمان ، ولمثل هذه العلة لم تقدر ملوك اوربة على مقاومة جنود العهد الرثة الثياب ، فكان هؤلاء الجنود مستعدين ، كجميع الدعاة ، للتضحية بأنفسهم في سبيل نشر عقائدهم التي كانوا يظنون أنها ستجدد العالم .

لا نعد الثورة الفرنسية . كما ظن دعايتها ، قد قطعت كل علاقة بالتاريخ ، وإن أحدث هؤلاء لاطهار مقصدهم تقويماً جديداً وزعموا أنهم قضوا على الروابط التي تربطهم بالماضي الذي لن يموت والذي هو متأصل في النفوس اكثر من كل شيء ، فقد كان المصلحون أيام الثورة الفرنسية مشبعين بالماضي من غير أن يشعروا وهم لم يفعلوا سوى مواصلة التقاليد الملكية مسماة بأسماء أخرى والسير على نحو مركزية العهد السابق مع الافراط في الاستبداد .

والثورة الفرنسية وإن لم تنقص بالحقيقة سوى شيء يسير من مقومات الماضي أعانت على انكشاف بعض المبادئ التي استمرت على النمو ، ومن هذه المبادئ مبدأ المساواة الذي أصبح انجيل الأمم أي صار قطب الاشتراكية والديموقراطية في الوقت الحاضر ، وبهذا نقصد أن نقول إن تلك الثورة التي لم تنته بظهور الامبراطورية ولا بالانظمة التي ظهرت بعد الامبراطورية انتشرت بالتدرج مع الزمن ولا تزال ذات سلطان على النفوس .

ربما ينزع بحثنا في الثورة الفرنسية كثيراً من أوهام القارىء ، فسيرى القارىء أن الكتب التي بحث فيها تحوى كثيراً من الأقاصيص البعيدة من الحقيقة . وسيتبقى هذه الأقاصيص مسطورة في كتب التاريخ من غير أن نأسف على ذلك ، فمع أن الاطلاع على الحقيقة يفيد بعض الفلاسفة نرى أن تغلب الأوهام على الشعوب أنفع ، فمن مجموع تلك الأوهام تنشأ مثل الشعوب العليا المسيرة لها . قال فونتينيل : « لولا الأفكار الباطلة لصاعت الشجاعة »

حقاً إن قصص جان دارك وغيلان العهد والامبراطورية تورث النفوس آمالاً بعد الهزيمة ، وإن لهذا التراث الوهمي الذي ورثناه من الآباء سلطاناً أشد من سلطان الحقائق في بعض الأحيان ، فالأوهام والخيالات والأساطير هي التي تقود التاريخ

الجزء الأول

روح الثورات

الباب الأول

صفات الثورات

الفصل الأول

الثورات العلية والثورات السياسية

- ١ - تقسيم الثورات
- ٢ - الثورات العلية
- ٣ - الثورات السياسية
- ٤ - نتائج الثورات السياسية

١ - تقسيم الثورات

يعبرون عادة عن الانقلابات السياسية بالثورة، مع أنه يقتضى أن تعرب هذه الكلمة عن جميع التحولات الفجائية للمعتقدات والأفكار والمذاهب .
وقد بحثنا في كتاب آخر عما لعناصر العقل والمشاعر والتدين من الشأن في تكوين الأفكار والمعتقدات التي يتوقف عليها سير الانسان ، ولا فائدة من الرجوع إليها مرة أخرى .

قد ينتج عن الثورة في نهاية الأمر معتقد ، ولكنها تنشأ في الغالب عن عوامل عقلية كالقضاء على ظلم فادح أو استبداد ممقوت أو ملك يبغيضه الشعب ، ومع أن العقل هو

أصل الثورة فإن الأسباب التي تهيئها لا تؤثر في الجماعات إلا بعد أن تتحول الى عواطف، فإذا أمكن بالعقل إظهار ما يجب هدمه من المظالم وجب لتحريك الجماعات إفعام قلوبها بالآمال، وهذا أمر لا ينال إلا إذا استعين بعناصر العاطفة والتدين التي تجعل الانسان قادراً على السير، خذ الثورة الفرنسية مثلاً ترأى المنطق العقلى الذى تذرعه به فلاسفة ذلك العصر أظهر للبلاد مساوئ النظام القديم وجعل فى القلوب ميلاً الى تبديله وأن المنطق الدينى ألقى فى النفوس إيماناً بفضائل مجتمع قائم على بعض المبادئ. وأن المنطق العاطفى أطلق النفوس من عقالها القديم وشدة قواها وأن منطق الجماعات استحوز على الأندية والمجالس ودفع أعضائها الى اقتراف أعمال لم يدفعهم المنطق العقلى والمنطق العاطفى والمنطق الدينى الى اقتراف مثلها .

والثورة مهما يكن مصدرها لا تصبح ذات نتائج إلا بعد هبوطها الى روح الجماعة، فالجماعة تتم الثورة ولا تكون مصدرها، وهى لا تقدر على شئ. ولا تريد شيئاً إن لم يكن عليها رئيس يقودها، ولا تلبث الجماعة أن تتجاوز الحد الذى حرصت عليه وإن كان التحريض لا ينشأ عنها أبداً .

وإن الثورات السياسية الفجائية التى تعجب المؤرخين هى أقل أهمية من غيرها فى بعض الأحيان، فالثورات الكبيرة هى ثورات الطبائع والأفكار .

وفى الغالب تتم الثورات الحقيقية التى يتوقف عليها مصير الأمم بالتدريج، وهذا ما يجعل المؤرخين يلقون مصاعب فى تعيين بدايتها، ولذلك نرى كلمة التطور أصح فى التعبير عن المقصود من كلمة الثورة .

لا تصح العناصر المختلفة التى ذكرنا عملها فى تكوين أكثر الثورات أن تكون أصلاً لتقسيمها، ولكننا إذا نظرنا الى الثورة من حيث غايتها فقط أمكننا تقسيمها الى ثورات علمية وثورات سياسية وثورات دينية .

٢ — الثورات العلمية

الثورات العلمية من أكبر الثورات أهمية ومع أنها لا تستوقف النظر كثيراً هى فى الغالب ذات نتائج بعيدة لا تأتى بمثلها الثورات السياسية .

فسر تحول الصورة التى تنظر بها الى الكون منذ عصر النهضة هو أن الاكتشافات

الفلكية والطرق القائمة على التجربة والاختبار أورثت نفوسنا ثورة باثباتها أن الحوادث تصدر عن سنن ثابتة لا تبدل لا عن أهواء الآلهة .

والأجدر أن تدعى هذه الثورات بالتطورات لبطء وقوعها ، بيد أنه يوجد من نوعها ثورات أخرى تقع بسرعة وتستحق أن تدعى بالثورات ، مثال ذلك آراء داروين التي قلبت علم الحياة في بضع سنين رأساً على عقب واكتشافات باستور التي حولت علم الطب في أيام صاحبها ، والرأى في انحلال المادة الذى اثبت أن الذرة لا تشدعن السنن القاضية على جميع عناصر الكون بالزوال والفناء خلافاً لما كان يظن .
وبما أن مجال هذه الثورات هو عالم الأفكار ليس للمشاعر والمعتقدات سلطان عليها ، وعلى المرء أن يعانها من غير أن يجادل فيها .

٣ — الثورات السياسية

نذكر بعد الثورات العلمية التي هي سر تقدم الحضارة ، الثورات الدينية والثورات السياسية وإن كانت بعيدة منها ولا تربطها بها رابطة ، فالثورة العلمية لا تشق الا من العقل مع أن المشاعر والعواطف هي دعائم المعتقدات السياسية والدينية ولا يكون للعقل سوى شأن ضئيل في تكوينها .

لقد أثبت في كتاب « الآراء والمعتقدات » أن المعتقد السياسى والدينى هو ايمان أئبع فى عالم اللاشعور من غير أن يكون للعقل سلطان عليه وبينت فيه أن المعتقد قد يكون أحياناً من القوة بحيث لا يقوم فى وجهه شئ . وأن المرء الذى استحوز عليه إيمانه يصبح رسولا مستعداً للنضحية بمنافعه وسعادته وحياته فى سبيل نصره ، وأنه لا أهمية لمخالفة هذا الايمان للعقل والصواب بعد أن يكون حقيقة فى نظر صاحبه ، وحقاً أن للعقائد الدينية ، قوة عجيبة فى تغلبها على الأفكار وفى أنها لا تبدل الا بتبدل الأزمان

واعبار المؤمنين المعتقد حقيقة مطلقة يجعلهم غير متسامحين بحكم الضرورة ، وهذا يوضح لنا سر قسوتهم وأحقادهم ومظالمهم أيام الثورات السياسية والدينية الكبيرة ولا سيما أيام ثورة الاصلاح الدينى والثورة الفرنسية .

وتظل بعض أدوارنا التاريخية سرراً إن جهلنا منشأ المعتقدات العاطفى والدينى وعدم تسامحها الضرورى واستحالة التوفيق بينها ثم ما تنعم به المعتقدات الدينية على المشاعر المسخرة لخدمتها من القوة .

والمبادئ المذكورة حديثة العهد بعيدة من تغيير عقلية المؤرخين الذين سوف يستمرون على اعتبار كثير من الحوادث صادراً عن المنطق العقلي ، فمع أن الإصلاح الديني الذي قلب فرنسا مدة خمسين سنة وما ماثله من الحوادث لم ينشأ عن عوامل عقلية لا يزال أكثر المتأخرين من العلماء يعززون هذه الوقائع الى العقل ، مثال ذلك الايضاح الذي أوضح به مسيو لافيس ومسيو رامبو ثورة الإصلاح الديني في كتابهما « التاريخ العام » . إذ قالوا :

« ان ثورة الإصلاح الديني حركة غريزية تولدت في نفوس القوم من مطالعة الانجيل ومن تأملات فردية أو رثها قلوب البسطاء عقل مقدام » .

فالحقيقة هي غير ما زعم هذان المؤرخان ، فهذه الثورة لم تنشأ عن الغريزة ولم يكن للعقل تأثير في نصجها ، وانما خرجت كغيرها من المعتقدات السياسية والدينية التي قلبت العالم من المشاعر وخلق الدين .

حقاً إن مصدر المعتقدات ، سياسية كانت أم دينية ، مشترك وهي خاضعة لسنن واحدة . أى انها لا تتكون بالعقل وكثيراً ما تتكون خلافاً لما يقتضيه العقل . فالבודהية والاسلام والإصلاح الديني واليعقوبية والاشتراكية وإن لاحت على شكل فكرى ظاهر هي بالحقيقة قائمة على عواطف وتدينات متماثلة وتخضع لمنطق لاعلاقة بينه وبين المنطق العقلي أبداً .

تنشأ الثورات السياسية عن معتقدات تأصلت في النفوس ، ولكنها قد تنشأ عن أسباب أخرى تجمعها كلمة الاستياء ، ففى يعم هذا الاستياء يتألف حزب قادر على مكافحة الحكومة .

ويقضى أن يترام الاستياء ليكون ذا نتائج ، ولهذا لا تكون الثورة في الغالب حادثة لم تلبث أن تنتهى حتى تعقبها ثورة أخرى ، بل هي حادثة مستمرة أسرع في نشوءها قليلاً . وعندنا أن الأمم الكثيرة المحافظة هي التي تأتي أشد الثورات خلافاً لما يظن البعض ، لأنها لما كانت محافظة غير متحولة يبطوء لتلائم تقلب اليئات تكره على ملائمتها بغتة بالثورة حينما تصبح الشقة بين الطرفين عظيمة جداً .

ولا مفرّ للأمم التي تلائم تقلب البيّنة بالتدريج من الوقوع في الثورات ، فلم ينجح الانكليز سنة ١٦٨٨ في ختم النزاع الذي استمر قرناً بين العرش الذي كان يرغب أن يكون مطلقاً وبين الشعب الذي كان يسعى أن يكون محكوماً من نوابه إلا بالثورة ، وخاصة الأمة ، لا عامتها ، هم الذين يبدأون بالثورات في الغالب ، ولكن الثورات تستمد قوتها من الشعب عندما يهيج ، وقد لا تتم الثورات إلا إذا دعمها فريق كبير من الجيش ، فلم تأفل الملكية في فرنسة يوم قطع رأس لويس السادس عشر بل يوم امتنع جنده عن الدفاع عنه .

وقد تزول المحبة بالعدوى النفسية من الجيوش التي لا تكثرث لسير الأمور إلا قليلا فعندما استطاع بضعة ضباط أن يقبلوا الحكومة التركية فكر ضباط اليونان في تقليدهم بتغيير الحكومة مع أنه لم يكن شبه بين النظامين .

وقد يمكن تغيير الحكومة بحركة عسكرية ، وذلك كما يقع في الجمهوريات الاسبانية ، ولكن مثل هذه الثورات لا تكون ذات نتائج مهمة إلا إذا صدرت عن استياء عام وآمال كبيرة ، والاستياء إذا لم يكن عاماً شديداً لم يكف لاحداث الثورات المجدية ، فمن الأمور السهلة أن تحرض شرذمة من الناس على النهب والهدم والقتل ، ولكنه يجب لتحريك الأمة كلها أو معظمها أن يبلغ الزعماء في تجسيم الاستياء وأن يحملوا الساخطين على اتهام الحكومة بأنها سبب الحوادث السيئة ، ولا سيما الفاقة والغلاء ، وأن يجعلوا الجمهور يعتقد أن عصر السعادة سينبثق على الناس من النظام الجديد الذي يقترحوه ، فتمت تأصل هذه الأمور في النفوس وتنتشر بالتلقين والعدوى يقرب الوقت الذي تنضج فيه الثورة .

على هذا الوجه نشأت الثورة المسيحية والثورة الفرنسية ، وإذا كانت الأخيرة قد وقعت في سنوات قليلة وتطلب وقوع الأولى كثيراً من السنين . فلأن الثورة الفرنسية لم تلبث أن دعمها الجيش مع أن الثورة المسيحية لم تنل قوة مادية إلا بعد انقضاء زمن طويل ، فالأصاغر والسفلة والعبدان هم الذين كانوا أنصار المسيحية في البداية ، ومنهم سرت عدواها الى الخاصة ، ولما كمل انتشارها بين هؤلاء أيضاً رأى أحد الامبراطرة اتخاذها ديناً رسمياً للدولة ، وهذا كله لم يتم إلا في وقت طويل .

٤ — نتائج الثورات السياسية

بعدما يتم النصر لحزب ينظم هذا الحزب المجتمع كما تقتضيه مصالحه ، فيسن القوانين ويضع الأنظمة حسب منافعه ومنافع الطبقات التي ساعدته على الغلبة ، كطبقة الاكليروس مثلا ، واذا تم النصر للغالبين بعد مصارعات عنيفة ، كما وقع أيام الثورة الفرنسية ، فانهم يقوون دعائم الحقوق القديمة مع اضطهادهم لأنصار النظام الساقط وإخراجهم من ديارهم وإبادتهم .

ويبلغ التعذيب غايته حينما يدافع الحزب الغالب عن معتقد ، عدا دفاعه عن منافعه المادية ، فلا يعامل الحزب المغلوب بالرحمة ، بل يطرده من البلاد كما طرد العرب من الأندلس ويقضى عليه كما قضت محكمة التفتيش على الخوارج بالحرق ويمعن في قتله كما حدث في دور العهد ويسن القوانين ضده كالقوانين الحديثة التي وضعت ضد اليسوعيين .

وقد يتهاذى الغالب في الظلم فيأمر أن يقوم الورق مقام الذهب وأن تباع السلع بأثمان يعينها كما يهوى ، الا أنه لا يلبث أن تصدمه الضرورات التي تحول الرأى العام ضد استبداده ، وذلك كما حدث في أواخر الثورة الفرنسية وكما وقع لوزارة اشتراكية أسترالية مؤلفة من العمال ، فقد وضعت هذه الوزارة قوانين عقيمة ومنحت المنتسبين الى النقابات امتيازات كثيرة فسخط الرأى العام عليها فسقطت في ثلاثة أشهر .

والأحوال المذكورة استثنائية ، فأكثر الثورات قد وقعت ليجلس على العرش ملك جديد ، فليعلم هذا الملك أن استمرار حكمه لا يكون بتفضيله طبقة على أخرى بل باستئالة الطبقات كلها اليه ، وهو لا ينال ذلك إلا إذا وازنها موازنة مانعة من تغلب إحداها عليه ، فإذا ساعد على تفوق طبقة دون أخرى لم تلبث هذه الطبقة أن تصبح سيده ، وهذه سنة من أصح سنن السياسة ، وقد علمها ملوك فرنسا عندما كانوا يكلفون تطاول الأشراف في البداءة ثم الاكليروس من بعدهم ، ولولا ذلك لكان نصيبهم مثل نصيب امبراطرة الألمان في القرون الوسطى حين كانوا يضطرون ، كما فعل الامبراطور هنرى الرابع ، الى زيارة البابوات ليطلبوا العفو عنهم بتذلل .

وقد ثبتت صحة هذه السنة في جميع أدوار التاريخ ، فلما تفوقت طبقة الجند في أواخر

الدولة الرومانية أصبح الامبراطرة تحت إمرة جنودهم فصار هؤلاء يرفعونهم على العرش أو يخلعونهم كما يشتهون

إذاً من حسن حظ فرنسا أن ظلَّ على رأسها زمناً طويلاً ملوك مطلقون مدعون أن سلطانهم مستمد من الله، فلولا ذلك ما استطاعوا أن يقبضوا على زمام الأشراف والأكليروس والبرلمان معاً، ولو كان على رأس بولونية في أواخر القرن السادس عشر ملوك مطلقون محترمون مثل ملوك فرنسا ما هبطت إلى منحدر الانقراض الذي أوجب نحوها من خارطة أوربة.

بيننا في هذا الفصل أنه يمكن أن ينشأ عن الثورات السياسية انقلابات اجتماعية عظيمة الشأن، وسنرى أن هذه الانقلابات تظهر ضعيفة عندما تقاس بالانقلابات التي تنشأ عن الثورة الدينية.

الفصل الثاني

الثورات الدينية

- ١ - البحث في الثورات الدينية ينفع للوقوف على الثورات السياسية الكبرى .
- ٢ - أنصار الاصلاح الديني الأولون
- ٣ - قيمة ثورة الاصلاح الديني العقلية .
- ٤ - انتشار الاصلاح الديني
- ٥ - تصادم المعتقدات الدينية واستحالة التسامح .
- ٦ - نتائج الثورات الدينية .

١ - البحث في الثورات الدينية ينفع للوقوف على الثورات السياسية الكبرى .

سنخصص جزءاً من هذا الكتاب للبحث في الثورة الفرنسية الحافلة بالمظالم الناشئة عن عوامل نفسية .

هذه الثورة الشاذة تفعم القلوب حيرة ، ويلوح للناظر غموض أمرها ، مع أن سرها ينجلي عند اعتبارها ديناً جديداً تابعاً لنواميس انتشار المعتقدات .

• فسوف نرى عندما نبحت في ثورة الاصلاح الديني الكبرى ان ما شوهد في أيامها من الأحوال النفسية شوهد مثله أيام الثورة الفرنسية ، فقد روى في هاتين الثورتين أن شأن العقل ضئيل في انتشار المعتقد وان الاضطهادات فاقدة التأثير وأن تسامح المعتقدات المتباينة مستحيل وان أشد المظالم والملاحم تصدر عن تصادم العقائد المختلفة وأنه يستحيل تبديل عقيدة الناس قبل تبديل كياناتهم .

فبعد أن يثبت عندنا ذلك كله ندرك السبب في انتشار انجيل الثورة الفرنسية حسب الطرق التي انتشرت بها الأناجيل الدينية الأخرى . ولا سيما انجيل كالفن .

وإذا وجد شبه شديد بين تكوين الثورات الدينية ، كثورة الاصلاح الديني ، وتكوين

الثورات السياسية ، كالثورة الفرنسية ، فإن هنالك فرقا ظاهراً بين نتائجهما ، وهذا الفرق يوضح لنا السر في تفاوت دوافعهما ، ويان ذلك أنه ليس في الثورات الدينية تجربة تثبت للؤمنين ضلالهم . لأن ذلك يستدعى اطلاعهم على ما في اللوح المحفوظ ، وأما الثورات السياسية فإن تجربتها لم تثبت أن تثبت ما في المذاهب السياسية من الخطأ والضلال فيضطر الناس إذ ذاك الى تركها ، على هذه الصورة اضطر أشد العاقبة تعصباً الى العدول عن طريقهم عندما رأوا في أواخر عهد الديركتوار أن تطبيق المعتقدات اليعقوبية أوجب إشراف فرنسة على الخراب والشقاء ، ولم يدم من نظرياتهم سوى بضعة مبادئ يصعب تحقيق أمرها ، كبداً السعادة القائل إن المساواة أساس سعادة الناس .

٢ — أنصار الإصلاح الديني الأولون

انتهت ثورة الإصلاح الديني بعد ما اشتد تأثيرها في عواطف الناس ومبادئهم الأدبية . وهذه الثورة الصغيرة الشأن في بدايتها كانت تنجلي في انتقاد تصرف الاكليروس الممقوت وفي دعوة الناس الى العمل بنصوص الانجيل ، لا في دعوتهم الى حرية الفكر ، فقد كان كالفن غير متسامح كروبسيير وكان رجال النظر يقولون إنه يجب على الرعية أن تكون على دين ملوكها ، وهذا ما وقع فعلاً ، ففي البلاد التي عمها الإصلاح الديني حل الملوك محل البابا حقوقاً وسلطاناً .

وقد انتشر الايمان الجديد ببطء في فرنسة في بدء الأمر لعدم علانيته وفقدان وسائل إذاعته . فلم ينضم الى لوثر سنة ١٥٢٠ سوى بضعة أشخاص ، ولكن لما كثرت أنصاره سنة ١٥٣٥ روى أن إحراقهم أمر ضروري .

وسهل الاضطهاد انتشار الإصلاح الديني تبعاً للسنة النفسية المعروفة ، وكان اول المؤمنين به القساوسة والقضاة وأهل الحرف ، وقد تم اقبالهم عليه بالعدوى النفسية والتلقين . ومن المشهود أنه عندما يشيع معتقد جديد بين الناس يلتف حوله رجال لا يهمهم من أمره سوى أنهم يرون فيه وسيلة لارواء شهواتهم وأطاعهم ، وقد وقع ذلك أيام الإصلاح الديني في بلدان كثيرة ، ولا سيما في المانية وانكلترة ، فلما قال لوثر إنه لا حاجة للاكليروس بالمال وجد أمراء المانية الدين الذي بعدهم بالاستيلاء على أموال الكنيسة ديناً طيباً نافعاً .

٣ - قيمة ثورة الإصلاح الديني العقلية .

قلبت ثورة الإصلاح الديني أوربة ، وكادت تدمر فرنسا بتحويلها إياها مدة خمسين سنة الى ساحة حرب ، وما أته من النتائج العظيمة لم تأت مثله أية حادثة تعدلها من حيث قلة قيمتها العقلية .

والأدلة على أن المعتقدات تنتشر بعيدة من العقل كثيرة ، وما أقام النفوس وأقعداها من المذاهب اللاهوتية . أيام ثورة الإصلاح الديني ، ولا سيما مذهب كالفن لا يستحق أن يبحث عنه من جهة المنطق العقلي .

فلوثر الذي همه أمر سعادته الأبدية وخاف من الشيطان خوفا لم يقدر كاهنه على ازالته كان يبحث عن أقوى الوسائل التي يرضى بها الله ليتقى جحيمه ، وبعد أن شرع في انكار حق البابا في بيع المغفرة رفض ما له ولكنيستته من السلطان رفضاً تاماً وأنحى باللائمة على الطقوس الدينية والاعتراف وعبادة القديسين وصرح أنه لا يجوز للنصارى أن يتبعوا غير ما جاء في الكتاب المقدس . ثم قال إن النجاة الأبدية لا تكون إلا بفضل الله وكرمه ، ولم يحدد لوثر نظرية المشيئة الأزلية ، المذكورة تحديداً تاماً ، وقد عرفها كالفن بأوضح من ذلك فجعلها أساس مذهب لا يزال أكثر البروتستانت تابعين له . فعند كالفن « أن الله اختار من الأزل أناساً للنار وآخرين للجنة » وكان جوابه وقتما سئل عن علة هذا الظلم « أن الله أراد ذلك » ، وهكذا رأى كالفن ، الذي لم يفعل سوى ايضاح زعم القديس اوغوستين ، أن الله القادر على كل شيء . يعنى بخلق أناس ليكونوا خالدين في النار غير مبال بأفعالهم وفضائلهم ، وما يستوقف النظر أن تستولى هذه الغباوة الفكرية على النفوس زمناً طويلاً وأن تظل مستحوذة على كثير من الناس حتى الآن .

وهناك شبه بين نفسية كالفن وروبيسير ، فكان الأول كاثوليكياً استأذاً غير متردد في قتل من لم يكن على مذهبه ، وكان يقول « إن الله يريد أن تطرح الرأفة والانسانية جانباً عند الجهاد في سبيله » .

ونستدل من حالة كالفن وأنصاره على أن المتناقضات تلتئم في أدمغة المؤمنين ، فيستحيل من حيث المنطق العقلي أن تثبت أخلاق على مبدأ « المشيئة الأزلية » ، القاتل إن الناس ، مهما تكن أفعالهم ، بعضهم ناجون وبعضهم معذبون ، ومع ذلك لم يلق كالفن صعوبة في إبداع أخلاق قوية قائمة على أساس غير منطقي .

٤ — انتشار الإصلاح الديني

لم ينتشر هذا الايمان بالخطب والبراهين العقلية بل بالعناصر التي بحثنا عنها في كتابنا السابق أى بالتوكيد والتكرار والعدوى النفسية والنفوذ ، وقد انتشرت الافكار الثورية بعد ذلك في فرنسا على هذه الطريقة أيضاً .

وساعد الاضطهاد على هذا الانتشار ، إذ نشأ عن كل حادثة قتل دخول أناس في المذهب الجديد ، فلما سيق القاضي اندبرغ المحكوم عليه بالحرق الى النار سار اليها وهو يحث الجماعة على اعتناق مذهبه ، وقد قال أحد الرواة أن عدد البروتستان زاد بين طلاب المدارس بفعل جلده وصبره اكثر مما يكتب كالفن .

وكانوا يقطعون ألسنة المحكوم عليهم بالحرق خوفاً من أن يخاطبوا القوم ، وقد زاد التعذيب هو لا تقييد الضحايا بسلاسل من حديد لادخالهم في النار وإخراجهم منها مرات كثيرة .

كل ذلك لم يثن البروتستان عن مذهبهم الجديد مع أنهم كانوا يوعدون بالعفو بعد أن تمسهم النار .

ولما عدل فرنسوا الأول عن تسامحه سنة ١٥٣٥ أمر باضرام الوقيد في ستة مواقد في باريس ، وقد اكتفى رجال العهد بمقصلة واحدة فيها كما هو معلوم ، وقد ظهر أن العذاب لم يكن ألبا عند المؤمنين ، حتى إنه شوهد قبل ذلك عدم شعور شهداء المسيحية بالعذاب لتتويعه إياهم ، ومن المسائل المعروفة في الوقت الحاضر أن بعض طرق التنويم تبطل الحس تماماً .

والخلاصة أن انتشار ذلك المذهب كان سريعاً ، ففي سنة ١٥٦٠ أصلحت الفاكينية في فرنسا وانتحله كثير من الأمراء الذين كانوا في بدء الأمر لا يبالون به الا قليلا .

٥ — تصادم المعتقدات الدينية واستعالة التسامح .

ذكرت غير مرة أن عدم التسامح يلزم المعتقدات القوية ، والثورات الدينية والسياسية الدالة على ذلك كثيرة ، وقد أثبتت هذه الثورات أن عدم التسامح بين أنصار المعتقدات المتقاربة يكون أشد مما بين أنصار المعتقدات المتباعدة كالاسلام والنصرانية مثلاً ، فإذا نظرنا الى المعتقدات التي شطرت فرنسا زمناً طويلاً رأيناها لا تختلف الا في

الأمور الثانوية ، فالكاثوليكي والبروتستانى إلهما واحد ولا يختلفان الا فى كيفية عبادته .
وله كان للعقل شأن فى صوغ معتقدهما لأراهما أن الله لا يبالى بالصورة التى يعبد عليها .
ولما كان العقل غير مؤثر فى دماغ المؤمنين استمر البروتستان والكاثوليك على
الاقتتال بقسوة ، وما سعى فيه الملوك للتأليف بين الفرقتين ذهب ادراج الرياح ، وقد
ذهب عن بال كاترينا دومديسيس أن التسامح إن أمكن بين الأفراد لا يكون بين
الجماعات ، فعند ما جمعت علماء اللاهوت خاضوا غمار المناقشة والشتم من دون أن يحيد
واحد منهم عن عقيدته ، ثم رأت سنة ١٥٦٢ أن نشرها مرسوماً تمنح فيه البروتستان
حق الاجتماع والعبادة جهراً أقرب الى النجاح .

وهذا التسامح الحسن نظرياً والسوء عملياً ، لم ينشأ عنه غير إيغار صدور رجال
الحزبين فاضطهد البروتستان الأقوياء فى جنوب فرنسا الكاثوليك لكى يترك هؤلاء
عقيدتهم وكانوا يذبجونهم وينهون كنائسهم عندما يفشلون ، وقد أصاب البروتستان نظير
ذلك فى الأمكنة التى كانت الأكثرية فيها الكاثوليك .

وقد نشأ عن مثل هذه الأحقاد حروب دينية ضرجت فرنسا بالدم زمناً طويلاً ،
فدنها دمرت والدماء فيها سفكت ، وسرعان ما اتصف هذا النزاع بالقسوة الوحشية
الخاصة بالوقائع الدينية والسياسية .

أيد الشيوخ والنساء والأطفال وصار رئيس برلمان إكس البارون دوييد مثالا
يقتدى به لقتله فى عشرة أيام ثلاثة آلاف شخص وتدميره ثلاث مدن واثنين وعشرين
قرية ، وكان مولوك يطرح أتباع كالفن فى الآبار حتى تمتلئ . ولم يفعل البروتستان أقل
من ذلك فكانوا يعتدون على الكنائس الكاثوليكية ويتناولون على القبور والهيكل
كتناول رجال العهد من بعدهم على قبور الملوك .

أخذت تلك الحوادث تفكك عرى فرنسا ، فأصبحت فى أواخر عهد هنرى
الثالث جمهوريات صغيرة مستقلة متشاكسة ، وقد تضاعفت سلطة الملوك فكانت بلوا تملى
على هنرى الثالث الذى فر من عاصمته مطالبيها ، وقد شاهد السائح ليومانو سنة ١٥٧٧
فى فرنسا مدناً كبيرة ، مثل اورليان وبلوا وتور وبواتيه ، عمها الخراب وكنائس
متداعية وقبوراً مهدمة .

والواقعة التي تركت من بين وقائع ذلك الوقت أسوأ ذكر هي مذبحه سان بارتلى التي أمر بها سنة ١٥٧٢ شارل التاسع وكاترينا دوميديسيس .

لا يتطلب الجزم بأنه لم يوجد ملك قادر على الأمر بوقوع مثل ذلك الحادث بحثاً نفسياً دقيقاً ، فلم تكن واقعة سان بارتلى جرماً أقره الملك بل جرماً شعبياً ، فلما قتل كاترينا دوميديسيس في باريس خمسة من زعماء البروتستان الذين ظنت أنهم يأترون بها وبالمملك وشاع ذلك في باريس انقضت اشراف الكاثوليك والحرس الملكي والجمهور على الخوارج فقتلوا منهم ألفي نفس ، وقد حذا سكان الولايات حذو أهل باريس في ذلك بعامل العدوى فسفكوا دماء ما يقرب من ثمانية الاف نفس .

ولما سكن الزمان الحية الدينية قليلاً أنحى المؤرخون من كاثوليك وغيرهم على مذبحه سان بارتلى باللائمة فأثبتوا لنا بذلك أن الوقوف على نفسية عصر من خلال نفسية عصر آخر أمر متعذر .

لم يوجه إلى حادثة سان بارتلى أيام وقوعها شيء من الانتقاد في أوربة الكاثوليكية ، وقد أوجبت حماسة لا توصف ، فكاد فيليب الثاني يصبح مجنوناً لشدة فرحه عندما بلغه وقوعها وتساقطت أنواع التهنة على ملك فرنسا أكثر مما كانت تتساقط عليه لونا نال نصراً عزيزاً في ساحة الحرب ، ولم يبد السرور على أحد كما بدا على البابا غريغوار الثالث عشر ، فقد أمر بضرب أوسمة خاصة تخليداً لذكرها (١) وبايقاد نيران الفرع وباطلاق المدافع وباقامة قدايس كثيرة وبجعل الرسام فازارى يصور على جدران الفاتيكان مناظرها ثم أرسل إلى ملك فرنسا سفيراً ليهنئه بعمله المجيد ، فهذه الأنباء التاريخية تدلنا على نفسية المؤمنين في كل دور .

ومن الأمور الطبيعية أن لا يبقى البروتستان مكتوف الأيدي إزاء هذه الملمحة ، فقد بلغ امتعاضهم مبلغاً جعل هنرى الثالث يمنحهم في مرسوم يوليو الذى نشره سنة ١٥٧٦ حرية دينية تامة وثمانية أماكن حصينة وأن يكون عددهم في بعض البرلمانات مساوياً لعدد الكاثوليك ، ولم ينشأ عن هذه الامتيازات القهرية ارتياح في النفوس ، فقد تألب الكاثوليك ،

(١) وزعت الاوسمة على كثير من الوجوه والاكار ، والى الآن يوجد ثلاثة منها في المكتبة الوطنية : أحدها من ذهب والثاني من فضة والثالث من نحاس ، وقد رسمت على هذه الاوسمة صورة غريغوار الثالث عشر وبجانبيه ملك يغرب بالسيف أعناق الخوارج ثم هذه الكلمة : « قتل الخوارج »

وعلى رأسهم دوك دو كيز، وأوقدوا نيران حرب لم يطفئها هنرى الرابع إلا بارتداده سنة ١٥٩٣ وبوضعه مرسوم نانت .

نعم إنه أضعف جذوتها ولكنه لم يقض عليها، إذ رفع البروتستان راية العصيان أيام لويس الثالث عشر فاضطر ريشيليو سنة ١٦٢٧ الى محاصرة لاروشيل حيث هلك ١٥٠٠٠ نفس من البروتستان، ولما كان هذا الكردينال الشهير ذا روح سياسية عالية عاملهم بالتسامح .

ولم يدم هذا التسامح طويلا، فالعقائد المتناقضة لا تظل متقابلة من غير أن تصادم عندما تشعر إحداها بقدرتها على قهر الأخرى، فلما ضعف البروتستان فى أيام لويس الرابع عشر عدلوا عن القيام بأية حركة عدائية وأصبحوا مسلمين، وقد كان عددهم ١٢٠٠٠٠٠ نفس وكان لهم ٦٠٠ كنيسة لها ٧٠٠ قسيس، وبما أن بقاءهم فى فرنسا مما لم يصبر عليه كهنة الكاثوليك أخذوا فى اضطهادهم فاعتمد لويس الرابع عشر سنة ١٦٨٥ على فرسانه فى قتل أناس كثيرين منهم، ولما لم يجد ذلك نفعا ضغطه الاكليروس ولا سيما بوسويه فألغى مرسوم نانت وخير البروتستان بين ترك مذهبهم وهجرة بلاد فرنسا .

استمرت تلك الهجرة طويلا، وقد خسرت فرنسا من أجلها أربعمئة ألف رجل كريم أصغوا الى نداء ضمائرهم أكثر مما الى مصالحهم الذاتية .

٦ - نتائج الثورات الدينية

لم تكن الثورات الدينية كلها سيئة مثل ثورة الإصلاح الدينى، بل كان تأثير الكثير منها فى تقويم الناس وتهذيب نفوسهم عظيما جداً، فهى بمنحها الشعب وحدة أدبية تزيد قوته المادية كثيراً، وقد شوهد ذلك لما حوّل محمد (صلعم) بما جاء به من الايمان قبائل العرب الضعيفة الى أمة عزيزة .

ولا يقتصر المعتقد الدينى الجديد على جعل الأمة متجانسة، بل يأتى بما يتعذر على أى فيلسوف أو قانون أن يأتى بمثله، أى إنه يغير عواطف الأمة الثابتة .

وقد لوحظ ذلك وقتما قضت أكبر ثورة تاريخية على الوثنية وأقامت مقامها عبادة إله جاء من سهول بلاد الجليل، دعا هذا الدين الجديد الناس الى العدول عن كل نعيم فى هذه الحياة ليكونوا خالدين فى ملكوت السموات وهذا الدين الذى أقبل عليه الأرقاء

والبائسون والمحرومون طيب العيش أيما إقبال لو عده إياهم نعيماً دائماً بدلاً من حياة لا أمل فيها قد هان أمره على الأغنياء أيضاً ، وهذا يثبت لنا ما للايمان الجديد من السلطان على النفوس .

لم تقتصر الثورة النصرانية على تحويل العادات ، بل أثرت تأثيراً كبيراً في سير الحضارة مدة ألفي سنة . فحتى يتم النصر لمعتقد ديني ثلاثه عناصر الحضارة ملائمة تتحول بها ، ولا يفعل الكتاب ورجال الأدب والفن والفلاسفة وقشذ غير الاشارة الى ذلك المعتقد الجديد في تأليفهم .

وعندما ينتصر الايمان سواء أدينياً كان أم سياسياً لا يؤثر فيه العقل ، وإنما يحدد هذا العقل مسوغات يركبها ، وربما كان أيام مولوخ خطباء ولاهوتيون كثيرون يثبتون مافي القرايين البشرية من القوائد كعدد من ظهر في الأزمنة الأخرى من الخطباء وعلماء اللاهوت الذين مجدوا محاكم النفثيس وملحمة سان بارتلى ومذابح دور العهد .

ولا تعرف الأمم ذات المعتقدات القوية شيئاً من التسامح ، فالأمم المشتركة هي التي كانت متسامحة في القرون القديمة ، والأمم المتسامحة في القرون الأخيرة هي التي يمكن نعتها بأمم ذات أرباب متعددة ، فهي ، مثل الانكايز والأمريكان ، مفترقة على فرق دينية كثيرة وتعبد آلهة مختلفة بأسماء واحدة ، غير أن تعدد المعتقدات الذي يجعلها متسامحة يضعفها في نهاية الأمر ، وهنا نرى أنفسنا إزاء معضلة نفسية لم تحل حتى الآن وهي : حيازة معتقد قوى ومتسامح معاً .

ظهر لنا من البيان الوجيز السابق مالثورات الدينية من الشأن الأعظم وما للمعتقدات من السلطان الأكبر ، فهي التي تقود التاريخ على رغم قيمتها العقلية القليلة ، وهي التي تقى الأمم من أن تكون أشخاصاً ضعفاء لا تربطهم رابطة ، وقد احتاج الانسان اليها في كل عصر ليوجه أفكاره نحو مطلب وما استطاعت أية فلسفة أن تقوم مقامها حتى الآن

الفصل الثالث

شأن الحكومات في الثورات

- ١ - ضعف مقاومة الحكومات في الثورات
- ٢ - كيف تؤدي مقاومة الحكومات الى انتصارها على الثورات
- ٣ - ثورات الحكومات ، مثال تركيا والصين
- ٤ - العناصر الاجتماعية التي تبقى بعد أن تقلب الثورات الحكومات

١ - ضعف مقاومة الحكومات في الثورات

عانى كثير من الأمم الحديثة كفرنسة واسبانية وبلجيكية واليابان وتركيا والبرتغال أمر الثورات ، وتوصف هذه الثورات في الغالب بحدوثها بغتة وبسهولة قلبها للحكومات . وسبب حدوثها بغتة هو سرعة العدوى النفسية الناشئة عن طرق النشر والاذاعة في الوقت الحاضر ، وما يقضى بالعجب ضعف مقاومة الحكومات لها ، فذلك يدل على عجزها عن الاطلاع على حقائق الأمور وكشف عواقبها .

لم يكن إسقاط الحكومات بسهولة أمراً حديثاً ، فقد شوهدت غير مرة حكومات قلبت بسهولة ، ومنها حكومة استبدادية أسقطتها مؤامرات البلاط ومنها حكومات مطلعة على الرأي العام بواسطة الصحافة وبواسطة موظفيها .

ومن أمثلة ذلك السقوط الفجائي خلع شارل العاشر بعد نشر مراسيمه بأربعة أيام ، فهذا الملك ، الذي لم يتخذ وزيره بولينياك وسيلة للدفاع عنه ، قد بلغ اعتقاده سكون باريس مبلغاً جعله يذهب الى الصيد ، وقد تشتت شمل جيشه ، لسوء قيادته ، أمام هجمات عصاة قليلين

وخلع لويس فيليب بثورة صغيرة يقضى بالعجب العجيب ، فهذا الخلع لم ينشأ عن استبداده ، وإنما نشأ عن عجز قواده عن الدفاع عنه ، وذلك خلافاً لما قاله المؤرخون الذين

لا يعتقدون إمكان سقوط حكومة منظمة يؤيدها جيش كبير على يد نفر من العصاة ويعززون خلع لويس فيليب الى أسباب بعيدة من الحقيقة .

حقاً وجد في باريس جيش مؤلف من ٣٦.٠٠٠ جندي لم ينتفع به لعجز قاداته وضعفهم ، فلما أكثر هؤلاء القادة من إعطاء الأوامر المتناقضة ونهوا الجيش عن ضرب القوم اختلطت الجماعات بالجنود فتم النصر للثورة من غير كفاح واضطر الملك الى النزول عن العرش .

وقد أشار الجنرال بونال ، مستعيناً بمباحثنا في روح الجماعات ، الى أن اتحاد الفتنة التي أدت الى خلع لويس فيليب كان ممكناً ، فبين أنه لوبقى شيء في رؤوس القواد من العقل لاستطاعت ثلثة من الجيش أن تردع العصاة عن الاستيلاء على مجلس النواب ولنسألي هؤلاء النواب الذين كانوا من أنصار الملكية بكونت دوبارى ملكا واناابوا أمه عنه .

يثبت لنا ذلك ما للعوارض الصغيرة الثانوية من الشأن في تكوين الحوادث العظيمة ويغنيانا عن الاسهاب في بيان سنن التاريخ العامة ، فلولا الفتنة الصغيرة التي أوجبت خلع لويس فيليب ما قامت الجمهورية سنة ١٨٤٨ وما ظهرت الامبراطورية الثانية وما حدثت واقعة سيدان وما أغار الأجني علينا وما أضعنا الأكراس على ما يحتمل .

ولم يمد الجيش في الثورات التي ذكرتها يد المعونة الى الحكومات ولم يثر عليها ، وقد يقع عكس ذلك ، فالجيش هو الذي قام بالثورات في البرتغال وتركيا وعلى يده تتم الثورات الكثيرة في الجمهوريات اللاتينية الأمريكية ، وإذا قام الجيش بالثورة أصبح القائمون بأمور الدولة تحت إمرته ، وقد وقع ذلك في أواخر الدولة الرومانية عندما كان الجنود هم الذين يخلعون الامبراطرة .

ولا تتم الثورة بغير معاضدة الجيش أو بمحايدته على الأقل ، بيد أنها تبدأ في الغالب من غير أن يتدخل ، ذلك كما حدث في ثورة سنة ١٨٣٠ وثورة سنة ١٨٤٨ وثورة سنة ١٨٧٠ التي قضت على الامبراطورية حينما شعر الناس في فرنسا بالعار الذي أصابهم من استيلاء الألمان على مدينة سيدان .

وتقع أكثر الثورات في العواصم ومنها تسرى بالعدوى الى البلاد جميعها ، وليس لذلك قاعدة ثابتة ، فقد ثار أهل فاندو وبريتانية والجنوب على باريس أيام الثورة الفرنسية الكبرى كما هو معلوم .

٢ — كيف تؤدي مقاومة الحكومات الى انتصارها على الثورات

ظهر لنا من أكثر الثورات التي ذكرناها أن الحكومات الضعيفة تنهار عندما تمس، غير أن الثورة الروسية السابقة أثبتت لنا إمكان انتصار الحكومة التي تعرف كيف تدافع عن نفسها.

لم تحدث ثورة أكثر خطراً على حكومة من هذه الثورة، فبعدما غلبت روسية في الشرق الأقصى وشعر الناس بشدة النظام الاستبدادي تمرت فيها الطبقات الاجتماعية ومنها جزء من الجيش والاسطول وأضرب موظفو الخطوط الحديدية والبريد والبرق عن العمل فاقطعت وسائل النقل والمراسلة في تلك الامبراطورية العظمى.

ثم أخذت الدعوة الثورية تشيع بين طبقة الفلاحين الذين هم معظم الأمة الروسية وقد كان هؤلاء يعيشون عيشة بؤس وشقاء لا كراههم، كما يقتضيه نظام مير، على الفلاحة من غير أن تكون الغلة لهم فعزمت الحكومة على استئثارهم بتحويلهم الى ملاك فوضعت قوانين أكرهت بها ساداتهم على بيعهم جزءاً من أراضيهم ثم أنشأت مصارف لتقرضهم مالا يؤدون به ثمن ما يشترونه على أن يدفعوا ديونهم الى تلك المصارف اقسطاً سنوية من المحاصيل.

وبعدما استألت الحكومة الروسية الفلاحين على هذا الوجه استطاعت أن تقا تل، من غير رحمة، العصاة المتمردين الذين كانوا يحرقون المدن ويلقون القنابل بين الجماعات فإبادت من قبضت عليهم منهم سائرة على السنة الضرورية لحفظ المجتمع من التأثيرين الذين يريدون نقضه.

ثم رأت الحكومة الروسية التي خرجت من هذه المعامع ظافرة ان تجيب فريق الأمة المذهب الى مطالبه الحققة فأنشأت مجلساً اشتراعياً يسن القوانين ويراقب النفقات.

يثبت لنا تاريخ الثورة الروسية كيف أن حكومة تداعت أركانها الطبيعية استطاعت بثباتها ودرايتها أن تغلب على أشد الصعوبات، فلقد أصاب من قال: «إن الحكومات لا تقلب بل تتحجر».

٣ — ثورات الحكومات، مثال تركية والصين

الحكومات تقاوم الثورات عادة ولا تقوم بها، غير أن هنالك حكومات قامت باصلاحات فجائية من فصيلة الثورات، وما أنصفت به الروح القومية في البلاد من الثبات أو التقلب يوضح لنا سر نجاح هذه الحكومات أو فشلها في ذلك.

فالحكومة تنجح عندما تكون الأمة التي ترغب أن تتركها على أنظمتها الجديدة مؤلفة من قبائل وحشية خالية من القوانين الثابتة والتقاليد الراسخة أى من روح قومية قوية ، ومن أمثلة ذلك روسية أيام بطرس الأكبر الذى حاول أن يفرنح الروس ، واليابان مثال آخر للثورات التي قامت بها الحكومات ، ولكن طرق اليابان الفنية هي التي تغيرت لا روحها القومية .

ويتطلب النجاح في تلك المساعي وجود ملك عبقرى مستبد قوى ، ذلك لأن الملك المصلح يرى الأمة جمعا قد وقفت في وجهه فيكون وقتئذ هو الثائر وهي المحافظة خلافا لما يقع عادة .

والفشل في تلك الثورات هو الأصل سواء أمن عليه القوم كان القائمون بها أم من سفلتهم ، فروح الأمة الراسخة منذ زمن طويل لا تتبدل وإنما الأمور التي أبلأها الزمان هي التي تتحول .

قامت الصين في الوقت الحاضر بتجربة دلتنا على أنه من المستحيل أن تجد حكومة نظم الأمة نجاة ، فالثورة التي اشتعلت فيها ونشأ عنها سقوط العائلة المالكة هي نتيجة استياء الشعب من الإصلاحات التي أرادت الحكومة الصينية أن تلزمه بها لتحسن حالة البلاد ، وقد أوجب تحريم الأفيون ولعب القمار وإصلاح الجيش وفتح المدارس فيها أن تزيد الضرائب زيادة أفلقت الرأي العام كالأصلاحات نفسها .

فاستفاد من هذا السخط بضعة صينيين درسوا في المدارس الأوربية فخرضوا الشعب على الثورة ليعلم النظام الجمهورى الذى لا يفقه صينى من أمره شيئا .

ولا يدوم هذا النظام طويلا ، فلم يكن الباعث الذى أحدثه باعث تقدم بل باعثا رجعيأ ، فكلمة جمهورية عند الصينى الذى تخرج على الطريقة الأوربية مرادفة لكلمة التحرر من سلطان القوانين والأنظمة والتقاليد ، وهو يظن أنه بقصه ضفيرته وبوضعه خوذة على رأسه وبإقامته الجمهورية يستطيع أن يرخى لشهوات نفسه أعنتها .

وسترى الصين قريبا ماذا يكون أمر بنيانها الجديد الذى لم يقم على دعائم الماضى . فالعلم لم يكتشف بعد عصا السحر القادرة على إبقاء مجتمع فوضى ، فستضطرب الصين بعد أن تغوص بضع سنين في بحار الفتن التي تسفك بها الدماء الى الاعتصام بسلطة مستبدة أشد من السلطة التي قلبتها ، إذ لا احتياج إلى إكراه الناس على النظام إذا كان وراثيا ، وأما إذا هدمت الشهوات الأنظمة التي أقامها الأجداد فلا يتجدد بناؤها الا باستبداد شديد .

وقامت تركية أخيراً كالصين بتجربة قد تكون دليلاً على صحة ما بيناه ، فقد استطاع منذ بضع سنين شبان درسوا في مدارس أوربية أن يخلعوا السلطان الذى أصبح استبداده لا يطاق ، وأعانهم على ذلك كثير من الضباط ظانين أنهم قادرون على تأسيس نظام نيابى فى بلاد متأخرة ذات أديان مختلفة مثل بلادهم .

لم يأت هؤلاء حتى الآن عملاً مشكوراً ، وقد رأوا على رغم انتحالهم الحرية ، أنهم مضطرون إلى حكم البلاد بأساليب قريية من أساليب العهد الذى قضوا عليه .

ولا يجوز أن يلاموا على ذلك ، فإذا يفعلون فى تحويل أمة ذات تقاليد قديمة راسخة وذات عواطف دينية قوية ؟ وكيف لا يبقى الاسلام دين الدولة فى بلاد اتحد فيها الشرع المدنى والشرع الدينى وقام فيها المبدأ الوطنى على الايمان بالقرآن ؟ يصعب هدم ذلك ، ولذا رجعت تركية الى نظام استبدادى ذى مسحة دستورية كنظامها السابق .

بتلك التجارب يستشهد فى القول : إنه يتعذر على الأمة أن تختار نظمها قبل أن تغير روحها .

٤ — العناصر الاجتماعية التى تبقى بعد أن تقلب الثورات الحكومات

ما نقوله عن ثبات الروح القومية يدلنا على ما للنظم التى قامت منذ زمن بعيد من القوة . نعم يقدر المؤتمرون على خلع الملك ، ولكنهم يعجزون عن فعل شيء لا يلائم المبادئ التى يمثلها الملك ، فلما خلع نابليون لم يخلفه وارثه الممثل لمبادئ غير ثابتة فى النفوس بل ورثه ابن الملوك الممثل لمبدأ قديم .

والوزير مهما يكن ماهراً وبارعاً فى خدمة بلاده فقد لا يقدر على خلع ملكه ، ولو أراد بسمارك ذلك ما استطاع ، مع أنه كفى لسقوط بسمارك ، وهو الذى صنع وحده الوحدة الألمانية ، إشارة صغيرة من سيد .

على أننا اذا فرضنا وجود أسباب مختلفة تلاشى الحكومة والمبدأ الذى تمثله ، كما وقع أيام الثورة الفرنسية ، فإن العناصر التى يتألف منها نظام المجتمع الحقيقى لا تزول كلها فى الوقت نفسه ، فلو اقتصر مانعنا عن فرنسا على ما وقع فيها من الانقلابات منذ عصر لقلنا إنها فوضى ، والواقع أنها تبدو للناظر ذات حياة اقتصادية صناعية سياسية مستمرة بعيدة من الانقلابات والأنظمة .

فبجانب الحوادث العظيمة التى يهتم بها التاريخ أمور صغيرة تخص الحياة اليومية

ولا تعباً الكتب بذكرها ، وهى تابعة لعوامل مهيمنة لا تقف أبداً و يتألف من مجموعها
لحمة حياة الأمة .

إذن من هم قادة الأمة الحقيقيون ؟ لا ريب ، هم الملوك والوزراء فى الأحوال العظيمة ،
ولكن لا شأن لهؤلاء الرجال فى الأمور الصغيرة التى تتألف الحياة اليومية منها ، فالقوى
الحقيقية التى تدير البلاد هى عناصر الإدارة غير الشخصية التى لا يؤثر فيها ما يصيب نظام
الحكم من التحولات ، ولهذه الإدارة ، ذات التقاليد المحافظة المتصفة بالدوام والخفاء ، قوة
تنحى أمامها القوى الأخرى ، وقد بلغ تأثيرها مبلغاً أوشك أن يكون لها به دولة خفية
أقوى من الدولة الرسمية ، وسيأتى تفصيل ذلك .

الفصل الرابع

شأن الأمة في الثورات

١ - ثبات روح الأمة ومرونتها

٢ - كيف تتلقى الأمة الثورة

٣ - شأن الشعب في الثورات

٤ - طبقات الأمة

١ - ثبات روح الأمة ومرونتها

يستلزم الاطلاع على أحوال إحدى الأمم الوقوف على بيئة تلك الأمة ولا سيما ماضيها، فلماضي وإن أمكن إنكاره نظرياً، كما فعل رجال الثورة الفرنسية وكثير من رجال السياسة في الوقت الحاضر، لا يفنى تأثيره.

ففى الماضى الذى هو تعاقب الأجيال تتكون عناصر روح الأمم من أفكار ومشاعر وتقاليد وأوهام، ولولا هذه العناصر التى لا ارتقاء بغيرها لاضطر كل جيل الى استئناف العمل.

ولا تتوسط عناصر روح الأمة إلا إذا كانت على شئ من الثبات الذى تسهل به مرونة تلك الروح، فالروح الرأبسة بلا ثبات تكون مذبذبة غير مستقرة، وبلا مرونة تكون عاجزة عن ملاممة تقلبات البيئة الناشئة عن تقدم الحضارة.

شدة المرونة فى روح الأمة تسوقها إلى القيام بثورات متوالية وشدة الثبات تقودها إلى الانقراض، فنوات الحياة ومنها الأنواع البشرية تضمحل إن ظلت مستقرة على رغم تعاقب الزمن وعاجزة عن ملاممة ما يطرأ على الحياة من الأحوال الجديدة.

والأمم التى وازنت بين هاتين الصفتين المتناقضتين أى الثبات والمرونة، قليل عددها، ونذكر منها الرومان فى القرون القديمة والانكليز فى الوقت الحاضر.

حقاً إن الأمم التي رسخت روحها كثيراً تأتى بأشد الثورات في الغالب، فهي لعجزها عن النشوء التدريجي تضطر الى ملازمة تقلبات البيئة بعنف عندما تصبح هذه الملازمة أمراً ضرورياً.

ولا تستقر روح الأمة إلا ببطء عظيم، فما التاريخ إلا أنباء بمجهوداتها الكبيرة في سبيل توطيد روحها، وتظل هذه الأمم مذبذبة لا رابطة بين أجزائها ما دامت غير ناجحة في ذلك، وقد سعت فرنسا، بعد أن أغار البرابرة على الدولة الرومانية في أواخر عهدها، قروناً كثيرة لتنال روحاً قومية.

نعم إنها اكتسبتها في آخر الأمر، ولكن رسوخها لم يلبث أن صار شديداً، ولو اتصفت روحها بقليل من المرونة لتطور نظامها الملكي القديم بالتدريج، ولتخلصت من ثورتها الكبرى ومن نتائجها ومن سعي شاق لتجديد روحها القومية.

ثبتت لنا الملاحظات السابقة شأن العنصر في تكوين الانقلابات وتوضح لنا لماذا تأتى الثورة الواحدة بنتائج تختلف باختلاف الأمم كما توضح لنا سبب اقبال بعض الأمم بحماسة على مبادئ الثورة الفرنسية ومقاومة الأمم الأخرى لها.

لا ريب في أن انكسار المحافظة عانت أمر ثورتين وقضت على أحد ملوكها، ولكن مزاجها النفسى كان ثابتاً ثباتاً كافياً لحفظ تراث الماضى ومرناً مرونة كافية للنشوء هذا المزاج حسباً تقتضيه الضرورة، وهى، على عكس رجال الثورة الفرنسية، لم تفكر قط في تقويض تراث الأجداد لتقيم مجتمعاً جديداً باسم العقل.

قال البير سورل: «بينما كان الفرنسى يحترق حكومته ويمقت اكليروسه ويحقد على أشراف أمته ويتمرد على قوانين بلاده كان الانكليزى يفتخر بدينه وبدستوره وبأكابرامته وبمجلس أعيانه، فكان كأنه يحكم أوربة ويستخف بها معصماً بأبراج ذلك الحصن المنيع ويتجلى لنا أيضاً شأن العنصر في مصير الأمم عند البحث في تاريخ الثورات الاميركية الاسبانية الدائمة، فالأمم الاميركية الاسبانية مولدة، أى مؤلفة من أناس انحلت أخلاقهم بتأثير الوراثة المتباينة انحلالاً حرمهم روحاً قومية ثابتة وجعل حكمهم متعذراً. ومن يرد أن يطلع على التباين بين استعداد الأمم السياسى الناشئ عن اختلاف العنصر فليبحث عن أمة واحدة حكمها جنسان.

ولم يكن ذلك نادراً في التاريخ، فقد تجلى حديثاً في القطرين كوبا والفلبين اللذين

استولت عليهما الولايات المتحدة بعد الحكم الأسباني ، فالكل يعلم درجة ما وصلت اليه كوبا أيام الحكم الأسباني من الفوضى وما وصلت اليه من العمران في بضع سنين أيام حكم الولايات المتحدة

والكل يعلم أن الفلبين كانت أيام سلطان الأسبان الذي استمر قروناً كثيرة مستنقعا واسعا تعيش فيه أمة بائسة عاطلة من التجارة والصناعة ، وبعد استيلاء الاميركيين عليه أصبح خالياً من العفن والخبث والطاعون موصول الأجزاء بالسكك الحديدية مكتظاً بالمصانع والمدارس متمتعاً بأسباب الصحة والوقاية .

فإلى مثل هذه الأمثلة يجب رد رجال النظر الذين لم يدركوا ما في كلمة العنصر من المعاني ولم يفقهوا أن روح الأمة الموروثة هي التي تسيطر على مصيرها .

٢ — كيف تتأقلم الأمة الثورة

شأن الشعوب واحد في الثورات كلها ، فهي لا تدرك مغزاها ولا تدبر أمرها ، وإنما الزعماء هم الذين يحركونها .

ولا يخلع الطاعة فريق من الشعب بغريزته إلا إذا مس الضر منافعه الظاهرة ، وذلك كما وقع في شامباية حديثاً ، وتدعى هذه الحركة المحلية بالعصيان البسيط .

ويسهل وقوع الثورة إذا كان زعمائها من ذوى النفوذ العظيم ، وأما مبادئ الثورة فلا تدخل في قلب الشعب إلا بالتدريج ، فالشعب يقوم بالثورة من غير أن يعلم سببها ، ومتى ساقه الحظ إلى إدراك هذا السبب فإن الثورة تكون قد انتهت منذ زمن طويل .

ويقوم الشعب بالثورة مجيئاً دعوة زعمائه ، وهو مع عدم إدراكه شيئاً يستحق الذكر من أفكار هؤلاء الزعماء تتوارده هذه الأفكار حسبما يميله عليه خياله .

خذ الثورة الفرنسية التي وقعت سنة ١٧٨٩ مثلاً ترغبتها أن يقبض على زمام الأمور أبناء الطبقة الوسطى بدلاً من الأشراف .

ولم ينظر إلى مصلحة الشعب في بدء هذه الثورة إلا قليلاً . والشعب وإن أعلنت سيادته فيها كانت تفسر هذه السيادة بحقه في انتخاب نوابه فقط .

ولما كان الشعب جاهلاً غير طامع ، كابناء الطبقة الوسطى ، إلى الارتقاء في السلم الاجتماعي وكان شاعراً ببعده من درجة الأشراف غير طامع في مساواتهم كانت أغراضه ومنافعه تختلف كثيراً عن أغراض عليا القوم ومنافعهم .

يبد أن ما وقع بين المجلس النيابي والملك من المنازعات أوجب تدخل الشعب فيها شيئاً فشيئاً فأصبحت ثورة الطبقة الوسطى بذلك ثورة شعبية، وبما أن المبدأ لا يؤثر إلا إذا استند الى العاطفة والتدين وجب على مبادئ الطبقة الوسطى النظرية، لتؤثر في الشعب، أن تتحول الى إيمان جديد واضح مشتق من المنافع العملية الظاهرة.

تم هذا التحول بسرعة عندما سمع الشعب الرجال الذين كانوا الحكومة في نظره يقولون له إنه مساو لساداته السابقين فاعتبر أنه كان ضحية وشرع ينهب ويحرق ويقتل ظاناً أنه يتصرف في حق له.

وهكذا تجلت قوة المبادئ الثورية في منح حرية السير والعمل لأصحاب الغرائز الفطرية الصارة التي رددتها البيئة والتقاليد والقوانين منذ القديم.

ولما أخذت الزواجر الاجتماعية التي كانت تزرع عامة الأمة تتداعى على الوجه المذكور تصور هؤلاء أن قوتهم غير محدودة فصاروا يطاردون ساداتهم السابقين ويسلبونهم أموالهم، وهل يتمتع الشعب عن فعل كل شيء بعد أن يصبح حاكماً؟

لم تلبث كلمة الحرية والمساواة والاخاء التي كانت عنوان الإيمان الجديد والآمال الجديدة في بدء الثورة أن أخذت تسوغ غرائز الطمع والحسد والحقد، تلك الغرائز المحركة للجماعات والتي لا يزرعها نظام، وهذا ما جعل النظام يحتل والظلم يسود والفوضى تعم في وقت قصير.

وبعد أن هبطت الثورة الفرنسية من الطبقة الوسطى الى طبقة العوام تقلص ظل العقل وتغلبت عليه الغرائز، واتصار الغرائز الموروثة أمر مخيف، فلم تؤد المجهودات التي قامت بها المجتمعات لتعيش إلا إلى زجر بعض الغرائز الحيوانية الموروثة، نعم يمكن ردع هذه الغرائز، ولها تقدمت الأمة في ميدان الحضارة صار هذا الردع أتم واكمل، إلا أنه يستحيل القضاء عليها، ولذا كان تحريرها خطراً جدياً، فتي فاض السيل لا يرجع الى مجراه قبل أن يخرب ما يصل اليه.

٣ — شأن الشعب في الثورات

ثبتت لنا سنن روح الجماعات أن الشعب لا يسير من غير زعماء وأن عمله وإن كان عظيماً في الثورات، لاندفاعه فيما حرض عليه، لا يقود ما ينجزه من الحركات أبداً.

وللزعماء في كل ثورة سياسية تأثير، ومع أنهم لا يبتكرون المبادئ التي تستند اليها

فانهم يتخذونها وسيلة للعمل ، فلكل من المبادئ والزعماء والجيش والجماعات شأن خاص في جميع الثورات .

تسير الجماعة التي هيجهها الزعماء معززة بعددها ، ومثل تأثيرها كمثل تأثير القبلة التي تخترق الدرع مستمدة قوتها من شيء آخر ، وقبلها تدرك الجماعة شيئاً من الثورات التي تقوم بها ، فهي تتبع الزعماء طائفة من غير أن تبحث عن شهواتهم ، فقد خلعت شارل العاشر من أجل مراسيمه وهي لم تفقه شيئاً من أمر هذه المراسيم ، ولو سئلت عن سبب خلعها لويس فيليب لعجزت عن الجواب .

وقد خدعت الظواهر مؤلفين كثيرين ، كميشله واولار ، فظنوا أن الشعب هو الذي قام بالثورة الفرنسية الكبرى ، قال ميشله : « إن الفاعل الأصلي للثورة الفرنسية هو الشعب ، وقال اولار : « ان من الخطأ أن يقال إن الذين أوقدوا نار الثورة الفرنسية هم بعض الوجهاء فقد ثبت عندى ، بعد الاطلاع على ما وقع في سنة ١٧٨٩ وسنة ١٧٩٩ أن الشعب هو بطل تلك الثورة وأنه لم يسير الحوادث شخص واحد ، سواء كان ذلك الشخص لويس السادس عشر أم كان ميرابو أم دانتون أم روبسبير »

وقد غالى مسيو كوشان في قوله : « ان من الخوارق أن حكمت هذه الجماعة (الشعب) وأمرت وقالت وسارت مدة خمس سنين باتقان تام غير مستعينة برئيس أو قانون ، فقد كانت هذه الجماعة تعمل بغريزتها وهي مؤلفة من ٢٥ مليون نفس على مساحة ٣٠٠.٠٠٠ فرسخ مربع كأنها رجل واحد . »

نعم لو كان سير الشعب غريزياً كما زعم هذا المؤلف لعد من الخوارق ، وقد فطن مسيو اولار الى استحالة ذلك فكان حينما يبحث عن الشعب يقول إنه مؤلف من أحزاب لها رؤساء ، قال هذا المؤلف : « من وطد الوحدة القومية ؟ ومن أُنقذ الأمة التي هاجمها الملك ومزقتها الحرب الأهلية ؟ أدانتون أم روبسبير أم كارنو ؟ كلا ، نعم قد خدم هؤلاء الأمة ، ولكن الذى أيد الوحدة والاستقلال هو تجمع الأمة الفرنسية على شكل بلديات وجمعيات شعبية ، وإذا كان فى كل حزب بضعة زعماء فإن هؤلاء الزعماء كانوا يستمدون قوتهم من أحزابهم وينفذون أحكامها كما يظهر ذلك من مطالعة محاضر الجمعيات الشعبية »

٤ - طبقات الأمة

يقال فى الرد على بعض الأفكار أن الأمة ذات كيان لاهوتى حائز جميع ما يمجده

رجال السياسة ويسهبون في ذكر ما له من القوى والفضائل ، وسبدي رأينا في ذلك عند بحثنا الآن عن شأن الأمة في الثورة الفرنسية .

إن الأمة عند المتقدمين والمتأخرين من العاقبة ، كالألهة ، ذات شخصية سامية لا تسأل عما تفعل ولا تخطئ أبداً ، فلكل مسؤول عن إطاعتها وإن جاز لها أن تقتل وتنهب وتحرق وتأتى أقصى المظالم وتطرح غداً في الدرك الأسفل من رفته اليوم الى مصاف الأبطال ، ولا يعدل رجال السياسة عن السجود أمام أحكامها مسبحين بحمد فضائلها وحكمتها العالية .

فما هي حقيقة الأمة أى المعبود الذى يقده الثوريون منذ قرن ؟

يمكن تقسيمها الى قسمين : فالقسم الأول يشتمل على الفلاحين والتجار وأرباب الحرفة أى على من يحتاجون الى السكينة والنظام ليقوموا بمهمهم ، ويغفل المؤرخون أمر هذا الفريق الذى هو أكثرية الأمة والذى لا يقوم بالثورات أبداً ويعيش عيش عناء وسكوت .

وأما القسم الآخر الذى له شأن مهم فى الفتن القومية كلها فهو ثمالة اجتماعية هادمة ذات نفسية أئيمة أى هو أناس يتألف من مجموعهم جيوش متمردة حوّلها البؤس وإدمان المسكرات الى لصوص وصعاليك .

فالخوف من العقاب يردع الكثيرين من هؤلاء الأخطا المشائيم عن اقتراف الجرائم فى الأوقات العادية ، ولكنهم لا يتأخرون عن ارتكابها عندما تستطيع غرائزهم المنحطة أن تسير حرة ، فهم الذين كانوا يستولون ، بتأثير زعمائهم ، على مجالسنا الثورية الكبرى ويقتفون أنواع القتل والنهب والحرق غير مكترئين للنظريات والمبادئ أبداً . وينضم بتأثير العدوى الى هذه الطبقة المنحطة جماعة من العاطلين الذين يصرخون مع كل ناعق ويتمردون مع كل متمرد دون أن يفقهوا شيئاً من المسئلة التى يصرخ من أجلها ويتمرد .

ولا يعرف الخطباء غير هذه الجماعات المشاغبة الضارة التى هى آلة كل عصيان منذ القديم والمؤلفة من الرعاع الذين قال تيار عنهم « إنهم لم يتغير منهم شئ منذ الأزمنة التى رآهم فيها تاسيت يصفقون لجرائم القياصرة ، وانهم يتأهبون لتنديس المجتمعات باقترافهم أنواع الجرائم بحيين نداء كل سلطة لوصم كل مبداً » .

لم يمتد شأن الرعاع في دور امتداده أيام الثورة الفرنسية فنذ تفلتوا من قيدهم سنة ١٧٨٩ ، أى قبل دور العهد بقليل ، أخذوا في ذبح الناس ، وقد شرعوا المسجونين وهم أحياء ومثلوا بهم لتمتد آلامهم ويتسلى الحضور باضطرابهم ونواحيهم .

هكذا يسير الرعاع عندما تقضى الأيدي الغافلة على الزواجر الرادعة لغرائهم المتوحشة المنتقلة اليهم بالوراثة ، فلو تكاثف هؤلاء الرعاع طريقة عين لظهر هذا الجسم غولاً طاغياً قليل العقل سفاكاً للدماء .

على أنه يسهل التغلب على هؤلاء الرعاع عندما يقف في وجههم جبار عنيد ، فقد أعلنوا كل استبداد وأيقن القياصرة أنهم يصفقون لهم سواء أ كاليغولا كان اسمهم أم نيرون أم روبسبير أم بولانيجه .

وبجانب هذه الزمر المخربة ذات الشأن الكبير في الثورات نذكر فريق الأمة الذى لا يصبو الا الى الجد والعمل كما بينا ذلك سابقاً ، فهذا الفريق وان كان يستفيد أحياناً من الثورات لا يفكر فى القيام بها ، ولا يعلم رجال الثورة من أمره الا قليلا .

نعم ، قد يجعله الخوف مطيعاً فيقوده الرعاع بنفوذهم الى اقتراف المظالم ، ولكن مقومات الأمة الوراثة لم تلبث أن يثقل ميزانها فيضجر ذلك الفريق من الثورات فتدفعه روح الأمة الثابتة الى الوقوف أمام الفوضى عندما تستفحل باحثاً عن رئيس قادر على إعادة النظام .

وليس لهذا الفريق الهادى مبادئ سياسية سامية أو غامضة ألبتة . فغايتة أن يسود الحكم المطلق ، ولذا قام هذا الحكم بعد الفوضى على الدوام ، فقد عقب الحكم المطلق الثورة الأولى عندما هتف لنابليون ، وقد عقب الثورة الثانية عندما رفع الانتخاب العام لويس نابليون الى رئاسة الجمهورية وأقره على استبداده بالحكم ثم جعله امبراطوراً ثم استصوب نظامه سنة ١٨٧٠ أى قبيل الحرب الفرنسية البروسية .

وجب أن لا تغيب الحوادث التى أشرنا اليها فى هذا الفصل عن بالنا اذا أردنا الاطلاع على شأن الامة فى الثورات فلاما شأن كبير فيها ولكنه يختلف عما جاء فى الأفاصيص .

الباب الثاني

النفسية التي تسود الثورات

الفصل الأول

تقلبات الخلق أيام الثورات

١ - تحول الشخصية

٢ - عناصر الخلق السائد للثورات

٣ - الحقد

٤ - الخوف

٥ - الحرص والحسد والزهو

٦ - الحماسة

١ - تحول الشخصية

فصلت في مؤلف آخر نظرية الأخلاق التي يستحيل بدونها إدراك تحول الانسان أيام الثورات ، واليك عناصرها الأساسية :

لكل امرئ ما عدا نفسيته الثابتة ، شؤون خلقية متقلبة تظهرها الحوادث .

وتألف شخصية الانسان الخاصة من اجتماع شخصيات ورائية كثيرة تبقى متوازنة ما دامت البيئة ثابتة لا تتقلب ، فتمت تقلبت هذه البيئة كثيراً ، وذلك كما يقع أيام الفتن ، اختل هذا التوازن وتألف من تكتل العناصر المنحلة شخصية جديدة ذات أفكار وعواطف ومناهج تختلف جداً عن الشخصية العادية ، ومن ذلك أن كثيراً من رجال

الصالح والقضاء الذين كانوا موصوفين بالحلم اقبلوا أيام الهول الى أناس متعصين سفاكين للدماء .

حقاً قد يصير المرء بتأثير البيئة الجديدة أمراً آخر ، وإن لاح لنا أحياناً أن القائمين بالآزمات الدينية والسياسية العظيمة من جوهر يختلف عن جوهرنا فهم بالحقيقة مثلنا ، ومن تكرار الحوادث نفسها يظهر الأشخاص أنفسهم .

وكيف تتألف شخصية جديدة عندما تنحل الشخصية العادية بفعل بعض الحوادث ؟ إنها تتألف بوسائل كثيرة أهمها حيازة معتقد قوى .

فالمعتقد تألفت الشخصيات التي شوهدت في الآزمات العظيمة كالحروب الصليبية ، والأصلاح الديني والثورة الفرنسية ، وإتنا لعدم تحول البيئة في الأوقات العادية لانشاهد سوى شخصيات متاثلة في الناس .

وقد تصبح هذه الشخصيات متناقضة متشاكسة ، ولكن ذلك يحدث قليلا في الآزمة العادية ، ويكون بارزاً أيام الاضطرابات .

وليس الذكاء هو الذي يتغير عند تحول الشخصيات بل المشاعر التي يتألف الخلق منها.

٢ — عناصر الخلق السائد للثورات

نشاهد في أيام الثورات أن المشاعر المزدجرة عادة تسير حرة عند رفع الزواجر الاجتماعية ، ولا ترفع هذه الزواجر المستندة الى القوانين والتهديب والتقاليد رفعاً كلياً ، بل يبقى بعضها على رغم الانقلابات ، وينفع هذا البعض في وقف ثوران المشاعر الخطرة. وروح العنصر أقوى هذه الزواجر ، فهي تحدد تقلبات الأمة وتسيرها على رغم ظواهر الأمور ، فلو نظرنا الى ما قصه التاريخ لظهر لنا مثلاً أن النفسية الفرنسية تبدلت كثيراً في قرن واحد أى انتقلت في سنوات قليلة من نظام الثورة الى النظام الامبراطورى فالى النظام الملكى فالى نظام الثورة فالى النظام الامبراطورى ، والواقع أن ظواهر الأمور وحدها هي التي تغيرت .

ولا نوضح حدود قلب الأمة بأكثر مما فعلنا ، وسنبحث الآن في العناصر العاطفية التي يساعد انتشارها أيام الثورات على تغيير شخصيات الأفراد والجماعات ، وسأذكر من هذه العناصر الحقد والخوف والحرص والحسد والزهو والحماة ، فقد لوحظ تأثير هذه العناصر في انقلابات التاريخ كلها ولا سيما في الثورة الفرنسية الكبرى .

حقد رجال الثورة الفرنسية على الناس والنظم وكل شىء هو أحد مظاهرهم العاطفية التي تبدو عند البحث في نفسياتهم ، فلم يكتف هؤلاء الرجال بمقت أعدائهم بل مقتوا أيضاً أعضاء حزبهم الخاص ، قال أحد الكتاب حديثاً : « إذا نظرنا الى ما كانوا يصفون به بعضهم بعضاً لم نر فيهم سوى الخونة والكاذبين وبائعى الضيائر والقتلة والظالمين » ، وما كان مجهولاً ذلك الحقد الذى غلى في صدور الجيرونديين والدانتونيين والايبريين والروبسبيريين أيام كانوا يتطاردون ، فلم يهدأ هذا الحقد إلا بقتل كل امرئ من يخالفه .

وسبب ذلك هو أن هؤلاء الهائجين لما اعتقدوا أنهم على الحق صاروا كماؤمنين في كل زمن لا يطيقون مسامحة من لم يكن على مذهبهم ، فصاحب الايمان الدينى أو العاطفى يميل على الدوام الى حمل الناس على إيمانه وهو لا يتأخر عن القتل في سبيله اذا استطاع ذلك ولو كان العقل مصدر الأحقاد التي فرقت بين رجال الثورة الفرنسية لم تدم هذه الأحقاد طويلاً ، ولكن صدورها عن خلق التدين والعاطفة جعل أصحابها عاجزين عن الصفع ، وبما أن مصدرها واحد عند الأحزاب كلها ظهرت بشدة واحدة عند الجميع ، ولقد أثبتت الوثائق الصحيحة أن الجيرونديين لم يكونوا أقل من حزب الموتانيار سفكاً للدماء ، فكانوا أول من صرح مع ييسيون بأنه يجب على الأحزاب المغلوبة أن تنيد ، وقد بين مسيو اولار أنهم حاولوا تسويغ مذابح سبتمبر ، وعليه وجب أن لا تعد طريقة الهول من طرق الدفاع بل من طرق الابداء التي يتخذها المؤمنون الغالبون نحو أعدائهم المقهورين ، فالإنسان وان تحمل ما يباين أفكاره لا يطبق معتقداً مخالفاً لمعتقده أبداً .

لا سلام للمغلوب في المنازعات السياسية والدينية ، هذه سنة لم تبدل منذ قطع سيللا رقاب مثنى عضو من أعضاء مجلس الشيوخ ورقاب زهاء ستة آلاف روماني حتى رجال الكومون الغالبين الذين قتلوا بالرصاص أكثر من عشرين ألف مغلوب ، ولا ريب في أن هذه السنة ستجرى حكمها في المستقبل كما فعلت في الماضي .

ولم يكن اختلاف المعتقدات وحده سبب الأحقاد التي ظهرت أيام الثورة الفرنسية ، بل صدرت تلك الأحقاد أيضاً عن المشاعر الأخرى كالحسد والحرص والعجب ، وبما أوجبه هذه المشاعر مغالاة رجال الأحزاب المختلفة في الحقد ، فما كان يقع بين الأشخاص من المزاومة للقبض على زمام الأمور كان يسوق رؤساء الأحزاب الى المقصلة واحداً بعد الآخر .

ونرى أن من عناصر الروح اللاتينية الميل الى الانقسام وما ينشأ عنه من الأحقاد فيه أضعاف أجدادنا الغولويون استقلالهم ، وقد انتبه الى ذلك يوليوس قيصر فقال : « ليس في بلاد الغول مدينة غير منقسمة الى حزبين كما أنه ليس فيها كورة أو قرية أو دار خالية من روح الحزب ، وقلبا تمضى سنة من غير أن تهاجم مدينة جاراتها بالسلاح . »

وبما أن الإنسان لم يدخل في دور المعرفة الا منذ زمن قليل وكان مسيراً بالمشاعر والمعتقدات تجلي لنا شأن الحقد في التاريخ . ولقد أشار أحد أساتذة المدرسة الحرية القائد كولان الى أهمية عاطفة الحقد في بعض الحروب حيث قال : « لا داعي الى الشجاعة في الحرب اكثر مما الى الحقد ، فهو الذي نصر بلوخر على نابليون ، واذا بحثنا عن احسن الحركات العسكرية واحزمها رأيناها قد صدرت عن البغض والنفور اكثر مما عن العدد ، وماذا كانت نتيجة حرب سنة ١٨٧٠ لولا الحقد الذي كان يحمله الألمان في صدورهم ضدنا ؟ »

ويمكن هذا المؤلف أن يقول أيضاً إن حقد اليابان الشديد على الروس الذين كانوا يزدرونهم هو احد الأسباب التي نصرت اولئك على هؤلاء ، وأما الروس فلما كانوا لا يعلمون غير شيء يسير عن اليابان لم يحملوا شيئاً من الضغينة نحوهم فزاد ذلك ضعفهم نعم لاكت الأفواه كلمة الاخاء أيام الثورة الفرنسية ، ولا يزال الناس يرددونها ، وصارت كلمة السلم والانسانية والتضامن قواعد للحزب ، ولكن شدة الأحقاد المستترة تحت هذه الكلمات والأخطار المحدقة بالمجتمع الحاضر ليست بالشئ الخفى .

٤ - الخوف

للخوف في أيام الثورات شأن عظيم يقرب من شأن الحقد ، فرجال العهد الذين كانوا كثيرى الشجاعة أمام المقصلة كانوا شديدي الجبن أمام وعيد مثيرى الفتن الذين كانوا متسلطين على مجلس النواب . وسرى ذلك عندما نلخص تاريخ مجالسنا الثورية .

حقاً شوهد الخوف بمظاهره كلها في ذلك الزمن ، وكان الظهور بمظهر العاقل المعتدل أخوف ما يخافه الناس ، فقد سبق أعضاء المجالس وموظفو الاتهام وقضاة المحاكم خصومهم في التطرف أى في افتراء الجرائم ولو أن معيزة أزال الخوف من المجالس الثورية لكان لها سير آخر وكان للثورة الفرنسية وجهة أخرى

تتبع هذه العناصر العاطفية في الأوقات العادية مقتضيات الاجتماع فيكون الحرس محدوداً بحكم الضرورة في مجتمع قائم على نظام المراتب . فإذا صار فيه جندي قائداً فذلك لا يقع الا بعد انقضاء زمن طويل ، وأما في أيام الثورات ، فلما جاز لكل امرئ أن يصعد الى أعلى المراتب فإن خلق الحرس يهيج عند الناس فيظن أحقرهم أنه أهل لها فيبلغ الزهو فيه غايته

وللحسد شأن عظيم في الأدوار الثورية ، فكان حسد الناس للأشراف سبباً من أسباب الثورة الفرنسية ، ولما زادت الطبقة الوسطى فيها مالا وسطوة وكثراختلاطها بالأشراف شعرت على رغم ذلك ببعدها منهم فأحست في نفسها ألماً شديداً ، وهذه الحالة الروحية جعلتها تميل غير شاعرة الى المذاهب الفلسفية القائلة بالمساواة .

اذن كانت عزة النفس المجروحة والحسد سببين لما لم ندرك مغزاه اليوم من الأحقاد . فكان كثير من رجال العهد مثل كاريه ومارا وغيرهما يتذكرون ، والغضب آخذ منهم مأخذه ، أنهم تقلدوا وظائف ثانوية لدى الأمراء الاقطاعيين ، وما استطاعت مدام رولان أن تنسى أنها عندما دُعيت في الدور السابق مع والدتها للعشاء عند سيدة كبيرة تناولناه مع خدم المائدة .

قال الفيلسوف ريفارول : « لم تكن الضرائب وأوامر الملك وتصرف السلطة السيئ وجور الولاة وتقاعس القضاة أموراً أثارت وحدها ساكن الأمة بل ان الأمة أظهرت من الحقد على طبقة الأشراف ما لم تظهره على شيء آخر . »

قال نابليون : « ان الزهو كان سبباً للثورة الفرنسية ، ولم يكن السعي الى الحرية سوى حجة باطلة . »

٦ - الحماسة

حماسة مؤسسى الثورة الفرنسية تعدل حماسة ناشري دين محمد (صلعم) ، فقد كانت تلك الثورة ديانة اعتقد رجال الطبقة الوسطى في المجلس الاشتراعى الأول أنهم أسسوها وقضوا بها على المجتمع القديم وأقاموا بها على أنقاضه حضارة أخرى . وما وجد خيال فنان شغل قلب الانسان أكثر من ذلك الخيال ، فكان أولئك الرجال يقولون ان مبدأ

الاخاء ومبدأ المساواة اللذين أعلنوهما يمنحان الأمم سعادة أبدية وانه لما قطعت العلائق بالماضى المظلم المتوحش أصبح المجتمع الجديد سائراً على نور العقل المطلق .

وإذا قام العنف حالا مقام هذه الحماسة فذلك لأن اتباع الناس كان سريعاً ، ويسهل علينا ادراك السرفى أن رسل الثورة الفرنسية وقفوا أشداء غاضبين فى وجه العوائق اليومية المانعة من تحقيق أحلامهم ، فهم لما أرادوا نبذ الماضى ونسيان التقاليد وتجديد البشر وكان الماضى يظهر من غير انقطاع والبشر يأبى أن يتغير اضطروا الى التوقف عن سيرهم غير مريدين الخضوع ، فأخذوا يرغمون الناس على الانقياد لأوامرهم بضغط أعداؤا به فى النهاية النظام السابق المقضى عليه والذى لم يلبث أن أسف الناس عليه .

ومما يستحق الذكر أن حماسة الأيام الأولى التى لم تدم كثيراً فى المجالس الثورية بقيت فى الجيوش فكانت سر قوتها ، فجيوش الثورة الفرنسية التى كانت تميل الى الجمهورية قبل أن تصبح فرنسا جمهورية استمرت على نزعتها زمناً طويلاً بعد أن صارت فرنسا غير جمهورية .

تتبع تقلبات الخلق التى بحثنا فيها آنفاً بعض الآمانى وتحولات البيئـة ، وهى ترد الى أربع نفسيات : النفسية اليعقوبية ، والنفسية الدينية ، والنفسية الثورية ، والنفسية المجرمة .

الفصل الثاني

النفسية الدينية والنفسية اليعقوبية

١ — تقسيم النفسيات التي تسود الثورة .

٢ — النفسية الدينية .

٣ — النفسية اليعقوبية .

١ — تقسيم النفسيات التي تسود الثورة .

تؤدي التقسيمات ، التي يستحيل البحث العلمي بغيرها ، الى قطع ما هو متصل ، ولا مفر من ذلك ، فالتصل لا يدرك إلا بعد تحويله إلى أجزاء .

ولم يكن التفريق بين مختلف النفسيات التي تسود الثورة سوى فصل عناصر متداخلة ويقتضى ترك قليل من الضبط والصحة لنيل ما يقابل ذلك من الوضوح ، فالعناصر الأساسية التي أشرنا إليها في آخر الفصل السابق لا يمكن تفصيلها عند البحث فيها مشتبكة الأجزاء .

بينما أن الانسان تسيره أنواع المنطق الكثيرة المتقاربة التي لا يؤثر بعضها في بعض في الأوقات العادية ، وتتنازع هذه الأنواع بتأثير الحوادث ، فيبدو الفرق بينها للعيان فيؤدي ذلك الى اضطرابات فردية وانقلابات اجتماعية عظيمة .

٢ — النفسية الدينية

توصف روح الدين بسانادها قدرة عظيمة الى قوى علوية تتمثل على شكل أصنام وأنصاب والفاظ وصيغ ، والروح المذكورة هي أساس المعتقدات الدينية كلها وكثير من المعتقدات السياسية .

والمنطق الديني مشبع بالمشاعر وسائر العواطف ، والفتن الشعبية الكبيرة تنال قوتها

منه ، وإذا كان الناس لا يبذلون من حياتهم في سبيل المعقولات الا شيئاً قليلاً فانهم يبذلونها كلها طوعاً في سبيل خيال ديني يعبدونه

لم تلبث مبادئ الثورة الفرنسية أن ألقت في قلوب الناس حمية دينية كالتى ألقتها المعتقدات الدينية السابقة ، ولم تفعل بذلك غير تحويلها وجهة النفس الموروثة المتكاثفة مع الزمن .

إذن لا نعجب من حمية رجال العهد الشديدة ، وهم يشبهون بنفسيتهم الدينية البروتستان في دور الإصلاح الديني ، وقد كان أبطال دور الهول كروبسبير وكوتون وسان جوست وغيرهم رسلاً يشبهون بوليوكت الذى ظن أنه يهدمه تمائيل الآلهة الباطلة في سبيل إيمانه يجعل العالم نصرانياً ، فلما اعتقدوا أن صيغهم السحرية تكفى لكك العروش لم يترددوا في شهر الحرب على الملوك ، وقد غلبوا أوربة بفضل إيمانهم القوى الذى يغلب الإيمان الضعيف .

وكان تدين زعماء الثورة الفرنسية يظهر في أدق أعمالهم ، فقد قال روبسبير في إحدى خطبه ، وهو يعتقد أنه يخوف بعون الله . « إن الله تعالى أمر بالحكم الجمهورى منذ البداية » ، وجعل ، وهو الحبر الاعظم لدين الحكومة ، مجلس العهد يضع مرسوماً جاء فيه : « أن الأمة الفرنسية تؤمن بالله تعالى وبخلود النفس » . والقى ، وهو جالس على العرش ، يوم عيد الرب موعظة طويلة .

واعتقد مكسيميليان « وجود إله قادر عظيم يحافظ على البرىء المظلوم ويعاقب المجرم الظافر » ، وكان الخوارج الذين كانوا يطعنون في المذهب اليعقوبى يرساؤن الى المحكمة الثورية التى كان لا يخرج منها المتهم إلا الى المقصلة .

ولم تمت النفسية الدينية بموت روبسبير الذى هو عنوانها . فبين رجال السياسة نرى أناساً ذوى نفسية تشبه نفسيته . فبؤلاء وان لم يكن للمعتقدات الدينية القديمة سلطان عليهم ، يخضعون لتعاليم سياسية لا يتأخرون ساعة عند المقدرة عن حمل الناس عليها . فطريقة الارشاد في كل جيل عند المتدينين الذين يضحون بأنفسهم في سبيل نشر معتقدهم واحدة حينما يصيرون سادة .

اذن من الطبعى أن يكثر عدد المعجبين بروبسبير والناشجين على منواله وهو وان

قطع رأسه بالمقصلة لم تقطع مداركه ، ولا تزول المدارك التي نشأت مع الانسان الا بزوال آخر المعتقدين .

لم ينتبه أكثر المؤرخين الى وجه الثورات الديني ، وسوف يستمرون على عزوهم كثيراً من الحوادث الى المنطق العقلي البعيدة منه . وقد ذكرت في فصل سابق عبارة لمسيو لافيس ولمسيو رامبو قالوا فيها ان ثورة الاصلاح الديني و نتيجة تأملات فردية أورثها قلوب البسطاء عقل مقدام ،

فلا يمكن ادراك هذه الثورات اذا ظن أن مصدرها العقل . فللمعتقدات التي أقامت العالم وأقعدته ، سواء أدينية كانت أم سياسية ، مصدر واحد ، وكلها سارت على سنة واحدة أى انها لم تتم بالعقل ، وكثيراً ما تمت خلافاً لكل عقل . نعم يظهر ان البوذية والنصرانية والاسلام والاصلاح الديني والسحر واليعقوبية والاشتراكية والمذهب الروحاني معتقدات متباينة ، ولكنني أقول مؤكداً ان لها دعائم عاطفية ودينية واحدة ، وتتبع منطقاً لا علاقة بينه وبين المنطق العقلي ، وقوتها ناشئة عما للعقل من التأثير الضئيل في تكوينها وتحويلها .

ولقد فصلت نفسية رسلنا السياسيين الدينية في الوقت الحاضر في مقالة نشرت في إحدى الجرائد الكبيرة . جاء في هذه المقالة التي تسمى أحد وزرائنا السابقين : « يسألون عن الفرقة التي ينتسب اليها مسيو فلان ، هل هو من فرقة الملحددين ؟ فيا للسخرية !... نسمع ، مع عدم اختياره أى ايمان وضعى ولعنه رومة وجنيف أنه يجحد العقائد التقليدية ويكفر بالكنائس المعروفة ، فهو ان جعل الصفيحة هكذا ملساء فذلك ليقم عليها كنيسة الخاصة التي هي ذات بدع أكثر من كل كنيسة ، ولن تقل محكمته التفيتشية في شدة تعصبها وعدم تسامحها عن أشهر محاكم توركايدة .

« صرح بأنه لا يرضى عن حرية التعليم وبأنه يطلب أن يكون التعليم زمنياً من كل وجه . وان لم يقل بالاحراق فذلك لاضطراره الى مداراة نشوء العادات والطباع . ولعجزه عن قتل الناس يستعين بالقوة الزمنية للحكم على المذاهب كلها بالموت . وقد بلغت حرية الفكر فيه مبلغاً جعله يقول ان كل فلسفة لا يرضى عنها مجرمة أئيمة موجبة للهمز والسخرية . وهو يزعم أنه اطلع على الحقيقة المطلقة وأوجب اعتقاده هذا أن يعتبر كل من يخالفه غولاً شنيعاً وعدواً فظيماً . فمسيو فلان ، كما يظهر ، من

أشباع آلهة العقل التي تشبه الآلهة مولوخ الظالم في تعطشها إلى القرابين البشرية .
« ألا إن الأمانى خلافة ، وكم من أصنام حطمت منذ بضعة قرون تمهيداً للسجود أمام صنم حديث . »

ولما كان سلطان العقل على المعتقدات الدينية قليلاً أصبح من اللغو أن نجادل ، كما يفعل البعض ، فيما للبداىء الثورية والسياسية من القيمة العقلية ، وتأثيرها وحده هو الذى يهمنا ، سواء علينا أ كذبت التجربة نظرية المساواة ونظرية الصلاح الفطرى ونظرية تجديد المجتمع بالقوانين أم لم تكذبها .

٣ — النفسية اليقويية

اصطلحت على تعبير « النفسية اليقويية » ، مع أنه لم يسبقنى احد إليه فى أى تقسيم ، لدلالته على نوع نفسى خاص .

فقد سادت هذه النفسية رجال الثورة الفرنسية ، ولا تزال مؤثرة فى سياستنا الحاضرة . زعم اليعاقبة أنهم عاطلون من خلق الدين وأن العقل يسيرهم ، وقد كانوا يستشهدون بالعقل أيام الثورة الفرنسية ويتخذونه هادياً مرشداً .

وقد رأى أكثر المؤرخين أن الروح اليقويية تنزع إلى المعقول ، وذهب تايين إلى هذا رأى الفاسد فعزا كثيراً من أعمال اليعاقبة إلى مغالاتهم فى المعقولات ، غير أنه جاء فى بحثه عنهم بعض الحقائق التى تستحق النظر ، فإليك بعضها :

« لم تكن عزة النفس والعقل النظرى بالشئ النادر عند البشر ، ففى أى بلد نراها ، وهما مصدر الروح اليقويية ، لا يفنيان ، ومتى يبلغ عمر المرء عشرين سنة فيدخل فى معترك الحياة يستحوذ الغم على عقله وزهوه فيعتبر المجتمع الذى نبت فيه حاجزاً يحول دون تقدم عقله النظرى . والمجتمع قد أوجدته الأجيال المتعاقبة حسب احتياجاتها الكثيرة المتحولة أى انه لم يكن من صنع المنطق بل من صنع التاريخ كما هو معلوم . ثم يهز ذلك المبتدى كفتيه هازئاً بهذا البناء الاجتماعى الهرم الذى لم يقم على نظام والذى يبدو عليه الرق والترقيق . »

« انظروا إلى أحسن ما أنتجته قرائح أولئك الرجال ، أى إلى خطب روبسبير وسان جوست وإلى مناقشات المجلس الاشتراعى الأول ومجلس العهد وإلى أقوال الجيرونديين

والموتانبار والى مناشيرهم وتقاريرهم تروا أنهم أتوا فيها بالكثير الكلام للتعبير عما يتطلب أقله وأن تعقلهم كان يغرق في بحر طام من الالفاظ المفخمة، فاليعقوبى يسير وراء ما يدور في دماغه المتعقل من الأوهام والخيالات التى هى عنده أكثر من غيرها ولا يعبا إلا بما توحيه اليه فيصرخ بين الناس كما يهتف في موكب النصر ..

وانى وان كنت أعجب لبيان تان لا أعتقد أنه فهم نفسية اليعقوبى تماماً .
فروح اليعقوبى الحقيقى ، سواء أفى أيام الثورة الفرنسية أم فى أيامنا ، تتألف من عناصر يجب تحليلها لادراك شأنها .

يدلنا هذا التحليل على أن اليعقوبى معتقد غير متعقل وأنه لا يؤسس معتقده على العقل بل يسكب العقل فى قالب معتقده وأن خطبه وان كانت مشبعة من العقلات لا يسير عليها الا قليلا ، ولو كان اليعقوبى يتعقل بنسبة ما يلام عليه من التعقل لأجاب نداء العقل فى بعض الأحيان ، وقد دلنا المشاهدة منذ عهد الثورة الفرنسية على أن العقل مهما يكن سديداً لم يؤثر فيه قط ، وهذا هو سر منعته ، والسبب فى عدم تأثير العقل فيه هو أن ما فيه من قصر النظر لا يسمح له بمقاومة اندفاعاته العاطفية المسيرة له .

ولا تتألف النفسية اليعقوبية من هذين العنصرين أى العقل الضعيف والعواطف القوية وحدهما ، بل تتألف من عنصر آخر أيضاً ، فاليعقوبى الحقيقى ذو معتقد راسخ ، والعاطفة تدعم المعتقد ولا تنشئه ، فما هو ركن هذا المعتقد ؟ هنا يبدو لنا عنصر الدين الذى بحثنا فيه سابقاً ، فاليعقوبى متدين أقام مقام آلهته القديمة آلهة جديدة ، أى انه لما كان للالفاظ والصيغ سلطان قوى على نفسه فانه يعزو اليها قوة إلهية ولا يتأخر فى سبيل خدمة هذه الآلهة الكثيرة الطلب عن اقتراح أفسى الأعمال ، والدليل على ذلك ما سنه اليعاقبة فى الوقت الحاضر من القوانين .

وتظهر النفسية اليعقوبية عند ذوى الخلق الضيق الجنس على الخصوص ، وتتضمن تلك النفسية فكراً أقصر أعينداً لا يؤثر فيه النقد ، وما تغلب على الروح اليعقوبية من الدين والعاطفة يجعل اليعقوبى كثير السذاجة . وهو لعدم إدراكه من الأمور غير علاقاتها الظاهرة يظن أن ما يساوره من الصور الوهمية حقائق ويفوته ارتباط الحوادث فلا يتحول عن خياله أبداً .

إذن لا يقترف اليعقوبى الآثام لرقى منطقته العقلية ، وإنما لضعف عقله يسير معتقداً

مندفعاً ، الى حيث يتردد الرجل ذو المدارك السامية فيقف ، وهو ، كسائر المعتقدين ، عاجز عن الخروج من دائرة المعتقد .

ويشبه اليعقوبي بصفته اللاهوتية المكافئة المناجزة أنصار كالفن الذين قلنا في فصل سابق إنهم لم يثبته شيء عن إيمانهم الذي نؤمنهم وإنهم رأوا كل من يخالفهم في معتقدهم جديراً بالموت ، فقد كان أولئك الأنصار المتعقلون كاليعاقبة جاهلين ما يسيرهم من القوى الخفية ظانين أن العقل رائدهم مع أن الذي قادم هو خلق الدين وعنصر الحماسة .

يتعذر علينا اكتناه اليعقوبي بقولنا انه متعقل ولا ينفعنا ذلك إلا في القنوط من العقل ، وأما إذا قلنا إنه حمس متدين تيسرت لنا معرفة أمره .

وهذه الأمور الثلاثة ، أي العقل الضعيف والحماسة الشديدة والدين القوى ، هي عناصر الروح اليعقوبية

الفصل الثالث

النفسية الثورية والنفسية المجرمة

١ - النفسية الثورية

٢ - النفسية المجرمة

١ - النفسية الثورية

قلنا إن عنصر الدين هو من عناصر الروح العنقوية ، وهذا العنصر من مقومات نفسية أخرى أى النفسية الثورية .

تشتمل المجتمعات فى كل زمن على عدد من النفوس المضطربة المتقلبة الساخطة المتأهبة للتمرد الراغبة فى الفتنة للفتنة نفسها ، ولو أن قوة سحرية حققت آمالها بلا قيد ولا شرط ما عدلت عن التمرد .

وتنشأ هذه النفسية فى الغالب عن عدم الامتزاج بالبيئة أو عن الغلو فى الدين أو المرض . وللتمرد درجات مختلفة تبدأ من الاستياء الطفيف الذى ينحصر فى كلام المرء عن الناس والأشياء وتنتهى الى التخريب ، وقد يصوب المرء صولته الثورية أحياناً نحو نفسه عند عجزه عن التصرف بها على طريقة أخرى ، فلقد كثرت فى روسية عدد المجانين الذين لم يكتفوا بالحرق والقاء القنابل فتحولوا الى البخع والاتجار

ويسهل إغواء هؤلاء العصاة الذين أضلت بعض الوسوس نفوسهم الدينية ، فهم على رغم العزيمة الظاهرة التى تدل عليها أعمالهم ضعفاء عاجزون عن مقاومة أقل المحرضات ، والقوانين والبيئة تردعهم فى الأوقات العادية فيظلون غير مؤثرين . ولكن متى بدت أدوار الفتن تضعف هذه الزواجر فيطلقون عنان غرائزهم غير مبالين بالغاية التى نشبت الثورة من أجلها .

وقد تكون الروح الثورية غير خطيرة ، فهى إذا صدرت عن العقل بدلا من العاطفة أو الدين أصبحت عامل تقدم وارتقاء . فعندما يصير حكم التقاليد والعادة ثقيلا على الحضارة تتخلص منه بفضل أناس من ذوى العقول المستقلة الثورية كغليله ولافوازيه وداروين وباستور الذين أعانوا على تقدم العلوم والفنون والصناعة فى العالم .

ويجب أن يكون في كل أمة عدد من هؤلاء الأعظم الذين لولاهم لظل الانسان عائشاً في الكهوف . وتتطلب الجرأة الثورية التي تظهر ما عند صاحبها من الاكتشافات استقلالاً ذهنياً يتخلص به من الافكار الجارية بين الناس وحصافة يدرك بها ما تحت المتشابهات السطحية من الحقائق .

٢ - النفسية المجرمة

قدر على المجتمعات المتقدمة كلها أن تشتمل على جماعة من المنحطين وشذاذ الآفاق والمذنبين والأشرار واللصوص والقتلة الذين يتألف منهم فريق المدن الكبيرة المجرم ، والوازعون لهم أيام السلم انما هم الشرطيون أي رجال البوليس ، ولكن لا رادع لهم أيام الثورات ، فيسهل عليهم فيها أن يقتلوا ويسلبوا ، ومنهم يجمع رجال الثورة جنودهم ، وهم ، لعدم طمعهم في غير القتل والنهب ، لا يبالون بالغاية التي يدافعون عنها ولا يتأخرون ساعة عن الانضمام الى الحزب المتفهم حينما يكون حظهم من القتل والسلب عنده اكثر . ويضاف الى هؤلاء المجرمين الذين هم داء المجتمعات العضال الفريق الذي يأتي المنكر وقتاً يستحوذ عليه الخوف من النظام السائد والذي لا يلبث أن ينضم الى زمر العصاة حينما يعترى هذا النظام وهن . ويتألف من هذين الفريقين جحفل مخل بالنظام ، وعليه يعتمد الثوريون والقائمون بالفتن الدينية والسياسية .

قلنا في فصل آخر إن هذه الفئة المجرمة كانت عظيمة النفوذ أيام الثورة الفرنسية . وقد قص علينا بعض المؤرخين ، وهم خاشعون ، خبر الاوامر التي كانت تحملها الى مجلس العهد وهي مسلحة بحراب على رؤوسها هامات مقطوعة . ولو بحثنا عن العناصر التي كانت تتألف منها هذه الفئة التي ادعت أنها وكيلة الشعب لرأينا أن أكثريتها من اللصوص والأشرار وأن أقليتها من ذوى النفوس الساذجة الذين يسبون حسباً يحرضهم الزعماء . والى اولئك اللصوص والأشرار تعزى المذابح الكثيرة كذاب شهر سبتمبر وقتل الأميرة لامبال .

حقاً إنها أرهبت جميع المجالس التي قامت منذ المجلس التأسيسي حتى مجلس العهد وعاشت في فرنسا مدة عشر سنين . ولو أن معجزة قضت عليها لكان سير الثورة الفرنسيه غير ما وقع ، فلقد ضربتها بالدماء منذ فجرها حتى غروبها وليس للعقل سلطان عليها وهي للعقل من القاهرين .

الفصل الرابع

روح الجماعات الثورية

- ١ - صفات الجماعات العامة
- ٢ - كيف تحدد روح العرق تقلبات الجماعات
- ٣ - شأن الزعماء في الحركات الثورية

١ - صفات الجماعات العامة

لا تأتي الثورات ، مهما يكن مصدرها ، بشئ التأتج إلا بعد دخولها في نفوس الجماعات وهي لهذا السبب تعتبر نتيجة روح الجماعات .

ومع أني بحثت مطولاً في كتاب آخر عن روح الجماعات فإن الضرورة تقضي على أن أذكر هنا سننها الأساسية ، وعلى ذلك أقول :

إن المرء وهو جزء من الجماعة يختلف جداً عنه وهو منفرد ، فشخصيته الشاعرة تنفي في شخصية الجماعة غير الشاعرة . وليس من الضروري أن يتصل المرء بالجماعة اتصالاً مادياً ليكتسب نفسية الجماعة ، بل يكفي في الغالب لتكوين هذه النفسية ما ينشأ عن بعض الحوادث من الانفعالات والمشاعر العامة .

ولروح الجماعة التي تظهر وقتاً مزاج خاص يتصف بتغلب الاشعور الخاضع لأحكام منطق خاص يسمى منطق الجماعات

ونعد من الأوصاف الأخرى للجماعات غلوها في سرعة التصديق وسرعة الانفعال وعدم التبصر وعجزها عن التأثر بالمعقول ، فلا يمكن اقناعها إلا بالتوكيد والعدوى والتكرار والنفوذ ، وليس للحقائق والتجارب تأثير فيها ويمكن حملها على تصديق كل شيء لعدم وجود ما هو مستحيل عندها .

وما تتصف به الجماعات من سرعة التأثر والانفعال يجعلها مفرطة في مشاعرها التي تكون إما ضارة وإما نافعة . ويعظم هذا الإفراط في أيام الثورة . فأقل تحريض يدفع الجماعات وقتئذ الى القيام بأقصى الأعمال ويزيد في الثورات أيضاً ما تتصف به الجماعات في الأحوال العادية من سرعة التصديق فتعتقد صحة ما لا يمكن تصديقه من الأفاقيص . ذكر أرثوريانغ أن الشعب قبض ، عندما كان يزور أيام الثورة الفرنسية المنايع القريبة من كلرمون ، على دليله لاعتقاده أنه جاء لينسف المدينة كما أمرته الملكة ، ثم أخذ الناس بعد ذلك يتناقلون أشنع الأحاديث عن بيت الملك عادين إياه من الغيلان والعفاريث .

والانسان وهو جزء من الجماعة يهبط كثيراً من سلم الحضارة فتصدر عنه عيوب الشراسة ومزاياها أي أنواع الظلم والاستبداد وأنواع الحماسة والبطولة . فالجماعة وإن كانت من الجهة العقلية أدنى من الرجل المنفرد قد تكون اسمى منه شعوراً وخلقاً ، ويسهل عليها أن تقترب إثمًا كما يسهل عليها أن تضحي بنفسها .

وتلاشي الأخلاق الشخصية في الجماعات لما لها من التأثير في أفرادها فيصبح فيها البخل متلافاً والمحدد معتقداً والصالح مجرمًا والنذل بطلاً ، وما أكثر أمثلة هذه التحولات أيام الثورة الفرنسية .

فالإنسان يبدى ، وهو مجتمع ، سواء أمن المخلفين كان أم من أعضاء البرلمان ، ما لا يحظر بياله وهو منفرد من حكم في قضية أو رأى في قانون .

ومن أهم النتائج التي تنشأ عن تأثير الجماعة في أفرادها توحيد مشاعرهم وعزائمهم . ومن هذه الوحدة النفسية تكتسب الجماعات قوة عظيمة . والباعث على تكوين هذه الوحدة النفسية هو انتشار المشاعر والحركات والأعمال بين الجماعة بالعدوى على الخصوص وكيف تحدث تلك الإرادة والمشاعر المشتركة ؟ إنها تحدث بالعدوى ، ولكن تكوين هذه العدوى يتطلب مصدراً ، وهذا المصدر هو الزعيم الذي سنتكلم قريباً عن تأثيره في الحركات الثورية . فالجماعة بلا زعيم تعجز عن السير والحركة .

ويجب الاطلاع على سنن روح الجماعات لتفسير حوادث الثورة الفرنسية وإدراك سير المجالس الثورية وتطور أعضائها ، فلما كانت القوى اللاشعورية هي الدافعة لهؤلاء الأعضاء كانوا يقولون ويفعلون في الغالب خلاف ما كانوا يريدون .

ومع أن فريقاً من أقطاب السياسة أدرك سنن روح الجماعات نرى أكثر الحكومات

قد جهل أمرها ، ولا يزال يحمله . وقد سهل هذا الجهل سقوط أكثر الحكومات ، وتضخ الأخطار الناشئة عن جهل روح الجماعات عند الاطلاع على السهولة التي أسقطت بها فتنة صغيرة بعض أولياء الأمور ولا سيما لويس فيليب ، فقد جهل القائد الذي كان يقود سنة ١٨٤٨ جنوداً كافية للدفاع عن ذلك الملك أن اختلاط الجماعة بالجند يؤدي بالتلقين والعدوى الى شلل هؤلاء وعدم قيامهم بواجباتهم فنشأ عن هذا الجهل خلع مليكه

٢ — كيف تحدد روح العرق تقلبات الجماعات

يمكن تشبيه الشعب بالجماعة ، لانه يتصف ببعض صفاتها ، الا أن روح العرق الذي ينتمى اليه الشعب يحدد تقلبات هذه الصفات ، ففي روح العرق ثبات لا عهد لروح الجماعة المتقلبة بمثله .

ومتى حصلت للشعب روح وراثية مستقرة مع الزمن تتغلب هذه الروح على روح الجماعة .

ويظهر الشعب أحياناً كالجماعة بمظهر المتقلب . ولكن لنعلم أن وراء قلبه وحاسته ومظالمه وهدمه غرائز ثابتة متأصلة تدعمها روح العرق ، وقد أثبت تاريخ الثورة الفرنسية وتاريخ القرن الذي بعدها كيف تتغلب الروح الثابتة على روح التخريب في نهاية الأمر وما أكثر المرات التي جدد فيها الشعب حالاً بناء ما هدمه من الأنظمة .

ولا يسهل التأثير في روح الشعب كما يسهل في روح الجماعات ، فوسائل التأثير في روح الشعب تسير معوجة بطيئة كالجرائد والمحاضرات والخطب والكتب ، ويمكن ردها الى العناصر التي وصفناها سابقاً وهي : التوكيد والتكرار والنفوذ والعدوى .

قد تنال العدوى النفسية شعباً بأسره فجأة ، ولكنها لا تسرى في الغالب من فريق الى آخر الا بالتدريج ، فهكذا انتشر الاصلاح الديني في فرنسا ، والشعب وان كان يميل أقل من الجماعة فقد تثيره بغثة بعض الحوادث كشتمه وتهديده بالغزو ، وقد شوهد ذلك غير مرة أيام الثورة الفرنسية ولا سيما حين توعد دوك دوبرونسويك الأمة الفرنسية جاهلاً بنفسيتها ، فهذا الدوك لم يضر بذلك لويس السادس عشر وحده بل أضر نفسه . اذ اوجب سوق جيش لمقاتلته .

و يشاهد انفجار المشاعر فجأة في الأمم كلها ، ولم يدرك نابليون قوة هذه المشاعر وقتما اغار على اسبانية وروسية ، فالفلاح الروسي الذي كان خشناً سخيلاً تحولت صفاته حينما

شعر بغارة نابليون ، ويمكن استجلاء ذلك من العبارة الآتية التى تقتطفها من رسالة اليزابت زوجة القيصر اسكندر الأول واليكها :

« لقد اشتعلت قلوب الروس حينما جاوز نابليون حدودنا ، وكان ذلك الشعور ينمو كلما أوغل نابليون فى البلاد . وصار الشيوخ الذين أضاعوا أموالهم يقولون : سنجد ما نسد به خلثنا وكل شئ . أفضل عندنا من صلح محز ، وأصبحت النساء اللواتى لهن أزواج فى الجيش لا ينظرن الى ما يحيق بهن من الأخطار ولا يخشين الا الصلح الذى هو قضاء على روسية بالموت ، وكل ذلك لم يخطر ببال القيصر ، ولو أراد القيصر لم يقدر عليه . » وقد قصت الامبراطورة اليزابت المذكورة على والدتها الاميرن الآتين اللذين يستدل بهما على درجة ما فى نفوس الروس من المقاومة ، قالت اليزابت :

« استخدم الفرنسيون فى موسكو بعض الفلاحين فى جيشهم ووسموهم فى أيديهم كما توسم الخيل لكيلا يفروا ، وقد سأل أحدهم عن هذه السمة فقيل له انها تدل على أنه جندى فرنسى فصرخ قائلاً : يا عجباً أأكون من جنود امبراطور فرنسة . ثم أخذ فأساً وقطع بها يده ورمها على أرجل الحضور قائلاً : خذوا ستمكم هذه .

« وقبض الفرنسيون فى موسكو على عشرين فلاحاً لخطفهم بعض الفرنسيين ، فصفوهم وقرأوا عليهم حكم القتل باللغة الروسية ، وكان الفرنسيون ينتظرون أن يطلبوا العفو ، ولكنهم بدلا من ذلك طلبوا اليهم أن يملوهم ليصلبوا ، ثم قتلوا الأول بالرصاص منتظرين أن يخاف الآخرون فيسألوا العفو ويعدوا بتحسين سلوكهم ، ثم قتلوا الثانى والثالث ومن بقى من العشرين بالرصاص من غير أن يستمطر واحد منهم رحمة العدو . » وتكون الروح الشعبية مشبعة من خلق الدين ، فالشعب يعتقد وجود كائنات علوية ، كالآلهة والحكومات وأعظم الرجال ، قادرة على تحويل الأمور كما تريد ، ويورث هذا الخلق عند الشعب ميلا شديداً الى العبادة فيحتاج الى معبود سواء أرجلا كان أم مذهبا ، وعندما تخيفه الفوضى يتطلب مسيحاً منقذاً .

والشعوب تنتقل كالجماعات من العبادة الى الحق ، إلا أن انتقالها هذا يقع بالتدريج فى الغالب ، فقد تلعن اليوم من عبده امس ، ويشاهد هذا الانتقال فى مختلف البلدان ، كما دل على ذلك تاريخ كرومويل الذى أسقط أسرة مالكة ورفض تاج الملك ، فكرومويل الذى دفن كما يدفن الملوك لم يمض على موته سنتان حتى اتزع جسده من قبره وقطع الجلاذ رأسه معلقاً إياه على باب البرلمان .

٣ — شأن الزعماء في الحركات الثورية .

ذكرنا أن الجماعات والمجالس والامم والاندية تعجز عن السير حينما تكون عاطلة من سيد يقودها ، ويثبت في كتاب آخر ، مستعيناً بعلم وظائف الأعضاء ، أن روح الجماعة اللاشاعرة ترتبط بروح زعيمها ، فهو الذي يمنحها إرادة واحدة ويلزمها الطاعة المطلقة . يؤثر الزعيم في الجماعة بالتلقين على الخصوص ، ويتوقف نجاحه على طريقة تلقينه ، وقد أثبت التجارب الكثيرة أن تلقين الجماعة سهل جداً .

والجماعة تكون بحسب أنواع التلقين ، هادئة أو هائجة أو مجرمة أو باسلة مغامرة وهذه الأحوال وإن جاز أن تكون ذات مظهر عقلي ليس فيها من العقل سوى الظاهر ، فالمشاعر والخيالات هي التي تؤثر في الجماعة ، ولا تتأثر الجماعة بالمعقول أبداً .

وبدلنا تاريخ الثورة الفرنسية على سهولة اتباع الجماعات ما يأتي به الزعماء من التحريض المتناقض ، فهي قد هتفت لفوز الجيرونديين والايبريين والدانتونيين ورجال الحول كما هتفت لسقوطهم .

والزعماء لسيرهم سرراً لا يلاحظ شأنهم بعد تقادم العهد إلا بصورة مهمة ، فيجب لاستجلاء هذا الشأن أن يبحث عنه في الحوادث الحديثة التي تثبت سهولة تحريك الزعماء للناس ، ولا نشير هنا الى اعتصابات موظفي البريد والمعدنين التي قد يقال إن سببها هو استيائهم ، بل نشير الى الحوادث التي لا منفعة للجماعة فيها ، كالهرج الذي أوجبه بعض زعماء الاشتراكية في باريس يوم أعدم في أسبانية الفوضوي فيرير الذي لم يسمع الناس شيئاً عنه في فرنسا ، فقد كفى تحريض بعض الزعماء في باريس لسوق جيش شعبي الى السفارة الأسبانية بقصد حرقها ، ولما دفع المهاجمون عنها اقتصرؤا على تخريب بعض المخازن لانشاء بضعة متاريس .

وقد أتى الزعماء في ذلك الحين دليلاً آخر على تأثيرهم ، فلما أحسوا أن حرق سفارة أجنبية أمر خطر أشاروا على الجماعة في يوم آخر باقامة مظاهرة سلمية فاطاعتهم كما فعلت وقتما أمروها بالتمرد ، ولا شيء أحسن من هذا المثال لاثبات شأن الزعماء وإطاعة الجماعات .

الفصل الخامس

- روح المجالس الثورية

- ١ - صفات المجالس الثورية الكبرى
- ٢ - روح الأندية السياسية
- ٣ - اشتداد المشاعر التدريجي في المجالس .

١ - صفات المجالس الثورية الكبرى

المجلس السياسي الكبير ، كالبرلمان ، جماعة ، ويكون فعل هذه الجماعة قليلا حينما تتناقض مشاعر أحزابها ، وقد تعتبر هذه الأحزاب ذات المنافع المختلفة مجلساً ذا جماعات متباينة خاضعة لزعمائها ، وحينئذ لا يتجلى ناموس الوحدة النفسية للجماعات إلا في كل حزب على حدة ، والأحوال الاستثنائية وحدها هي التي تجمع بين عزائم تلك الأحزاب ولكل من أحزاب المجلس كيان يفنى فيه رجاله ، فيستصوبون في المجلس ما لا يعتقدونه وما لا يريدونه . فقد أبدى فرنيو استيائه من اقتراح الحكم بالموت على لويس السادس عشر ولكنه استحسن ذلك الاقتراح في اليوم التالي .

و يستطيع ذوو النفوذ من الزعماء أن يؤثروا أحيانا في أحزاب المجلس كلها فيؤلفوا منها جماعة واحدة ، ومن ذلك تأثير عدد قليل من الزعماء في أعضاء مجلس العهد وجعلهم يأتون أعمالا تناقض آراءهم .

أذعنّت الجماعات في كل زمن للزعماء الأشداء فأثبت لنا تاريخ المجالس الثورية مقدار خوف هذه المجالس من زعماء الفتن مع سلقها الملوك بالسنة حداد ، فكانت تستحسن في جلسة واحدة أكثر الأمور مناقضة للمعقول خشية من الزعماء الجبارين . وعندما يكسب المجلس صفات الجماعة يصبح مثلها ذا مشاعر متطرفة أي انه قد يصير

مصرفاً في قوته كما انه قد يصير مسرفاً في جنبه، ويكون عاتياً أمام الضعفاء ذليلاً أمام الأقوياء
فالكل يعلم درجة الخوف الذي استحوز على البرلمان وقتما دخل عليه الشاب لويس
الرابع عشر والسوط بيده، ليلقي خطبته، والكل يعلم درجة الوقاحة التي أتتها المجلس
التأسيسي ازاء لويس السادس عشر حينما كان هذا الملك يشعر بضغفه، وليس دعر مجلس
العهد من روبسبير بأمر مجهول.

صفات المجالس المذكورة سنة عامة، فمن الخطأ العظيم أن يدعو الملك عندما تن قوته
مجلساً للاجتماع، فقد أدى اجتماع مجلس النواب الى اعدام لويس السادس عشر، وفقد
هنرى الثالث عرشه عندما غادر باريس وجمع مجلساً نيابياً في بلوا، فعندما شعر هذا
المجلس بضغف الملك عد نفسه سيداً فغير الضرائب وعزل الموظفين وادعى أن لقراراته
ما للقانون من القوة.

وشوهد غلو المشاعر في مجالس الثورة الفرنسية كلها، فبعد أن اتحل المجلس التأسيسي
السيادة بالتدريج أعلن أنه هو الحاكم واعتبر لويس السادس عشر موظفاً بسيطاً، ثم جاء
مجلس العهد فكان في بدء الأمر معتدلاً، ثم أفرط في اظهار سلطانه فسن قانوناً حرم به
المتهمين حق الدفاع عن أنفسهم وأجاز الحكم عليهم بالشبهات. وقد أدى امعانه في سفك
الدماء الى اقتال أعضائه فقتل الجلاد الجرونديين ثم الابيريين ثم الداتونيين ثم الروبسييريين
وسرعة القلب في مشاعر المجالس توضح لنا علة اتيانها نتائج مخالفة لمقاصدها، فقد
ساق المجلس التأسيسي المؤلف من الحزب الكاثوليكي والحزب الملكي فرنسة الى جمهورية
مستبددة بدلا من الملكية الدستورية التي كان يريد اقامتها، كما ساقها الى اضطهاد الاكثريوس
بدلا من اعلاء شأن الديانة التي كان يود الدفاع عنها.

٢ — روح الاندية السياسية

تختلف الجمعيات الصغيرة، ذات الآراء والمعتقدات والمنافع الواحدة، عن المجالس
الكبيرة بوحدة مشاعرها وعزائمها، ومن هذه الجمعيات الصغيرة نذكر المجالس الدينية
وطوائف المحترفين في العهد السابق والأندية أيام الثورة الفرنسية والجمعيات السرية في
النصف الأول من القرن التاسع عشر ومحافل الماسون وتقابات العمال في الوقت الحاضر.
ويقضى لادراك سير الثورة الفرنسية أن يبحث عن الفرق بين المجلس المتخالف

والنادى المتجانس ، فالأندية هي التي سيطرت على الثورة الفرنسية حتى عهد الديركتوار ، وقد كانت هذه السيطرة شديدة في دور العهد كما هو معلوم .

تخضع الأندية لنواميس روح الجماعات ، على رغم وحدة عزائمها الناشئة عن فقدان الأحزاب فيها ، فهي تستكين للزعماء كما شوهد في النادى يعقوبى الذى كان يقوده روبسيير ويكون تأثير الزعيم في النادى ، أى في الجماعة المتجانسة ، أصعب مما في الجماعة المتباينة ، فلكي تسير الجماعة المتخالفة يكفي أن يهتز عدد قليل من أوتارها ، وأما الجماعة المتجانسة ، كالنادى مثلا ، حيث تكون المشاعر والمنافع واحدة فيقتضى لسوقها مدارة هذه المشاعر والمنافع ، وبهذا قد يصبح الزعيم مرؤوساً .

وللجماعات المتجانسة قوة عظيمة في خفاؤها ، فقد كفى أيام الكومون ، أى سنة ١٨٧١ بضعة أوامر خفية لحرق أجنال أبنية باريس كدار البلدية وقصر التوبلرى وديوان المحاسبة وبيت جوقة الشرف ، والمصادفة هي التي أقذت وقتذ قصر اللوفر وما فيه من الآثار الفنية ، والآن يصغى باحترام الى الأوامر التي يصدرها زعماء العمال المستنون على رغم مخالفتها للصواب ، ولم يكن الاقياد لأندية باريس وللجمعية الثورية المتمردة أقل من ذلك أيام الثورة الفرنسية ، فكانت بأمر واحد منها تسوق رعاغاً مسلحين الى المجلس الاشتراعى لاملأ مطالبها عليه ، وسنرى عند بحثنا في تاريخ مجلس العهد وقوع مثل هذه الغارات كثيراً واقبياد هذا المجلس ، الذى وصفته الأفاصيص بشدة البأس ، لأوامر عصابة من الغوغاء .

تدلنا الملاحظات السابقة على ما لروح الجماعة من التأثير في إرادة أعضائها ، فإذا كانت الجماعة متجانسة كان هذا التأثير عظيماً ، والا كان أقل من ذلك ، وقد يصبح عظيماً إما لتغلب الجماعات النافذة في المجلس المتخالف على الجماعات الضعيفة الالتحام وإما لانتشار بعض المشاعر بالعدوى بين أعضاء هذا المجلس .

وأحسن مثال نورده على تأثير الجماعات هو القرار الذى تنزل فيه الأشراف عن امتيازاتهم الاقطاعية في الليلة الرابعة من شهر اغسطس (أيام الثورة الفرنسية) ، وسبب ذلك أن الناس وهم في الجماعة غيرهم وهم منفردون ، فلو سئل كل شريف عن رأيه وهو منفرد لأجاب أنه لا يتنزل عن حقوقه أبداً .

وقد أورد نابليون ، وهو في جزيرة القديسة هيلانة ، أمثلة عجيبية على تأثير المجالس في

أعضائها فقال : « كنا نصادف في ذلك الوقت أشخاصاً كانوا يسرون على غير ما سمع عنهم ، خذ مونج مثلاً تر أنه صعد على منبر اليعاقبة لما اختير الحرب وصرح انه يهب ابتيحه مقدماً للجنديين الأولين اللذين يجرهما العدو ، وكان يود أن يقتل جميع الأشراف ، مع أنه كان من أكثر الناس دماً وأشدهم ضعفاً ، ولو اضطر الى ذبح فروجة ما فعل ذلك وما سمح لأحد أن يفعله أمامه . »

٣ — اشتداد المشاعر التدريجي في المجالس

لو أمكننا أن نقيس مشاعر الجماعات بعضها ببعض قياساً رياضياً لاستطعنا أن نرسمها على خط منحني يصعد من طرفه الأول ببطء ثم بسرعة ثم يهبط الى طرفه الثاني عمودياً. ويمكن أن تسمى هذه المعادلة معادلة تحول مشاعر الجماعات المحرّضة تحريضاً مستمراً فلو كانت سنن علم النفس مشابهة لسنن علم الميكانيك لجازلنا أن نعتبر أن علة ثابتة المقدار مستمرة التأثير تزيد المشاعر سرعة ، فمن المعلوم أن قوة ذات مقدار ثابت واتجاه مستمر كالجاذبية المؤثرة في أحد الأجرام تحدث في الجرم حركة زائدة السرعة فتكون سرعة الجرم الساقط في الفضاء بتأثير الجاذبية عشرة أمتار في الثانية الأولى وعشرين متراً في الثانية التالية وثلاثين متراً في الثانية الثالثة .

غير أن هذا المقياس الذي قد تقاس به سرعة المشاعر التابعة لمؤثرات مستمرة لا يوضح لنا سبب توقف هذه المؤثرات بغتة عن التأثير ، ويمكن إدراك هذا التوقف بقياسه على سنن وظائف الأعضاء ، فمن قواعد علم وظائف الأعضاء أن للذة والألم حدوداً لا يمكن تعديها وأنه ينشأ عن كل تشديد على الأعضاء شلل في الحس ، وأن أعضاءنا لا تتحمل غير مقدار محدود من الفرح والألم والمجهود ، وأن اليد التي تشدد على مقياس القوة لتلبث أن تستنفد قوتها فتضطر فجأة الى الكف عن إمساكه .

ويجب في البحث عن علة اختفاء بعض المشاعر بغتة في المجالس أن نسلم أيضاً بوجود أحزاب ذات مشاعر ردعتها قوة الحزب المتغلب عن النمو ، وقد تشتد مشاعر هذه الأحزاب عندما يضعف الحزب المتغلب لسبب من الأسباب ، وذلك كما وقع للموتانيار بعد شهر ترميدور (الشهر الحادي عشر من السنة الجمهورية)

الجزء الثاني

الثورة الفرنسية

الباب الأول

مآخذ الثورة الفرنسية

الفصل الأول

آراء المؤرخين في الثورة الفرنسية

١ — رواة الثورة الفرنسية

٢ — نظرية القضاء والقدر في تفسير الثورة الفرنسية

٣ — شكوك المؤرخين في تأثير الثورة الفرنسية

٤ — إحصاف المؤرخين

١ — رواة الثورة الفرنسية

اختلفت الآراء في الثورة الفرنسية ، فهي عند دومستر من عمل الشياطين ، فقد قال :
« إن عمل الشياطين لم يظهر في أى حين ظهوره فيها . » ، وهي عند اليعاقبة مجددة للنوع
البشرى . ويستحب الأجانب المقيمون في فرنسا عدم الخوض فيها ، قال باريت ويندل :
« لم يذهب أثر تلك الثورة من النفوس ، فالناس لا يزالون ينظرون إليها بعين التشيع

والتحزب ، وكلما أدركتم كنهه فرنسة رأيتم أنه حتى الآن لم يظهر لفرنسى بحث خال من الغرض فى هذه الثورة .

هذه ملاحظة صحيحة . فيجب لتفسير حوادث الماضى تفسيراً عادلاً أن لا تبقى مؤثرة فى النفوس وأن لا يبقى لها صلة بمعتقدات الناس السياسية أو الدينية الحاضرة التى أشرت إلى عدم تسامحها الجبرى .

ولذا لا نعجب من تناقض آراء المؤرخين فى الثورة الفرنسية . وسيظل بعضهم يعدها حادثة مشؤومة كما يظل البعض الآخر يعدها حادثة مجيدة .

واليوم قد نسى الناس رواة الثورة الفرنسية المتقدمين كثيراً وكنهه وميشله مع ما اتصف به هذا الأخير من حسن القريحة . ففى آرائهم شىء من الغموض ويتغلب عليها مبدأ القدر التاريخى ، ومن ذلك أن تيار كان يعد الثورة الفرنسية نتيجة طبيعية للنظام الملكى المطلق وبعد الهول نتيجة غارة الأجنبي ، وأن كنهه كان يعتبر ما حدث سنة ١٧٩٣ من الاضطهاد نتيجة استبداد قديم ، وأن ميشله كان يعتبر الثورة الفرنسية عملاً شعبياً جديراً بالاعجاب والتعظيم .

وقد محا تايين كثيراً من نفوذ هؤلاء ، فهو مع شدة بيانه أوضح كثيراً من حقائق الثورة الفرنسية ، وعمما قليل يصبح كتابه مرجعاً لا يقوم مقامه كتاب آخر .

ولا يخلو كتابه من عيوب . فهو ، وإن أجاد رواية الحوادث ووصفها ، قد فسرها بالمنطق العقلى مع أن العقل لم يملها ، وهو باثباته غطرسة روبسبير الذى قتل كثيراً من رجال العهد فى بضعة أشهر لم يكتشف علة سلطانه على هذا المجلس ، ولذلك أصاب من قال : إن تايين أحسن الرواية وأساء الفهم .

وكتاب تايين على ما فيه من النقص عظيم الشأن ، ولم يؤلف ما يعدله . ويظهر لنا نفوذ هذا الكتاب عند الاطلاع على الغيظ الذى أوجبه فى أنصار المذهب اليقوونى المخلصين الذين يرئسهم الآن أحد أسانذة السوروبون مسيو اولار ، فقد وضع مسيو اولار فى سنتين رسالة مشبعة من روح الغضب على تايين ، وهو مع ما قضاه من الوقت فى تصحيح بضعة أغلاط مادية فى كتاب تايين لم يصن نفسه عن ارتكاب مثلها .

وأحسن نقد لكتاب تايين هو القول إنه ناقص ، فهو مع بحثه فيه عن شأن الرعاع

وزعمائهم أيام الثورة الفرنسية ومع إملاء ذلك عليه صفحات سخط تقضى بالعجب غابت عنه وجوه كثيرة من هذه الثورة .

وسيستمر الخلاف بين أنصار تايين وأنصار اولار ، وهذا الخلاف يتجلى على الخصوص في أن اولار يعتبر الشعب حكماً وتايين يقول إن الشعب لما سار بغريزته وحرّر من الزواجر الاجتماعية عاد الى دور الهمجية الأولى . ولا يزال رأى مسيو اولار المخالف لقواعد روح الجماعات مذهباً دينياً عند اليعاقبة في الوقت الحاضر . فهو لا يسلكون فيما يكتبونه عن الثورة الفرنسية طرق المعتقدين ويتحلون في المصنفات العلمية أدلة علماء اللاهوت .

٢ — نظرية القضاء والقدر في تفسير الثورة الفرنسية

أنصار الثورة الفرنسية وأعداؤها يرون في الغالب أن الحوادث الثورية تقع قضاء وقدرأ . قال إميل اوليفيه في كتاب « الثورة الفرنسية » : « لا يقدر أحد أن يقاوم الثورات . فالإنسان عاجز عن تبديل العناصر ومنع وقوع الحوادث الناشئة عن طبيعة الأحوال » . وقال تايين : « كان سير الأفكار والحوادث عند افتتاح مجلس النواب ، أى في بدء الثورة الفرنسية أمراً مقدراً . فكل إنسان يحمل مستقبله وتاريخه من غير أن يعلم » وقال مسيو سوريل : « إن الثورة الفرنسية التي ظهرت لبعض الناس أنها هادمة وللبعض الآخر مبددة هي نظام طبيعي ضروري لأوربة . فقد صدرت عن الماضي ، ولا يمكن إيضاحها إلا بنور العهد السابق » ، وقال غيزو : « لم تقف الثورة الانكليزية والثورة الفرنسية سير الحوادث الطبيعي في أوربة ولم تقولاً شيئاً لم يقل في الماضي ولم تفعل شيئاً لم يفعل مثله مرة قبل انفجارهما ، فإذا نظرنا الى أعمال تينك الثورتين ، أى إلى شكل الحكومة والقانون المدني ونظام الأحوال الشخصية والحرية لم نجد شيئاً ابتدعه » .

فكل هذه الأقوال تذكرنا بالمبدأ المعروف القائل إن الحادثة نتيجة حادثة سابقة .

يبد أن ذلك المبدأ لا يدلنا على شيء كثير ، فلا يجوز إيضاح كثير من الحوادث بمبدأ القدر التاريخي الذي رضى به كثير من المؤرخين ، فالتاريخ وإن قصّ علينا أموراً وقعت بفعل الضرورة قصّ علينا أموراً أخرى وقعت عرضاً ، ومن ذلك أن نابليون بونابارت لم ينج من الموت عندما كان يغتسل في أوكسون سنة ١٧٨٦ إلا بمصادفته كثيراً فلو مات نابليون بونابارت في تلك الساعة وقلنا إن قائدأ آخر كان يظهر ليقبض على زمام

الحكم المطلق فما عسى أن يكون مذكوراً في القصيدة الامبراطورية الحماسية عوضاً عن ذلك العبرى الذى قاد جيوش فرنسة ظافرة الى فتح عواصم أوربة ؟ .

نعم يجوز اعتبار الثورة الفرنسية حادثاً ضرورياً من بعض الوجوه ، ولكنها كانت على الخصوص صراعاً بين الخياليين وسنن الاقتصاد والاجتماع والسياسة المسيرة للبشر ، فلما جهل هؤلاء الخياليون تلك السنن حاولوا عبثاً أن يتغلبوا على سير الأمور ، ولما فشلت محاولتهم اضطهدوا الناس وأمروا متوعدين ، ولكن على غير جدوى ، أن يكون للورق النقدي الساقط قيمة الذهب ثم سنوا قانون القصاص الذى زاد الجرائم ، على أن رجال الثورة الفرنسية اكتشفوا فى نهاية الأمر ، بعد أن كسروا الزواجر ، أن المجتمع لا يعيش بغير الزواجر ، وهم حيناً أرادوا صنع زواجر جديدة رأوا أن أقوى ما يبتدعونه ، حتى المصلحة ، لا يقوم مقام الأخلاق التى غذت الماضى بها النفوس شيئاً فشيئاً .

إذن لم تنشأ حوادث الثورة عن سنن ثابتة بل كانت نتيجة مبادئ اليقظة ، وقد أمكن أن تكون شيئاً آخر . أفلا يكون سير الثورة الفرنسية غير ما وقع لو دعى لويس السادس عشر بالحكمة والموعظة الحسنة أو لو كان المجلس التأسيسى أقل جبناً مما كان عليه إزاء فتن الرعاع ؟

فيجب إظهار الشك فى فعل الأقدار سواء فى المباحث التاريخية أم فى المباحث العلمية . فقد توصل العلم بالتدريج الى تبديد كثير من أقدار الطبيعة ، ولا يفعل عظماء الرجال ، كما أشرت فى كتاب آخر ، سوى ذلك التبديد .

٣ — شكوك المؤرخين فى تأثير الثورة الفرنسية

ظهر المؤرخون الذين أشرنا الى أفكارهم فى هذا الفصل بمظهر الجازم البات لخصر أنفسهم فى دائرة المعتقد وعدم نفوذهم دائرة العلم والمعرفة ، فالكاتب الملكى منهم شديد الحقد على الثورة الفرنسية والمتنزه بمذهب الحرية كثير التشيع لها . واليوم نشاهد سعيًا الى درس الثورة الفرنسية كإحدى الحوادث العلمية التى لا يكون لآراء المؤلف الخاصة ومعتقداته الشخصية فى درسها سوى تأثير قليل لا يشعر به القارىء .

لم يأت هذا الزمن بعد ، ولم نر سوى طلوع فجر الشك الذى يتقدم ذلك ، فقد أخذ كثير من الكتاب يجتنبون إبداء آراء قاطعة فى مؤلفاتهم .

سأل مسيو هانوتو ، بعد أن أثنى على الثورة الفرنسية ، عن نتائجها بالنسبة الى ثمنها الغالى فقال : « سيتردد التاريخ كثيراً قبل أن يحكم فى ذلك » ، وأبدى مسيو مادلن فى كتابه الذى بحث فيه عن الثورة الفرنسية تردداً مثل ذلك فقال : « لا أستطيع إعطاء حكم قاطع فى حادثة معقدة كالثورة الفرنسية ، فأرى أن عللها وأعمالها ونتائجها أمور تقتضى بحثاً كبيراً . »

ويظهر أيضاً نشوء الآراء فى الثورة الفرنسية من مطالعة ما كتبه فى الوقت الحاضر حماتها الرسمىون ، فبعد أن كانوا يقولون إن ما حدث فيها من المظالم كان للدفاع أخذوا يدافعون عنها طالين أحكاماً مخففة عليها . جاء فى كتاب تاريخ فرنسا الذى ألفه اولار ودويديور حديثاً ليدرس فى المدارس : « نعم انهمرت الدماء فى الثورة الفرنسية واقترفت فيها مظالم وجرائم منكرة غير نافعة للدفاع الوطنى ، ولكن النفوس استولحت فى هذه الزوينة فكان رجال الوطنية الذين حفت بهم الأخطار يقتلون الناس والسخط أخذ منهم كل مأخذ . »

وأما الأجانب فأحكامهم على الثورة الفرنسية شديدة . ولا يعجب . فقد أذاقت أوربة ، ولا سيما المانية ، أنواع المحن . قال مسيو فاغيه يخبرنا برأى الألمان : « لنقل رابطى الجأش وطنيين ، ومن شروط الوطنية أن يبلغ الانسان أمته حقيقة الأمر ، إن المانية عدت فرنسا فى الماضى أمة اضطهدتها وازدرتها وأثخنت فيها ونهبها مدة خمس عشرة سنة باسم الحرية والاخاء ، وهى تعتبر فرنسة فى الوقت الحاضر أمة تقيم بحجة هاتين الكلمتين ديموقراطية مستبدة ظالمة مزعجة مخربة غير صالحة ليقضى بها أحد . هذا كل ما تنظر به المانية الى فرنسة وهذا كل ما تشير اليه جرائدها وكتبها . »

وسوف يعد كتاب المستقبل الثورة الفرنسية حادثاً مؤثراً ذا عبر مهمما كانت قيمة الأحكام عليها . لحكومة أدى حبها لسفك الدماء الى قطع رؤوس شيوخ جاوزوا حد الثمانين ورؤوس كثير من الأطفال والفتيات ، وحكومة مع تخريبها فرنسة قدرت على دفع غارة أوربة المدججة بالسلاح ، وأميرة من بيت الملك فى النمسة قطع رأسها بعد أن كانت ملكة فرنسة ، وأميرة من اقربائها قامت فى مكانها بعد أن تزوجت بامبراطور كان ضابطاً كلها أمور لم يرو التاريخ مثلها ، ولعلماء النفس فى تلك القصة التى لم يقتلوها تمحيصاً

فوائد كثيرة . فيها يكتشفون أن علم النفس لا يتقدم الا إذا عدلوا عن النظريات الوهمية وأخذوا يبحثون في الحوادث بحثاً حقيقياً .

٤ - انصاف المؤرخين .

عد الانصاف منذ القديم أمراً ضرورياً للمؤرخ ، وقد أدعى المؤرخون منذ زمن تاسيت أنهم من المنصفين ، والواقع أن المؤرخ يرى الحوادث كما يرى المصور المناظر ، أى ينظر اليها من خلال مزاجه وخلقه وروح أمته . فشأن المؤرخين شأن المصورين الكثيرين الذين يقفون أمام منظر واحد ويأتى كل واحد منهم بصورة ذات طابع خاص .

نعم قد يكتفى المؤرخ بنسخ الوثائق ، وإلى هذا يميل المؤرخون في الوقت الحاضر غير أن وثائق الأدوار القرية ، كدور الثورة الفرنسية ، من الكثرة بحيث لا تكفى حياة المؤرخ لنسخها ، ولذا يختار المؤرخ ما يروقه منها .

فالمؤرخ يختار من الوثائق ، متعمداً أو غير متعمد ، ما يلائم أفكاره السياسية والدينية والأدبية ، ويؤلف من هذه الوثائق كتاب تاريخ بعيد من الانصاف . ويكون كتاب التاريخ ذا انصاف إذا اقتصر مؤلفه على وضع قوائم تلخص كل حادثة في سطر واحد منها ، ولا نأسف على عدم ظهور من هو منصف ، فالانصاف يؤدي الى وضع مثل هذه القوائم النافذة المملة التي يستحيل الوقوف بها على حقيقة أدوار التاريخ .

وهل يجب على المؤرخ أن يتمتع بحجة الانصاف عن تقدير الرجال أى مدحهم أو هجوهم ؟ لهذه المسئلة حلان عادلان يختلفان باختلاف الكاتب الذى قد يكون من علماء الأخلاق وقد يكون من علماء النفس .

ينظر علماء الأخلاق الى المصلحة الاجتماعية فقط ، ولا يقدرّون الرجال الا من خلال هذه المصلحة ، ويان ذلك أن المجتمع يحتاج لبقائه الى مقياس يقاس به الخير والشر وتميز به الفضيلة والرذيلة أى إن المجتمع يضطر الى وضع أمثلة يسعى اليها الناس ، ولا يبتعدون منها من غير أن يصيبه خطر ،

فعلى علماء الأخلاق أن يقدرّوا الرجال حسب هذه الأمثلة والقواعد المشتقة من مقتضيات الاجتماع ، وهم مدحهم من أفاد وهجوهم من أضر يبرزون أمثلة أخلاقية ضرورية لسير الحضارة .

تلك هي وجهة علماء الأخلاق ، وأما وجهة علماء النفس فغير ذلك ، فالمجتمع وإن لم يحق له أن يتساهل في أمر بقائه فإنه يجب على علماء النفس أن لا يبالوا بذلك . فهم لما كان عليهم أن ينظروا الى الأعمال نظرة عليية اقتضى ان لا يهتموا بتقدير منافعها وأن لا يسعوا إلا الى تفسيرها ، أى أن يكون مثلهم كمثل الراصد أمام أى حادث . نعم يصعب على الانسان أن يقرأ ، وهو رابط الجأش ، أن كاريه كان يتد ضحايا بعد أن يفقأ عيونهم ويذيبهم أشد العذاب ، ولكنه يجب لا كتناه مثل هذه الأعمال أن لا يستشيط العالم على مقترفيها وأن يكون شأنه كشأن علماء الطبيعة إزاء العنكبوت وهي تقتل ذبابة بالتدريج ظهر مما تقدم أنه ليس للمؤرخين وعلماء النفس شأن واحد ، ولكنهم يطالبون جميعهم بتفسير الحوادث تفسيراً حسناً واكتشاف ما هو مستتر تحت الحقائق الظاهرة من القوى الخفية المسببة لها .

الفصل الثاني

مبادئ النظام السابق النفسية

- ١ — الملكية المطلقة ودعائم النظام السابق
- ٢ — مساوى النظام السابق
- ٣ الحياة فى العهد السابق
- ٤ — تحول المشاعر الملكية أيام الثورة الفرنسية

١ — الملكية المطلقة ودعائم النظام السابق

يقول كثير من المؤرخين إن الثورة الفرنسية نشبت ضد الملكية المستبدة ، والواقع أن ملوك فرنسة عدلوا عن الاستبداد قبل انفجارها بزمن طويل ، نعم تجلى الملك العضوض أيام لويس الرابع عشر ، ولكن الملوك الذين ظهروا قبله ، ومنهم فرنسوا الأول ، كانوا يقارعون الأمراء الاقطاعيين مرة والاكليروس والبرلمانات مرة أخرى ، وكثيراً ما غلبوا فى هذه المعارك ، حتى إن فرنسوا الأول لم يكن من القوة بحيث يقدر على كف الأذى عن أعز أصدقائه إزاء السوربون والبرلمان ، فلما كره السوربون مشيره وصديقه بيركان حبسه فأمر الملك بتخليه سبيله فرفض السوربون ذلك فاضطر الملك الى إرسال نبالة لاطلاقه ، ولم يحدد الملك وسيلة لحمايته غير حراسته فى قصر اللوفر ، إلا أن السوربون اغتتم غياب الملك فسجن بيركان ثانية وبعد أن حكم البرلمان عليه بالموت حرق حياً غيب ساعتين

قلنا إن الملك أصبح عضوضاً فى عهد لويس الرابع عشر ، الا أن الملك المطلق لم يلبث أن مال الى الزوال وصار من الخطأ نعت لويس السادس عشر بالمستبد . فقد كان هذا

الملك عبداً لبطائنه ووزرائه والاكليروس والاشراف من كل وجه ولم يكن فرنسى أقل منه حرية.

ومع ذلك كان الملوك يستمدون قوتهم من الله ومن التقاليد التي كانت يتألف من مجموعها عقد البلاد الاجتماعى ، فلما تكرر الجدل فى تلك التقاليد أصابها الوهن فلم يبق من يدافع عنها فانهار ذلك النظام من أساسه .

٢ — مساوىء النظام السابق

ترضى الأمة بالنظام القائم منذ عهد بعيد ، والعادة تستمر مساوئه التي لا تبدو إلا عند إنعام النظر. وعندما يفكر الانسان فيه يسأل كيف اضطبر عليه فيعتقد أنه تعس ، وقد رسخ مثل هذا الاعتقاد أيام الثورة الفرنسية بتأثير بعض الكتاب فبدت عيوب النظام السابق لكل ذى عينين ، وسكتفى ببيان بعض هذه العيوب .

كانت المملكة الفرنسية التي تألفت من ولايات مستقلة فى الماضى مختلفة بقوانينها وطبائعها وعاداتها ، وكانت المكوس الداخلية تفصلها بعضها عن بعض ، وما قام به الملوك من الجهود ، ومنهم لويس الرابع عشر ، لم يؤد الى وحدتها تماماً .

وعدا هذه الأقسام المادية كانت الأمة الفرنسية مؤلفة من ثلاث طبقات ، أى طبقة الاشراف وطبقة الاكليروس والطبقة الثالثة ، وقد تمسك النظام السابق بسياسة التفريق بين الطبقات لاعتباره ذلك سراً من أسرار قوته ، والاضطهاد الذى جاءت به الطبقات الوسطى الظافرة أيام الثورة الفرنسية نأثى عن ميلها الى الانتقام من ماض طويل احتقرتها فيه طبقة الاشراف وطبقة الاكليروس ، وما اكثرت ما عانته الطبقة الثالثة من جراح ، ففى اجتماع عقده مجلس النواب سنة ١٦١٤ وجنا فيه أعضاؤه مكشوفى الرؤوس قال أحد ممثلى الطبقة الثالثة إن الطبقات الثلاث كاخوة ثلاثة ، فلجابه خطيب طبقة الاشراف قائلاً : لا إخاء بين طبقة الاشراف والطبقة الثالثة ، فالاشراف لا يريدون أن يناديهم أبناء الأساكفة والحرابين إخوة لهم .

وكان للاشراف والاكليروس امتيازات لم يوجد ما يسوغها منذ إقصاء السلطة لهم عن الوظائف لارتبابها بهم وإقامتها مقامهم من هو أكثر منهم أهلية وعلماً من أبناء الطبقة الوسطى وحصرها شأنهم الاجتماعى فى الأبهة . قال تالين :

« منذ خسر الأشراف سلطتهم وحصل عليها أبناء الطبقة الثالثة أصبح التفاوت الفاصل بين الطبقتين مؤلماً ، وقد عدل الضمير عن تقديس هذا التفاوت القائم على العادة فحق لأبناء الطبقة الثالثة أن يسخطوا على امتيازات لم يوجد ما يسوغها . »

نعم قد تنزل الأشراف في ليلة تاريخية عن امتيازاتهم عندما أكرهتهم الحوادث على ذلك ، ولكن فعلتهم كانت متأخرة فظلت الثورة الفرنسية سائرة في طريقها وحقد أبناء الطبقة الوسطى على الطبقات الأخرى من جملة أسباب الثورة الفرنسية . ولا يدل مقت أبناء الطبقة الوسطى للأشراف على حقدهم على الملكية . فلم يمتق الشعب الملك لطيشه واستغاثته بالأجنبي الا بالتدريج . ولم يفكر المجلس الاشتراعي الأول في إقامة الجمهورية . وكل ما كان يحلم به هو أن تحل ملكية دستورية في مكان الملكية المطلقة

٣ — الحياة في العهد السابق

يصعب تصور الحياة في العهد السابق — ولا سيما حياة الفلاحين الحقيقية — تصوراً حسناً ، فالكتاب يصورون ما كان عليه الفلاحون في ذلك العهد من الكآبة تصوراً يجعل الانسان يسأل كيف لم يمت هؤلاء البائسون جوعاً . واليك صورة نشرت في تاريخ الثورة الفرنسية الذي ألفه أحد أساتذة السوربون ميسيو رامبو ، ففي هذه الصورة التي وضعت للدلالة على « بؤس الفلاحين أيام لويس الرابع عشر » يرى رجل يقاقل الكلاب ليخطف منها عظاماً معروفة ، وبجانبه بائس يشد أحشائه من الجوع وامرأة ترعي عشباً ويرى أناس ألقوا الى الأرض وأصبحوا كالأموات ، ثم أورد المؤلف المذمور الكلمة الآتية وهي :

« كانت وظيفة الشرطي ، التي كانت تشرى في الدور السابق بـ ٣٠٠ ليرة تدر لصاحبها ٤٠٠ ليرة ، وكان ثمن القبض على الشخص ١٢٠ ليرة ، وكان عدد ما أصدره لويس الرابع عشر من أوامر النفي والسجن ١٥٠ »

ان ابتعاد أكثر الملهفات التي بحثت عن الثورة الفرنسية من الانصاف ، كالمؤلف المذكور ، يجعل الوقوف على ذلك الدور ناقصاً ، نعم ان وثائق تلك الثورة كثيرة ، ولكنها متناقضة . فتمكن معارضة وصف لارويار بالوصف العجيب الذي أتى به السامخ الانكليزي يانغ ليدل على سعادة الفلاحين الذين شاهدتهم في ذلك الزمن ، وهل صح قول بعضهم ان الفلاحين كانوا مثقلين من الضرائب فكانوا يؤدون أربعة أخماس محاصيلهم

ضريبة ؟ يتعذر علينا أن نأتى بجواب صحيح عن ذلك ، وإنما نقول ان اشتراء الفلاحين ثلث الأطنان فى العهد السابق مما يدل على انهم لم يكونوا بائسين .

ومع ذلك نعلم أن الادارة المالية كانت جائرة مرتبكة وأن العجز كان يدب فى الميزانيات وأن الضرائب كان يجيها ملتزمون ظالمون . وأنه نشأ عن هذه الأحوال استياء تجلى فى عرائض مجلس النواب .

ولم تحو هذه العرائض فكراً ثورياً ، وكل ما التمس فيها هو أن تجبى الضرائب بعد موافقة مجلس النواب عليها وأن تفرض على قاعدة المساواة وأن يوضع دستور تعين فيه سلطة الملك والأمة . فلو أجزت هذه المطالبات لقامت مقام الملكية المطلقة ملكية دستورية ولا جئبت الثورة على ما يحتمل .

٤ — تحول المشاعر الملكية أيام الثورة الفرنسية

تحولت مشاعر الشعب ومشاعر المجالس الثورية ازاء النظام الملكى تحولاً سريعاً وان كانت المشاعر تحول عادة شيئاً فشيئاً ، إذ لم يمر ، بين الوقت الذى فيه بجلى أعضاء المجلس الثورى الأول لويس السادس عشر والوقت الذى قطع فيه رأسه ، سوى بضع سنين لم تكن تلك التحولات السطحية سوى تبديل موضعى لمشاعر واحدة ، فالحب الذى كان يظهره الناس للملك قد أظهره للحكومة الجديدة الوارثة له ، وبيان ذلك ان استمداد الملك فى الدور السابق قوته من الله منحه قدرة عظيمة أقبل عليه الشعب من أجلها أيما إقبال . وقد ضعف ايمان الناس بقدرة الملك المطلقة عندما أثبتت التجارب أن هذه القدرة قائمة على الوهم نفى الملك بذلك نفوذه وبحث الجماعة التى لا تسمح للاله الساقط أن يموت عليها ، عن معبود آخر

حقاً كشفت الحوادث المكررة منذ بدء الثورة الفرنسية للبومنين الأحامس أنه لم يبق للبلكية شئ من الحول والقوة وأن هالك قوى أخرى قادرة على مقاتلتها ولها سلطان أعظم من سلطانها وماذا يكون حال السلطة الملكية أمام الجماعات التى رأت تغلب مجلس النواب على الملك ورأت عجز الملك فى باريس عن دفع هجمات العصابات المسلحة عن حصنه ؟ وضع للعيان بذلك ضعف الملك فزادت قدرة مجلس النواب ومدته الجماعات بقوتها .

ومع ذلك دام الايمان الملكى بعد الاستيلاء على الباستيل وبعد فرار الملك واتفاقه مع الملوك الأجانب ، وظل هذا الايمان المتأصل من القوة بحيث لم تقدر الفتن الباريسية التى أدت الى قتل لويس السادس عشر على استئصاله (١) فبقى ثابتاً فى جزء كبير من فرنسا أيام الثورة الفرنسية وكان سبباً لما وقع فى المديرىات من المؤامرات التى لم يحمدها مجلس العهد الا بعد عناء كبير .

ورسوخ المشاعر الملكية فى النفوس جعل المقصلة عاجزة عن القضاء عليها فاستمرت الدعوة الملكية قائمة أيام الثورة الفرنسية فى أنحاء فرنسا حاشا باريس وبعض المديرىات التى تلاشت فيها الايمان الملكى لظهور ضعف الملك لسكانها بجلاء ووضوح . ففى عهد الديركتوار انتخبت ٤٩ مديريةية نواباً ملكيين ، وقد ساعدت تلك المشاعر الملكية التى كبحت الثورة جماعها بعد ملاحم كثيرة على نجاح نابليون بونابرت الذى جاء ليستولى على عرش الملوك السابقين وليعيد جزءاً كبيراً من النظام السابق

(١) أورد ميشله الحادث الآتى الذى وقع فى عهد لويس الخامس عشر دليلاً على محبة الامة الوراثى للملكها :

« علم الناس فى باريس ليلاً أن لويس الخامس عشر الذى ذهب ليلعق بالجيش مرض فى ميس فتركوا مضاجعهم وساروا فى بلبسة الى حيث لا يعلمون ، ثم فتحت أبواب الكنائس فى منتصف الليل وأخذ القوم يتجمعون فى مفارق الطرق ويقترّب بعضهم من بعض ويتساءلون عن النبأ من غير أن يتعارفوا ، وقد كان بكاء الكهنة يقطع ما كانوا يقرأونه من الادعية لشفاء الملك والجمهور يحجبهم بنحيبه وعويله ، ولما جاء الرسول الذى أتى بخبر إبلال الملك عانقه الناس وقبلوا حصانه وساروا به سيرهم بالنأزى الظافر ودوت الشوارع من هتافهم « شفي الملك » .

الفصل الثالث

الفوضى النفسية أيام الثورة الفرنسية

وما نسب الى الفلاسفة من الشان

١ — مصدر المبادئ الثورية وانتشارها

٢ — تأثير فلاسفة القرن الثامن عشر في تكوين الثورة الفرنسية ، نفورهم من الديمقراطية

٣ — مبادئ الطبقة الوسطى الفلسفية أيام الثورة الفرنسية

١ — مصدر المبادئ الثورية وانتشارها

حياة الانسان الظاهرة عنوان حياة خفية نشأت عن التقاليد والمشاعر . فالحياة الخفية هي التي ترشد الانسان وتحدث فيه مبادئ مهمة ، وإذا أصاب هذه المبادئ . وهن فان مبادئ أخرى تنبت في مكانها .

والغاية من هذه الملاحظات هو تنبيه القارىء الى أن ما تأتى به الثورات من الحوادث الظاهرة هو نتيجة نشوء خفى وقع في النفوس شيئاً فشيئاً والى أن البحث الدقيق في إحدى الثورات يتطلب فحص البقعة النفسية التي نبتت فيها مبادئ هذه الثورات .

يظل نشوء المبادئ التدريجي خفياً مدة جيل واحد في الغالب ، ولا يمكن إدراك اتساع دائرته إلا بقياس ما عند الطبقات الاجتماعية من الأحوال النفسية في أول الجيل وآخره ، فيجب للاطلاع على الأفكار المختلفة التي كان ينظر بها العلماء الى الملكية في عهد لويس الرابع عشر ولويس السادس عشر أن نقابل نظريات بوسويه بنظريات تورغو السياسية ، إذ ذلك نرى أن بوسويه الذى كان يقول إن سلطة الحكومة مستمدة من الله الذى يحاسب الملوك وحده وإن الملوك غير مسؤولين امام الناس كان يعبر عن ايمان الناس

بالملكية المطلقة إيماناً دينياً . ونرى أن ما كتبه الوزراء المصلحون ، كالوزير تورغو . كان مشبعاً من روح أخرى تعترف بحق الأمة دون حق الملوك الألهى .
والحوادث التى أوجبت هذا التحول كثيرة ، منها الحروب والقحط والضرائب والبؤس العام الذى وقع فى آخر عهد لويس الخامس عشر ، فقد أقامت هذه الحوادث مقام احترام سلطة الملك التى تزعزت بالتدريج ثورة فى النفوس مستعدة للظهور عند سnoch أول فرصة .

ومتى يبدأ المزاج النفسى فى الانحلال لا يلبث أن يتم انحلاله ، بهذا نفسر سرعة انتشار كثير من المبادئ بين الناس أيام الثورة الفرنسية . فهذه المبادئ التى لم تكن حديثة لم يظهر تأثيرها قبل حدوث تلك الثورة لعدم مصادفتها بيئة صالحة وبتعبير آخر إن المبادئ التى استهوت الناس أيام الثورة الفرنسية ردها البشر كثيراً فى الماضى . فهى التى أوحى الى الانكليز خططهم السياسية فيما مضى ، وقد دافع علماء اليونان واللاتين منذ الفئ سنة عن الحرية لاعتين المستبدين معلنين مالمسلطة الشعبية من الحقوق . ومع أن أبناء الطبقة الوسطى تعلموا جميع هذه المسائل كأبائهم فى الكتب المدرسية لم تحرك ساكنهم لبعده الوقت الذى تستطيع أن تهيجهم فيه ، وكيف تؤثر فى الأمة فى زمن تعودت فيه احترام المراتب ؟

وتأثير الفلاسفة فى حدوث الثورة الفرنسية غير ما يعزى اليهم ، فهم لم يكتشفوا شيئاً جديداً ، وإنما انموا روح الانتقاد التى لا تقاومها المعتقدات عندما تبدأ فى الانحلال ، وقد نشأ عن نمو روح الانتقاد تدرج الناس الى ازدياد ما كان محترماً ، ومتى اضمحلت التقاليد والحرمان سقط البنيان الاجتماعى بغيره .

أثر الفلاسفة فى الطبقات المتعلمة ، وعجزوا عن التأثير فى الشعب الذى يقتدى ولا يبتدع . فقد كان أكثر المصلحين حماسة فى ذلك الزمن من أصحاب الثروة ، وكان الأشراف ينشطون الى مباحث العقد الاجتماعى وحقوق الانسان ومساواة الوطنيين ويهتفون للروايات التمثيلية المنتقدة أصحاب الرتب العالية واستبدادهم وعدم أهليتهم .

ومتى يفقد الناس ثقتهم بأركان المجتمع يعمهم اضطراب فاستياء فتشعر طبقات المجتمع بزوال العوامل التى كانت تسيروها .

نعم لم تكف روح النقد فى الكتاب والأشراف لزعة أنقال التقاليد ، ولكن

تأثيرها دعم بمؤثرات قوية أخرى ، فقد قلنا آنفاً إن الحكومة الدينية والحكومة المدنية في الدور السابق كانتا موصولتين إحداهما بالأخرى وصلاً وثيقاً فكان صدم الأولى يصيب الثانية بحكم الضرورة ، والآن نقول إن التقاليد الدينية عاقبت نفوس المتعلمين قبل أن يتزعزع المبدأ الملكي ، وذلك بسبب تقدم العلم الذي أوجب انتقال النفوس من عالم اللاهوت الى عالم العلم .

فالنظر ، بفعل هذا النشوء ، كان يشعر بأن التقاليد التي قادت الناس قروناً كثيرة ليست ذات قيمة وأن من الضروري تبديلها ، ولكن أين كان يبحث عن عصا السحر القادرة على إقامة بنيان اجتماعي جديد مقام البنيان السابق ؟

وقع الاجتماع على وصف العقل بالقدرة التي خسرتها الآلهة والتقاليد ، وهل كان يشك في قدرته على تحويل المجتمعات وهو الذي كثرت اكتشافاته ؟ هكذا عظم شأن العقل في النفوس وتضائل شأن التقاليد .

والمبدأ الذي أسند تلك القدرة الى العقل وأوقد نار الثورة الفرنسية وسيرها من أولها إلى آخرها هو الذي استعان به الناس على تحطيم قيود الماضي وإقامة مجتمع جديد . ويلخص ما هبط ببطء إلى الشعب من نظريات الفلاسفة أن جميع ما عد في الماضي محترماً أصبح غير جدير بالاحترام وأنه لم يبق محل لاطاعة السادة السابقين وعدم تعدى الحدود .

كانت مجاوزة الناس للحدود أول نتيجة لهذه النفسية الجديدة ، فقد ذكرت مدام فيجيلبران أن العوام كانوا يرتقون في منزله لونشان الى مراقي العربات قائلين : «ستكونون في العام القادم خلفنا ونكون نحن في العربات » .

لم يكن أمر مجاوزة الحدود والاستياء خاصاً بالعوام بل كان شاملاً للجميع قبيل الثورة الفرنسية ، قال تايين :

« كان صغار الكليروس حاقدين على كبارهم وكان أشرف الولايات حاقدين على الأشراف المقربين ، وكان صغراء الامراء الاقطاعيين حاقدين على كبارهم وكان سكان القرى حاقدين على سكان المدن . »

ثم استولت تلك الحال النفسية ، التي انتقلت من الأشراف والاكليروس الى الشعب ، على الجيش أيضاً . قال نيكرو حين افتتاح مجلس النواب « لسنا واثقين بالجيش » ، أما

الضباط فاصبحوا من أنصار المذهب الانساني وأخذوا يشتغلون بالفلسفة ، وأما الجنود وإن لم يشتغلوا بالفلسفة ، فكانوا لا يطيعون ، وذلك لدلالة مبادئ المساواة في مداركهم السخيفة على بطلان الرأسة والطاعة .

وبعد أن استولت الفوضى النفسية على طبقات المجتمع ، ومنها الجيش ، أوجبت زوال النظام السابق ، قال ريفارول :

« إن الذي قضى على الملكية هو تخلى الجيش عن الملك وانتحال الجيش مبادئ الطبقة الثالثة . »

٢ — تأثير فلاسفة القرن الثامن عشر في تكوين الثورة الفرنسية ، نفورهم من الديمقراطية .
يجب أن لا يعد الفلاسفة ، الذين ظن أنهم نفخوا في الناس روح الثورة ، أشياء للحكومة الشعبية ، وإن قاتلوا بعض الأوهام والعادات السيئة ، فقد كانوا يمتقنون الديمقراطية التي بحثوا عن شأنها في تاريخ اليونان لعلمهم ما تجر وراءها من التخريب والاضطهاد ، وهي التي عرفت في زمن اريسطو : « بأنها حكومة تناط فيها القوانين وكل أمر بعوام يعتبرون أنفسهم من الجبارة ويسرون كما يريد بعض المشاغين »
واليك ما قاله بطرس بيل ، وهو الذي يعتبر بحق سلفاً لفولتير ، عن الحكومة الشعبية في أثينا :

« عندما يقرأ الانسان تاريخ مجالس اثينا وانقسام أحزابها وقتها واضطهاد أشرفها وقتلهم ونفيهم ، كما كان يريد أحد الخطباء المشاغين ، يحكم بان ذلك الشعب الفخور كان بالحقيقة عبداً لفئة من الثرثارين المحتالين الذين كانوا يقبلونه كأنه ريشة في مهاب الريح ، ولو بحث عن تاريخ مكدونية الملكية ما وجدت فيه أمثلة ظلم واستبداد كما وجد في اثينا . ولم يكن رأى مونتسكيو في الديمقراطية أقل من ذلك ، فقد دل بعد أن وصف أشكال الحكومة الثلاثة — أي الجمهورية والملكية والمستبدة — على ما تؤول اليه الحكومة الشعبية بالكلمات الآتية وهي :

« كان الناس أحراراً في ظل القوانين فصاروا يرون الحرية في مخالفة القوانين ، وأصبحوا يسمون ما هو حكمة سخافة وما هو مبدءاً عسراً ، وكان ما يدخل بيت المال من الأموال يجمع من الافراد فاصبح بيت المال ملكاً للافراد ، فالجمهورية إذن ليست سوى جثة مستمدة قوتها من قوة بعض الناس . »

« يظهر في الحكومة الشعبية ، أى الجمهورية ، جبايرة صغار فيهم مافى الجبار الكبير من النقائص ، ومتى يصبح أمرهم لا يطاق يقبض على زمام الحكم جبار واحد فيخسر الشعب كل شئ » .

« لذلك وجب اجتناب ما تجر اليه الديمقراطية من المغالاة في المساواة المؤدية الى الحكم المطلق فالى غزو الاجنبى للبلاد » .

والحكومة الانكليزية الدستورية المانعة للملكية من التحول الى حكومة مستبدة هي مثل مونتسكيو الأعلى ، غير أن تأثير هذا الفيلسوف في الثورة الفرنسية كان ضعيفاً جداً . وأما واضعو دائرة المعارف فلم يمارسوا السياسة قط ، وربما استثنينا منهم أولئك الذى كانت مثل فولتير وديدرو ملكياً متمذهباً بمذهب الحرية ، فهؤلاء الثلاثة الذين كانوا يدافعون ، على الخصوص ، عن الحرية الشخصية ويقاثلون الكنيسة عدوة الفلاسفة لم يكونوا اشتراكين أو ديمقراطيين ولهذا السبب لم تنتفع الثورة الفرنسية بشئ من مبادئهم .

كان فولتير قليل التشيع للديموقراطية ، فقد قال :

« أرى الديمقراطية لا تلائم إلا بلاداً صغيرة . فالبلاد الصغيرة التى تتمتع بالحكم الديموقراطى ، وإن وقع فيها كثير من الزلات ، كما فى أديار الرهبان ، لا تقع فيها ملاحم كملحمة سان بارتلى ولا مذابح كمدابح ايرلندة وصقلية ومحكمة التفتيش ولا يحكم فيها بالاشغال الشاقة على من يغترف من البحر ماء لا يؤدى ثمنه . وتكون تلك الجمهورية غير ذلك إذا تألفت من الشياطين فى ناحية كبيرة من نواحي الجحيم » .

إذن كانت أفكار هؤلاء الذين ظن أنهم هيأوا الثورة الفرنسية قليلة الهدم ومن الصعب أن يعزى اليهم تأثير كبير فى سيرها .

ويمكننا أن نشك فى ميول روسو الديمقراطية . فهو يرى أن خططه فى تجديد المجتمع على أساس السيادة الشعبية لا تلائم غير عدد قليل من البلدان ، وعندما طلب اليه البولونيون أن يرسم لهم دستوراً ديمقراطياً نصحهم بأن ينتخبوا ملكاً وراثياً .

واكثر نظريات روسو انتشاراً هى نظريته التى فصلها فى كتاب العقد الاجتماعى وادعى فيها مع كثير من رجال عصره أن الرجل الفطرى كان كاملاً لم تفسده المجتمعات

وأنه إذا تغيرت المجتمعات بما يسن من القوانين عادت سعادة الأجيال الأولى وأن الناس كلهم متماثلون في كل زمان ومكان وأنه يجب أن تسن قوانين واحدة وأنظمة واحدة ، ويظهر أن اعتقاد الناس في ذلك الحين كان كاعتقاد روسو . فاسمع ما قاله هلفيسوس : « تشق فضائل الأمة وتقاؤها من قوانينها ، وهل يشك في أن الفضيلة عند الأمم جميعها هي نتيجة حكمة القابضين على زمام الأمور ؟ »

٣ — مبادئ الطبقة الوسطى الفلسفية أيام الثورة الفرنسية

مع أنه يصعب تعيين مبادئ الطبقة الوسطى الفلسفية والاجتماعية أيام الثورة الفرنسية يمكن ردها الى بضع قواعد ملخصة في بيان حقوق الانسان .

ويظهر أن فلاسفة القرن الثامن عشر لم يؤثروا في أبناء الطبقة الوسطى كثيراً ، إذ لم يستشهد هؤلاء أيام الثورة الفرنسية بأولئك إلا قليلاً . وإنما سحر خواطر اليونان والرومان لهم كان يدفعهم الى مطالعة كتب أفلاطون وبلوتارك ولهذا السبب كانوا يودون نشر دستور اسبارطة وعاداتها وتكشفها وقوانينها .

ولم يقل أبناء الطبقة الوسطى الذين قاموا بالثورة الفرنسية ، وهم الذين عدّهم الناس من المبتدعين الجاسرين السائرين على نهج الحكماء ، إنهم ابتدعوا شيئاً ، بل أعربوا عن رغبتهم في الرجوع الى ماض بعيد ، ولم ينظر عقلاؤهم الى ما كان في القرون الخالية بعين الجد . فقد فكروا في انتحال نظام انكلترة الدستورى الذى امتدح مونتسكيو وفولتير منافعه ونسجت الأمم على منواله في نهاية الأمر من غير ثورة . حقاً كان يطعم أولئك في إصلاح النظام الملكى لا في هدمه . غير أن المناهج التى سلكت أيام الثورة اختلفت عما اقترحوه من الطرق والأساليب .

الفصل الرابع

الأوهام النفسية أيام الثورة الفرنسية

١ - الروح الشعبية وأوهام الناس في الانسان الفطرى وفي الرجوع الى الحالة الفطرية .

٢ - أوهام الناس في قوة القوانين وفي إمكان فصل الانسان عن ماضيه .

٣ - أوهام الناس في قيمة المبادئ الثورية .

١ - الروح الشعبية وأوهام الناس في الانسان الفطرى وفي الرجوع الى الحالة الفطرية .

قلنا سابقا ، ونعود فنقول ، إن خطأ المذهب لما كان غير ضار بانتشاره فإن تأثيره هو الذى يجب البحث فيه . وعلى الفيلسوف الذى يود أن يكتشف كيفية تأثيره في الناس أن يبحث في الأوهام المحيطة بهم ، وربما لم تكن الأوهام كثيرة كما كانت أيام الثورة الفرنسية .

ونعد من أشد الأوهام ظهوراً التصور الغريب الذى تصور به الناس طبيعة أجدادنا الأولين وطبيعة المجتمعات الأولى . فقد اعتقد الناس في ذلك الحين ، كما جاء في الاسرائيليات ، أن الله خلق الانسان كاملاً وأن المجتمعات كانت مثلاً علياً وأن الحضارة أفسدتها وأنه يجب العود إليها ، ولم يلبث مبدأ الرجوع الى الحالة الفطرية أن أصبح عاماً . قال روسو : « إن مبدأ الأخلاق الأساسى الذى بحثت عنه في مؤلفاتى يدل على أن الانسان طيب بفطرته يحب للعدل والنظام ،

إلا أن العلم الحديث بحث عن طرق الحياة عند أجدادنا الأولين فأثبت فساد ذلك المذهب دالاً على أن الرجل الفطرى كان وحشاً شرساً بعيداً من خلق الرفق والأدب والرحمة وأن اندفاعاته الغريزية كانت تسوده فكان يثب على فريسته عند الجوع وكان يقتل عدوه عندما يثيره الحقد .

ولا تعيد الحضارة الانسان الى الحالة الفطرية ، بل تساعد على الخروج منها ، فقد حوّل العاقبة المجتمع المتمدن الى قوم متوحشين عندما أرجعوه ، بكسرهم زواجهم المجتمع التي لا تقوم حضارة بدونها ، الى الحالة الفطرية .

ونعذر من أخطأ في تصور الحال التي كان عليها أجدادنا الأولون . فقد كانت طرق حياتهم مجهولة قبل الاكتشافات الحديثة . ولكن لا نرى ما يسوغ جهل فلاسفة القرن الثامن عشر ومشرعي الثورة الفرنسية نفسية معاصريهم . فقد عاشوا بين معاصريهم من غير أن يدركوا حقيقة أمرهم أو أن تخطر الروح الشعبية بياهم ، فكانوا يظنون أن العالمى رجل طيب ودود شاكر مستعد للاستغناء الى العقل ، وقد دلت خطب أعضاء المجلس التأسيسي على تمكن هذه الأوهام منهم ، فلما أخذ الفلاحون يحرقون القصور دهشوا من ذلك كثيراً فخطبوا بكلام رقيق سألوهم فيه أن يكفوا عن عملهم لكيلا يحزنوا مليكهم المحبوب وناشدوه أن يشدهوه بفضائلهم .

٢ — أوهام الناس في قوة القوانين وفي إمكان فصل الانسان عن ماضيه .

نعد من المبادئ التي اتخذت أساساً لأنظمة الثورة الفرنسية مبدأ فصل الانسان عن ماضيه ومبدأ إمكان تجديد المجتمع بالأنظمة ، فقد اعتقد المشترون في ذلك الحين أن الماضي ، ماعد القرون الخالية البعيدة ، مشبع من الخرافات والاضاليل فزعموا على قطع كل صلة به . ودونوا لاطهار مقصدهم تاريخاً جديداً ونقويماً جديداً بمبدلين أسماء الشهور والفصول . وأوجب توهيمهم أن الناس أ كفاء ظنهم أنهم قادرون على الاشتراع للبشر كلهم . قال كوندنسي : « إن القانون الحسن نافع لكل الناس . »

وما علم مشرعو الثورة الفرنسية أن وراء ظواهر الأمور عوامل خفية تسيورها ، وأن الانسان مرتبط بـماضيه كثيراً . وهم لجهلهم فعل الماضي أرادوا القضاء عليه فقضى عليهم .

كان ايمان المشتريين بقوة النظم والقوانين تاماً أيام الثورة الفرنسية . قال غريغوار في المجلس التأسيسي : « إننا لقادرون على تغيير الدين ، ولكننا لا نريد ذلك » . والواقع أنهم أرادوا ذلك ، ولكن من غير توفيق . فهم لم يلبشوا أن انكشف عجزهم ، بعد كل ما أتوا به في عشرين سنين ، من اضطهاد وتخريب وحرق ومذابح ، في سبيل الزام الناس بعض القوانين انكشافاً حوّل وجوه الناس عنهم فاضطر نابليون الى ترميم اكبر جانب مما هدموه .

وللتجربة العظيمة التي قام بها هؤلاء اليعاقبة في سبيل تجديد المجتمع باسم العقل فائدة كبيرة ، قد لا تسمح الأحوال للانسان أن يعيدها مرة أخرى . ويظهر أنها ، على رغم قسوتها ، غير كافية لتحذير كثير من الناس ، فها نحن الآن نرى الاشتراكيين يقترحون تجديد المجتمع برمته حسب خططهم الوهمية .

٣ — أوهام الناس في قيمة المبادئ الثورية

إن مبادئ الحقوق الأساسية التي قامت عليها الثورة الفرنسية مذكورة في بيانات حقوق الانسان الثلاثة التي نشرت بالتتابع في سنة ١٧٨٩ وسنة ١٧٩٣ ، وسنة ١٧٩٥ . وقد صرحت كلها : « بأن السلطة للامة » .

وهذه البيانات الثلاثة تختلف في كثير من الأمور ولا سيما في المساواة ، فقد جاء في المادة الأولى من بيان سنة ١٧٨٩ : « أن الناس يولدون أحراراً ويعيشون أحراراً ، وهم متساوون حقوقاً » . وجاء في المادة الثالثة من بيان سنة ١٧٩٣ : « أن الناس متساوون طبيعة » : وجاء في المادة الثالثة من بيان سنة ١٧٩٥ ، وهو أكثر اعتدالاً من سابقه ، : « أن المساواة هي كرون القانون واحداً لكل » ، وبعد أن تكلم واضعو هذا البيان الأخير عن الحقوق رأوا أن النص فيه على بعض الواجبات مفيد فشابه الانجيل في مواعظه ، جاء في المادة الثانية منه : « أن واجبات الانسان والوطنى كلها تنشأ عن مبدأين طبيعتهما الطبيعة على القلوب وهما : « لا تعامل الناس بما لا تحب أن يعاملوك به وعاملهم بما تحب أن يعاملوك به » ، والذي بقى من تلك البيانات هو مبدأ المساواة ومبدأ السلطة الشعبية .

لشعار الجمهورى أى « الحرية والمساواة والاخاء » شأن كبير مع ضعف قيمته العقلية . ولهذا الشعار الساحر الذى نقش على جذرنا قدرة عظيمة تعدل القدرة التي يعزوها السحرة الى بعض الألفاظ . وما القاء من الآمال في القلوب سهل انتشاره . وقد ضحى ألوف الناس بأنفسهم في سبيله . والآن إذا اضطربت ثورة في العالم فان رجالها يستنجدون به .

حقاً إنهم يجيدون الاختيار ، فالشعار المذكور من الأمثال المبهمة الساحرة للنفوس والتي يفسرها كل امرئ حسب ذوقه وحققه وخياله . ففى أمر الايمان لا شأن لمعنى الألفاظ الحقيقى ، وما سر قوة هذه الألفاظ إلا بما يعزى اليها من القدرة .

ومبدأ المساواة هو أكثر مبادئ الشعار الثورى دوماً . فسرى في مكان آخر أن هذا المبدأ وحده هو الذى ظلّ باقياً على وجه التقريب وأن نتائجه لم تزل بادية للعيان . ولم تكن الثورة الفرنسية هى التى علمت العالم مبدأ المساواة ، ولا نحتاج لإثبات ذلك إلى التنقيب فى الجمهوريات اليونانية القديمة . فالنصرانية والاسلام قد أرشدا الناس الى هذا المبدأ ، ويان ذلك أن الناس متساوون فى هاتين الديانتين . وهم عباد إله واحد ، ولا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالتقوى .

ولكن إعلان المبدأ لا يكفى لمحافظة الناس عليه . فالكنيسة النصرانية لم تلبث أن عدلت عن مبدأ المساواة النظرى . ولم يعبأ به زعماء الثورة الفرنسية إلا فى خطبهم .

ويختلف معنى المساواة باختلاف الناس . فمبدأ المساواة عند بعضهم يدل على رغبة الانسان فى أن لا يرى فوقه أحداً وأن يكون كل امرئ دونه . وهو عند يعاقبة الثورة الفرنسية ويعاقبة الوقت الحاضر يتم على مقت كل أفضلية والسعي إلى إبطال الافضليات بانكار التفاوت الطبيعى وتوحيد العادات والأوضاع والأزياء والمراتب .

وهذا لا يمنع من القول إنه كان ينطوى تحت تعطش زعماء الثورة الفرنسية الى المساواة رغبة فى التفاوت . وقد أدرك نابليون ذلك فأحدث ألقاب شرف وأوسمة لهم ، قال تايين :

« اكتشف نابليون تحت كلمة الحرية وكلمة المساواة اللتين كانت أفواههم تلوكنهما ميلهم الى السيادة ورغبتهم فى الأمر والنهى والتفوق ، وقد رأى أن أكثرهم يطمع فى المال والترف وأنه لا فرق فى ذلك بين النائب فى لجنة السلامة العامة والوزير وبين والى ونائبه ، والرغبة فى مبدأ المساواة هى تراث الثورة الفرنسية الدائم . وأما مبدأ الحرية ومبدأ الإخاء اللذان اكتنفا مبدأ المساواة فى الشعار الجمهورى فتأثيرهما ضعيف ، ولم ينفعا أيام الثورة الفرنسية وفى العهد الامبراطورى إلا فى تزويق الخطب ، وما زاد تأثيرهما بعد ذلك قط ، فالامم لا عهد لها بمبدأ الإخاء فى زمن . ولم تبال بمبدأ الحرية إلا قليلا . وقد تركه العمال فى الوقت الحاضر لنقاباتهم . والخلاصة إن تأثير الشعار الجمهورى لم يكن فى غير الظاهر وأنه لم يبق من الثورة الفرنسية فى نفوس الشعب سوى تلك الألفاظ الثلاثة المشهورة المجملة لا ينجليها . وقد نشرت هذه الألفاظ فى أنحاء أوربة بجيوشها كما هو معلوم .

الباب الثاني

تأثير العقل والعاطفة والتدين والاجتماع

أيام الثورة الفرنسية

الفصل الأول

روح المجلس التأسيسي

- ١ — المؤثرات النفسية أيام الثورة الفرنسية .
 - ٢ — انقضاء العهد السابق — اجتماع مجلس النواب .
 - ٣ — المجلس التأسيسي .
-

١ — المؤثرات النفسية أيام الثورة الفرنسية

أثرت في تكوين الثورة الفرنسية وفي دوامها عناصر نفسية وعاطفية ودينية واجتماعية تابع كل واحد منها لمنطق خاص ، ونشأ عن عدم التفريق بين هذه المؤثرات أن فسر كثير من المؤرخين ذلك الدور تفسيراً سيئاً .

كان عمل العقل الذي اتخذ للتفسير والايضاح ضعيفاً ، فهو وإن أعد الثورة الفرنسية لم يبد تأثيره إلا في أوائلها ، أي أيام كان أمرها في قبضة أبناء الطبقة الوسطى الذين وضعوا لوائح إصلاح الضرائب والغاء امتيازات الأشراف الخ .

وعند ما تغلغلت الثورة المذكورة في الشعب تقهقر عنصر العقل أمام عناصر العاطفة والاجتماع ، ودفع عنصر التدين الجيوش الى التعصب وأوجب انتشار المعتقد الجديد في العالم .

وربما كان العامل الديني أهم تلك المؤثرات . فلا يمكن ادراك الثورة الفرنسية ، الا اذا اعتبرنا تكوينها مثل تكوين الثورات الدينية كشورة الإصلاح الديني مثلاً .

حاول الفلاسفة زمناً طويلاً إثبات ما للمعتقدات من القيمة العقلية الضعيفة . والآن أخذوا يفسرون شأنها تفسيراً أتم واحسن . فاضطروا الى الاقرار بانها ذات تأثير كاف لتغيير عناصر الحضارة .

تسخر المعتقدات الناس غير مستعينة بالعقل . وعندها من القدرة ما يكفي لتحويل الأفكار والمشاعر نحو غرض واحد . ولا تضاهي قوة العقل المطلق قوتها ، فليس هو الذي يلقي الحمية في قلوب الناس .

ويوضح لنا اللباس الديني الذي لبسته تلك الثورة قوة انتشارها وما لها من النفوذ في الحال والماضي . والمؤرخون الذين اعتبروا هذا الحادث العظيم ديناً جديداً قليلون . وأظن أن توكفيل هو أول من اتبه لذلك . فقد قال : « إن الثورة الفرنسية ثورة سياسية سارت على نمط الثورات الدينية وتوغلت مثلها في البلاد بالدعوة والارشاد . »

وإذا ثبت لدينا ما في الثورة الفرنسية من عنصر ديني سهل علينا إيضاح ما أوجبه من هياج وتخريب وعدوان وعدم تسامح وحروب وفناء . فقد أثبت التاريخ أن هذه الأمور من عاداتها أن تنشأ عن المعتقدات .

وعنصر الدين هو دعامة المعتقدات . ولا يلبث أن ينضم اليه ما ينشأ عن عنصر العاطفة من مشاعر وأهواء ومنافع . ثم يأتي العقل فيكتشف ذلك كله ليسوغ حوادث لم تنشأ عنه قط .

فقد كان كل إنسان أيام الثورة الفرنسية يلبس المعتقد الجديد ثوباً عقلياً مختلفاً باختلاف رغائبه . فرأت الأمم فيها إلغاء ما كابدته من سلسلة مراتب واستبداد ديني وظلم سياسي . وظن الكتاب ، مثل غوته ، والفلاسفة ، مثل كانت ، انهم اكتشفوا فيها اتسار العقل . وأتى الأجانب ، مثل هومبولت بلاد فرنسة ليستششقوا فيها نسيم الحرية ويشاهدوا جنازة الظلم والاستبداد .

غير أن هذه الأوهام لم تدم طويلاً . فقد انكشف الغطاء بسرعة عن حقيقة تلك الرواية المحزنة .

٢ — انقضاء العهد السابق — اجتماع مجلس النواب

قبل أن تنشب الثورات تتكون في عالم الفكر . والثورة الفرنسية التي أعدها الأسباب المذكورة آنفاً بدأت تظهر في أيام لويس السادس عشر حين كان أبناء الطبقة الوسطى يكثر من طلب الإصلاح .

واطلع لويس السادس عشر على ما في الإصلاح من فوائد . ولكنه عجز لضعفه عن إلزام الأشراف والاكليروس بالإصلاح كما أنه عجز عن تأييد وزرائه المصلحين كمالزرب وتورغو .

أوجبت المجاعات شقاء الناس وزيادة الضرائب فدعى الأعيان ليعالجوا الأزمة المالية فرفضوا المساواة في الضرائب ولم يسلموا إلا بإصلاح زهيد لم يرض به البرلمان باريس أن يسجله فانفض ، وشاطرته برلمانات الولايات رأيه فانفضت أيضاً . إذ ذاك استصرخت هذه البرلمانات الرأي العام على مطالبة الحكومة بدعوة مجلس النواب الذي لم يجتمع منذ قرنين .

وافقت الحكومة الرأي العام على ذلك فانتخب الناخبون « وعددهم خمسة ملايين منهم ١٠٠.٠٠٠ ناخب من الاكليروس و ١٥٠.٠٠٠ ناخب من الأشراف » الفأ ومثي ناخب . ومن هؤلاء النواب ٥٨٧ كانوا يمثلون الطبقة الثالثة . ومنهم ٣٠٠ كانوا يمثلون الاكليروس .

وقد بدت منذ الاجتماعات الأولى اختلافات روحية بين أولئك النواب . فلما ستر نواب الأشراف والاكليروس في الاجتماع الأول رؤوسهم أمام الملك حسب امتيازاتهم وأراد نواب الطبقة الثالثة تقليدهم احتج أولئك على هؤلاء . ولما دعا نواب الطبقة الثالثة نواب الأشراف والاكليروس المجتمعين في ردهتين بعيدتين الى اجتماع مشترك لكي يفحصوا وثائق النيابة رفض الأشراف ذلك . عندئذ اعتبر نواب الطبقة الثالثة أنفسهم ممثلين لـ ٩٥ في المئة من مجموع الأمة بناء على اقتراح الشماس سيابس . وهكذا لاحت بوادر الفتنة .

٣ — المجلس التأسيسي

أخذ مجلس النواب منذ البداية يقول ويفعل قول الأمر الناهي وفعله . ثم ادعى ان وضع الضرائب من خصائصه فاعتدى بذلك على حقوق الملك .

وقد كانت مقاومة لويس السادس عشر ضعيفة فاكتمى باغلاق ردهة مجلس النواب فاجتمع النواب في ردهة (جودوبوم) حيث أقسموا أنهم لا يتفرون قبل أن يسنوا دستوراً للمملكة . ثم انضم اليهم اكثر نواب الاكليروس . وقد نقض الملك قرار المجلس فامر النواب بالانصراف . وعندما دعا رئيس الحجاب المركزي (دو دروبريزي) النواب الى العمل بامر الملك صرح رئيس المجلس « بان الأمة وهي مجتمعة لا تتلقى أمراً من أحد ، وخاطب ميرابو رسول الملك قائلاً : « ان المجلس الذي اجتمع بامر الأمة لا تفرضه إلا قوة الحراب » ، حينئذ أذن الملك . وفي اليوم التاسع من يونيو سعى النواب مجلسهم المجلس التأسيسي وهكذا اعترف الملك بسلطة جديدة كانت مجهولة في الماضي . أي بسلطة الأمة التي يمثلها نوابها . فطويت بذلك صحيفة الملكية المطلقة .

ولما أحس لويس السادس عشر انه في خطر دائم أقام في أطراف فرساي كتاب من مرتزة الأجانب . فطلب اليه المجلس أن يسرحها فامتنع وعزل نيكر وأقام في مكانه المرشال دوبروغلي المشتهر بحزمه وعند ذلك قام كاميل ديمولان وغيره من الخطباء يعظون الجماعة ويدعونها الى الدفاع عن الحرية ثم قرعوا النواقيس تهبجاً للناس ، وجندوا ١٢٠٠٠ جندي واستولوا على مستودع البنادق والمدافع وساقوا عصابات مسلحة في ١٤ يوليو الى الباستيل فسلم هذا الحصن بعد دفاع استمر بضع ساعات .

كان الباستيل الذي هو سجن كثير من ضحايا الظلم رمز الاستبداد الملكي ، ولكن لم يوجد ما يجعل الشعب الذي هدمه يتألم منه . إذ لم يعتقل فيه سوى الاشراف . واستمر تأثير الاستيلاء على قلعة الباستيل حتى اليوم ، فاليك ما قاله المؤرخ الكبير مسيورامبو . « إن الاستيلاء على الباستيل حادث عظيم . لا في تاريخ فرنسة وحدها بل في تاريخ أوربة كلها . إذ إنه فتح دوراً جديداً في تاريخ العالم . »

في هذا القول البسيط شيء من المبالغة . فقيمة ذلك الحادث أنه أعطى الشعب أول مرة مثالا واضحا على وهن سلطة الملك التي كانت تخيفة . ومتى تزلزل مبدأ السلطة انحل سريعا ، وما هو الشيء الذي لا يطلب من الملك العاجز عن الدفاع عن حصنه الخاص إزاء حملات الشعب ؟ هكذا أصبح السيد ذو الحول والقوة في الماضي ، لا يقدر على شيء .

وبعد الاستيلاء على الباستيل أخذت علامات التمرد تظهر على مرتزة الاجانب فرضى

لويس السادس عشر بتسريحهم. ثم استدعى نيكروثاوية وذهب الى دار البلدية فاستصوب الأمور التي وقعت واستحسن الراية الجديدة ذات الألوان الثلاثة (الأزرق والأبيض والأحمر) التي أتى بها قائد الحرس الوطني لا فايت والتي كانت تجمع بين راية الملك وراية مدينة باريس .

وبدلتنا الاستيلاء على الباستيل على الوقت الذي شرع الشعب فيه يقبض على ناصية الحكم ، فقد أخذت مداخلة الشعب المسلح تظهر بعد ذلك الاستيلاء في مذاكرات المجالس الثورية .

وقد عجب كثير من مؤرخي الثورة الفرنسية لهذه المداخلة وحدثوا عنها باحترام ، فلو بحث هؤلاء ، بحثاً سطحياً على الأقل ، عن روح الجماعات لرأوا أن الشعب لم يفعل غير ما أراد به بعض الزعماء وأن من الخطأ قولهم : إن الشعب استولى على الباستيل وهجم على التويلري واحتل مجلس العهد الخ . فالقول الحق هو : أن بعض الزعماء جمعوا بواسطة الأندية عصابات من الشعب ساقوها الى الباستيل والتويلري الخ . وأن هذه الجماعات نفسها هي التي هجمت أيام الثورة الفرنسية على أشد الأحزاب اختلافاً ودافعت عنها حسب أهواء الزعماء . ولم يكن للجماعات غير رأى رؤسائها .

+ وبفعل التلقين عقب الاستيلاء على الباستيل تخريب حصون أخرى . فاعتبر الفلاحون كثيراً من القصور باستيلات صغيرة وطفقوا يحرقونها مقتدين بـ سكان باريس وكان غضبهم يشتد كلما وجدوا في تلك القصور صكوكاً إقطاعية .

والمجلس التأسيسي الذي أظهر غطرسة أمام الملك كان كثير الجبن ازاء الشعب . فقد وافق بالأجماع في الليلة الرابعة من شهر اغسطس على اقتراح الشريف الكونت دونواي القائل بالغاء حقوق الأمراء الإقطاعيين راجياً بذلك ختام المشاغبة . وقد تمت هذه الموافقة الإجماعية التي ألغيت بها امتيازات الأشراف دفعة واحدة وأعضاء المجلس يتعاقبون باكين من شدة الفرح . ويتضح لنا مثل هذا العارض الحماسي عند النظر الى فعل العدوى النفسية في الجماعات ولا سيما في المجالس التي استحوذ عليها الخوف .

ولو أطلع الأشراف عن امتيازاتهم قبل ذلك بيضع سنين لاجتنبت الثورة الفرنسية . ولكن ما العمل وقد وقع ذلك بعد أوانه ، ولا يفيد ترك الحقوق كرهاً غير زيادة رغائب من تركت لأجلهم . فيجب في عالم السياسة كشف عواقب الأمور ومنح المطالبين طوعاً قبل أن يحل الوقت الذي تمنح فيه كرهاً . x

تردد لويس السادس عشر مدة شهرين في الموافقة على قرار المجلس التأسيسي الذي أصدره ليلة ٤ أغسطس ثم ذهب الى فرساي فساق اليه الزعماء عصابة لا تقل عن سبعة آلاف شخص فكسرت هذه العصابة حواجز القصر الملكي وقتلت بعض الحرس وجيء بالملك وأسرت الى باريس بين جماعة تصرخ وأناس يحملون على رؤوس حراهم هامات قتلى الحرس .

عظمت شوكة الشعب وأصبح الملك في قبضته . أى تحت رحمة الأندية وزعمائها ، ودامت هذه الشوكة الشعبية عشر سنين فكانت ركن الثورة الفرنسية الركين * وعلى رغم اعلان المجلس التأسيسي مبدأ سيادة الشعب جاوزت الفتن الشعبية حد ظنونه فرأى أنه بوضعه دستوراً يضمن للناس سعادة أبدية يعود الكل الى النظام .

كان سن القوانين ثم نقضها ثم تجديدها شغل المجالس أيام تلك الثورة، وكان ذلك ناشئاً عن اعتقاد أعضاء هذه المجالس أن القوانين قادرة على تحويل المجتمعات . ومن هذه القوانين البلاغ الذى نشره المجلس التأسيسي ولخص فيه مبادئه فى حقوق الانسان ريثما يضع دستور البلاد

ولم يؤثر الدستور والبلاغات والخطب فى الفتن الشعبية . وقد عانى المجلس التأسيسي الذى دب الشقاق فيه استبداد الحزب المتطرف المستند الى الأندية . فقد كان أصحاب النفوذ من الزعماء كدانتون وكاميل ديمولان ومارا وايريميجون الرعاع بخطبهم وجرائدهم فيتسلطون بذلك على المجلس التأسيسي .

ولم تحسن مالية البلاد فى أثناء هذه الفتن فأمر المجلس التأسيسي فى ٢ نوفمبر سنة ١٧٨٩ أن يعالجها بالاستيلاء على أملاك الكنيسة . وقدرت محاصيل هذه الأملاك والزكاة التى كانت تأخذها الكنيسة من المؤمنين بمبلغ مئتي مليون وقدر ثمنها بمبلغ ثلاثة مليارات . وكانت محاصيل هذه الأملاك توزع على بضع مئات من الأساقفة وكليروس البلاط فجعلت هذه الأملاك التى سميت فيما بعد الأملاك الوطنية ، ضماناً للوراق النقدية . وصدر فى المرة الأولى من هذه الأوراق اربعمئة مليون فأقبل عليها الجمهور فى البداية ولكن مقدارها زيد فى دور العهد ودور الديركتوار فبلغ ٤٥ ملياراً فأصبحت ورقة الليرة لا تساوى سوى بضعة سنتيمات

ولويس السادس عشر الضعيف أغرته حاشيته فحاول عبثاً أن لا يوافق على قرارات

المجلس التأسيسي . وانتشرت الحركة الثورية بالعدوى النفسية مستقلة عن المجلس التأسيسي ، وتألفت في المدن والقرى بلديات ثورية يخفرها حرس وطني محلي وكانت المدن المجاورة تنفق على الدفاع عن نفسها عند الحاجة . وأرسلت هذه المدن في ١٤ يوليو سنة ١٧٩٠ ، حرساً وطنياً مؤلفاً من ١٤٠٠٠ رجل الى حي شاندمارس في باريس حيث أقسم الملك يمين الاخلاص للدستور الذي سنه المجلس الوطني .

وعلى رغم هذه اليمين تعذر الائتلاف بين مبادئ الملكية الوراثية والمبادئ التي أعلنها المجلس ، فالتجأ الملك الى الفرار فقبض عليه في فارين وسبق الى باريس أسيراً فأسكن قصر التويلري ، ومنع من التصرف في سلطته ، وأخذ المجلس التأسيسي على عاتقه القيام بأمور الحكومة . وما وجد ملك في موقف حرج كموقف لويس السادس عشر ، الذي تخلى عنه الجيش ، بعد فراره ، ولو كان له دهاء ريشايو ما كفاه لخروجه من ذلك المأزق .

لا شك في أن اكثرية الأمة الفرنسية كانت ملكية أيام المجلس التأسيسي ، الذي هو ملكي أيضاً ، وكان من المحتمل أن يظل الملك قابضاً على زمام الحكم لو رضى بنظام ملكي دستوري . ولم يكن عليه إلا أن يأتي بعمل قليل ليفتاهم هو والمجلس ، ولكن هذا العمل كان يتعذر على رجل مثله . ولو رضى بتعديل النظام الملكي الذي انتقل اليه عن الآباء لانتصبت امامه أشباح أجداده وحالت دون ذلك . أضف إلى هذا أنه كان يستحيل عليه أن يتغلب على أسرته والاكليروس والأشراف والبطانة أى على الطبقات التي استند اليها النظام الملكي والتي كانت ذات قوة تضاهي قوة الملك تقريباً . والقوة هي التي كانت تغرم الملك على الازعان ، واستغاثته بالأجنبي تدلنا على أن اليأس بلغ فيه منتهاه حينما رأى تداعى أركانها الطبيعية كلها .

ولما رأى زعماء الأندية أن المجلس التأسيسي ملكي من كل وجه سلطوا عليه الشعب الذي لم يلبث أن طلب منه أن يجمع مجلساً جديداً ليحاكم لويس السادس عشر ، وعزم المجلس التأسيسي على الدفاع إزاء ذلك فساق بقيادة لافايت كتيبة من الحرس الوطني الى حي شاندمارس لتشتيت الجماعة المحتشدة هنالك .

إلا أن المجلس التأسيسي لم يصر على المقاومة طويلاً ، فقد نشأ عن شدة جنبه أمام الشعب انتزاعه كل يوم شيئاً من امتيازات الملك وسلطته ، حتى صار الملك موظفاً بسيطاً .

نعم ظن المجلس التأسيسي أنه قادر على القيام بأعباء السلطة التي انتزعها من الملك .
ولكن ذلك كان فوق طاقته . فالسلطة الكثيرة التجزئة لا عمل لها .

لم يلبث المجلس التأسيسي الذي ظن أنه قبض على مختلف السلطات وأنه يتصرف فيها على طريقة لويس الرابع عشر ، أن عجز عن العمل . وكلما ضعفت قدرته تفاسقت الفوضى . ولم يكف الزعماء طرفة عين عن تهيج الشعب فأصبحت الفتنة شاملة للبلاد كلها واستولى على المجلس كل يوم فئة من المشاعيين المتجبرين ، يملون عليه رغائبهم متوعدين منذرين .

وتلك الفتن الشعبية التي أطاعها المجلس على رغمه لم تكن غريزية بل كانت صادرة عن الأندية والجمعية الثورية ، وكان النادي يعقوبى أقوى الأندية ، وسرعان ما أسس في الولايات خمسة فرع له ، واستمر سلطانه أيام الثورة الفرنسية كلها وتسلط على فرنسا جميعها بعد تسلطه على المجلس التأسيسي ولم يزاحمه غير الجمعية الثورية التي انحصر نفوذها في باريس ، ولما صار الشعب غير راض عن المجلس التأسيسي لضعفه وعجزه أسرع هذا المجلس في إتمام الدستور الجديد لينفض بعد ذلك ، وكان المجلس المذكور سخيلاً في قراره الأخير الذي صرح فيه أنه لا حق لأعضاء المجلس التأسيسي أن يكونوا أعضاء في المجلس الاشتراعى القادم ، إذ حرم بذلك أعضاء المجلس الاشتراعى تجربة سلفهم .

تم وضع الدستور في ٣ سبتمبر سنة ١٧٩١ وفي ١٣ منه وافق عليه الملك الذي أعاد إليه المجلس سلطته ، وقد نص هذا الدستور على حكومة نيابية فعهده في السلطة الاشتراعية الى نواب ينتخبهم الشعب وعهده في السلطة التنفيذية الى ملك يحق له أن يرفض قرارات المجلس ، ثم قسم الممالك الى مديريات بدلا من تقسيمها السابق الى ولايات والغى الضرائب القديمة مقيماً في مكانها ما هو معمول به حتى الآن من ضرائب مقررّة وغير مقررّة .

وقد ظن المجلس التأسيسى الذى غير تقسيم المملكة وقلب نظامها الاجتماعى القديم أنه قادر على تحويل نظامها الدينى أيضاً ، فأراد أن يستولى على نفوذ البابا فى البلاد . وذلك بأن يجعل الشعب منتخبا لرجال الاكليروس ، وقد أدى هذا القانون المدنى الاكليروسى

الى اضطهادات دينية استمرت حتى العهد القنصلى ونشأ عنها امتناع ثلثي القساوسة عن حلف يمين الاخلاص .

أنت الثورة الفرنسية فى دور المجلس التأسيسى الذى استمر ثلاث سنوات بنتائج عظيمة . وربما كان أهمها نقل ثروة أصحاب الامتيازات الى أبناء الطبقة الثالثة ، فقد أدى ذلك الى ظهور أنصار ملتهبين حماسة للنظام الجديد . وبعد أن أدرك أبناء الطبقة الثالثة الذين حلوا محل الأشراف والفلاحون الذين اشتروا الأملاك الوطنية أن إعادة النظام السابق يحرمهم جميع تلك الفوائد دافعوا عن الثورة الفرنسية أشد دفاع . وبلغت قوتهم ، وهم الذين تغلبوا على كل معارضة ، مبلغاً أصبحوا به قادرين على الذود عن المثل الأعلى الجديد وعن منافعهم المادية . وسنرى أن تأثير هذين العاملين أعان على قيام الامبراطورية .

الفصل الثاني

روح المجلس الاشتراعى

١ — الحوادث السياسية أيام المجلس الاشتراعى

٢ — أحوال المجلس الاشتراعى النفسية

١ — الحوادث السياسية أيام المجلس الاشتراعى

لنأخذ ما وقع أيام المجلس الاشتراعى الذى استمر حكمه سنة واحدة من الحوادث السياسية العظيمة.

لم يفكر المجلس الاشتراعى ، وهو ملكى كالمجلس التأسيسى السابق ، فى القضاء على الملكية ، بل كان ، مع ارتيابه من الملك ، راعياً فى المحافظة على الملكية . إلا أن لويس السادس عشر كان يطلب مداخلة الأجانب وكان يتردد بين عوامل متناقضة أيام إقامته فى قصر التويلرى . وكان كتاب الجرائد التى أمدّها بالمال لتحول رأى العام يجهلون صناعة التأثير فى روح الجماعات . فكانت طريقته الوحيدة فى الاقناع تهديد أنصار الثورة بالقتل وانذار الناس باستيلاء جيش أجنبي على البلاد لانقاذ الملك .

أصبح الملك يعتمد على ملوك الأجانب . وأضحى الأشراف يهجرون البلاد أفواجاً أفواجاً . وصارت بروسية والنمسة وروسية تتوعد فرنسا بالاستيلاء عليها ، وأخذ البلاط يروج دسائس هذه الدول . فاقترح النادى اليعقوبى أن يناهض تألب الملوك على فرنسا بمقدح محالفة بين الشعوب ضد ملوكها ، وكان الجيرونديون واليعاقبة قابضين حينئذ على زمام الثورة فجهزوا جيشاً مؤلفاً من ٦٠٠.٠٠٠ متطوع فأكرهوا الملك على تأليف وزارة جيرونديّة ، وهذه الوزارة جعلت لويس السادس عشر يقترح على المجلس شهر الحرب على النمسة فوافق المجلس على ذلك من فوره .

غير أن الملك لم يكن مخلصاً في شهر الحرب ، فاطلعت النمسة ، عن طريق الملكة ، على خطط فرنسا الحربية وعلى أمرار مجلس الوزراء . وكانت فاتحة الحرب مشؤومة قششت فرق كثيرة حينها هوجمت بغتة وثار سكان الضواحي لاعتقادهم أن الملك والأجانب يأتمرون بالبلاد فساقمهم زعماء اليعاقبة في ٢٠ يونيو الى المجلس الاشتراعي حاملين عريضة يتوعدون فيها الملك بالخلع . ثم استولوا على قصر التويلري وشتموا الملك .

كان القدر يسوق لويس السادس عشر الى نيل جزائه . فبينما كان وعيد اليعاقبة للملكية يغضب مديريات كثيرة علم الناس وصول جيش بروسي الى حدود لورين . وقد ظنت ملكة فرنسا ماري اتوانيت أنها تقدر على تخويف سكان باريس وإرجاعهم الى إمرة الملك بالوعيد والتهديد فأمرت فيرسان أن ينشر تصريح دوك برنسويك الذي هدد فيه باريس « بتخريبها إذا أصيبت أسرة الملك بسوء » . فكانت النتيجة غير ما توقعت ، إذ اعتقد الناس أن الملك شريك الاجنبي فسخطوا عليه وزادوا منه نفوراً .

ثم حرض داتون زعماء الاندية ، فاقاموا في دار البلدية جمعية ثورية ، وهذه الجمعية سجن قائد الحرس الوطني المخلص للملك ثم قرعت النواقيس إيقاظاً للناس . وأثارت الحرس الوطني وساقته مع السوق في ١٠ اغسطس الى قصر التويلري ففرقت الكتاب التي استدعاها لويس السادس عشر ولم يبق للدفاع عنه غير بعض المرتزقة وبعض الأشراف . وقد قتل هؤلاء كلهم تقريباً . حينئذ التجأ الملك الى المجلس الاشتراعي فطلبت الجماعة خلعه فقرر المجلس الاشتراعي نزع السلطة منه تاركاً أمر مصيره لمجلس العهد القادم .

٢ — أحوال المجلس الاشتراعي النفسية

في البحث عن المجلس الاشتراعي المؤلف من أعضاء جدد فائدة نفسية ، فالمجالس التي تجلت فيها صفات الجماعات السياسية ، مثل ذلك المجلس ، قليلة العدد .

كان عدد نوابه سبعة وخمسين . وكانوا منقسمين الى ملكيين متطرفين وملكيين دستوريين وجمهوريين وجيرونديين وموتانيار وكانت اكثرية من المحامين والأدباء ، وقد اشتمل أيضاً على قليل من الاساقفة الدستوريين وكبار الضباط والقسيسين والعلماء . كانت مبادئ أعضاء هذا المجلس صيانية . فكان اكثرهم مشبعاً من أفكار روسو في العودة الى الفطرة الاولى ، وكانوا كلهم يميلون الى الاغريق والرومان الاقدمين ويستندون

إلى أفكار كاتون وبروتوس وغرا كوس وبلوتارك ومارك اوريل وأفلاطون ، وكانوا عندما يريدون شتم لويس السادس عشر يسمونه كاليغولا كانوا ثوريين لرغبتهم في القضاء على التقاليد ، ولكنهم كانوا أيضاً رجعيين لطمعهم في العودة الى ماض قديم ، غير أن النظريات لم تؤثر في سيرهم إلا قليلاً فكان العقل يظهر في خطبهم دون أعمالهم ، وقد استولت وساوس العاطفة والدين عليهم .

كانت أحوال المجلس الاشتراعي النفسية مثل أحوال المجلس التاسيسي النفسية ، وهي تلخص في أربع كلمات ، سرعة الانفعال وسرعة القلب والجبن والضعف . ويستدل على سرعة قلبه وسرعة انفعاله من تحولاته المستمرة . فكان أعضاؤه يوماً يتشائمون ويتلا كزون ويوماً يتعاقون باكين . وقد هتفوا هتافاً شديداً للعريضة التي التمسوا فيها مجازاة من طلبوا خلع الملك . ثم حيوا الوفد الذي أتى في اليوم نفسه ليطلب خلعهم . ويستدل على ضعف المجلس الاشتراعي ووجبه بقراره نزع السلطة من الملك مع أنه ملكي وقوله طلب الجمعية الثورية تسليم الملك وأسرتة إليها لتسجنه في برج تامليل . وهكذا كان حال المجلس الاشتراعي الذي عجز عن التصرف في سلطته ففوض زمامه الى الجمعية الثورية والأندية التي كان يديرها زعماء نافذون كتاليان وإبير ومارا وبوسينيول وروبسير .

وقد ظلت تلك الجمعية الثورية مسيطرة على الحكومة حتى الشهر الحادي عشر من السنة الجمهورية (ترميدور ١٧٩٤) ، وكانت تسير كأن إدارة باريس فوضت إليها ، فهي التي طلبت سجن لويس السادس عشر في برج تامليل مع أن المجلس الاشتراعي أراد اعتقاله في قصر لكسنبرغ ، وهي التي ملأت السجون بالمتهمين ثم أمرت بذبحهم . وأمر الوحشية التي أبادت بها عصابة مؤلفة من ١٥٠ عائلاً ما يقرب من ١٢٠٠ نفس في أربعة أيام مشهور ، فقد دفعهم الى هذه المذابح المسماة مذابح سبتمبر بضعة أعضاء من الجمعية الثورية ، وكان بيتون رئيس بلدية باريس قد احتفى بهؤلاء القتلة فسقاهم خمرأ ، فاحتج على ذلك بعض الجيرونديين دون اليعاقبة الذين التزموا جانب السكوت .

وتجاهل المجلس الاشتراعي تلك المذابح التي حث على اقترافها كثير من أعضائه كبيوفارين وكوتون . وهو ، لعجزه عن منع استمرار قتل الناس ، انفض بعد خمسة عشر يوماً من تاريخ وقوع ذلك الحادث فاسحاً المجال لمجلس العهد .

لا شك في أنه كان مسيئاً بأعماله ، لا بنياته ، فمع كونه ملكياً أفلح عن الملكية ، ومع اتحاله مذهب الانسانية ، حدثت مذابح سبتمبر على مرأى منه ، ومع أنه كان مسالماً فقد زجَّ بفرنسة في حرب طاحنة ، فأثبت لنا بسيره أن الحكومة الضعيفة تؤدي إلى خراب الوطن على الدوام .

دلنا تاريخ المجلسين الثوريين الأولين (التأسيسي والاشتراعي) على تماسك الحوادث بعضها ببعض وأنها سلسلة ضرورات قد تصرف في حلقاتها الأولى ، وأما حلقاتها الأخرى فانها تكيف مستقلة عن إرادتنا ، فقررات المجلس التأسيسي الأولى وإن صدرت عن العقل والارادة وقعت نتائجها مستقلة عن كل إرادة وعقل وتبصر ، ومن كان يجرؤ من رجال سنة ١٧٨٩ على طلب قتل لويس السادس عشر أو يستطيع أن يخبر بذلك القتل وبحروب فائده وبالهول الأكبر وبالمقصلة وبالفوضى ثم بالرجوع الى التقاليد والنظام على يد جندي حديدي ؟

وربما كان تأليف حكومة من الجماعات ونموها أظهر الحوادث التي نشأت عن أعمال المجالس الثورية الأولى ، ومن خلال الحوادث المذكورة سابقاً ، أى الاستيلاء على الباستيل وعلى قصر فرساي والهجوم على مستودعات التويلرى وقتل الحرس الملكي وخلع الملك واعتقاله ، تبين سنن روح الجماعات وروح زعمائها وسنرى أن سلطة الجماعات سادت البلاد شيئاً فشيئاً فاستعبدت السلطات كلها ثم حلت محلها في نهاية الأمر .

الفصل الثالث

روح مجلس العهد

- ١ — قصة مجلس العهد
- ٢ — تأثير انتصار الديانة اليعقوبية
- ٣ — صفات مجلس العهد النفسية

١ — قصة مجلس العهد

وثائق تاريخ مجلس العهد النفسية كثيرة . وهي تثبت لنا أن شهود أحد الأدوار لا تكون أحكامهم صحيحة بما يشاهدونه من الحوادث والناس . ولم تصدر أحكام بالثورة الفرنسية عليها مسحة من التدقيق الا بعد مضي قرن كامل على نشوبها . ولم تكن هذه الأحكام سديدة من كل وجه . فالوصول إلى ذلك يتطلب إخراج الوثائق من الخزان القديمة وكشف غشاوة القصص التي حجب الحقيقة مع الزمن وربما كانت قصة أولئك الذين نعتهم الآباء بغيلان العهد أشد تلك القصص فعلا في النفوس . ومحاربة رجال العهد لفرنسة النائرة ولأوربة المدججة بالسلاح تركت في الناس تأثيراً جعلهم يظنون أن أبطالها مخلوقون من طينة أسمى من طينة البشر . يظل وصف أولئك الرجال بالغيلان سائغاً مادامت حوادث ذلك الدور تظهر كأنها حادثة واحدة . أى مادامت أعمال الجيوش الجمهورية تختلط بأعمال جيوش العهد . فهذا الاختلاط يدهش الناس من العز الذي نالته الجيوش الجمهورية فيغضون النظر عما اقترفته جيوش العهد من قسوة وقتل وتخريب . غير أن الحقيقة ظهرت بفضل النقد الحديث حافظت الجمهورية على احترام الناس لها وخسر رجال العهد ، الذين لم يبالوا بغير الحروب الأهلية ، مقامهم الأدنى .

حقاً أنه لم يهتم بأمر الجيوش في ذلك الحين سوى عضوين أو ثلاثة أعضاء من لجان مجلس العهد . ولم يتم النصر لهذه الجيوش الا بفضل عددها ودهاء قوادها وما أدخله الايمان الجديد من الحماسة الى قلوبهم . وسوف نبين في فصل آخر ، نبحت فيه عن الجيوش الثورية ، كيف انتصرت تلك الجيوش على أوربة الشاكية السلاح وسارت مشبعة من مبادئ الحرية والمساواة التي هي انجيل ذلك الزمن فوصلت الى الحدود وأقلمت فيها مدة طويلة متمسكة بنفسية خاصة تختلف عن نفسية الحكومة التي جهلت أمرها في البداة وازدرتها في النهاية .

لم يبال رجال مجلس العهد بانتصار الجيوش . وانما اقتصروا على الاشتراع الفجّ حسب أهواء زعمائهم الذين أرادوا تجديد فرنسا بالمقصلة . فن أجل تلك الجيوش المستبسلة صارت قصة العهد تاريخاً مبجلاً . وهذا التبجيل أخذ يزول الآن . فالبحت المفصل عن نفسية غيلان العهد أثبت أنهم كانوا قليلي العقل والذكاء . وقد اعترف ، بذلك ، أشد الناس دفاعاً عنهم ، كسيو أولار ، فالك ماقاله هذا المؤلف في كتابه الذي سماه (تاريخ الثورة الفرنسية) :

« من الوهم قول الناس إن الجيل الذي قام بين سنة ١٧٨٩ وسنة ١٧٩٩ بأعمال عظيمة هو من الغيلان أى أرفع من الجيل الذي جاء قبله والجيل الذي جاء بعده . فلم يكن مؤسسو الجمعيات البلدية والأحزاب اليعقوبية والوطنية التي قامت بالثورة الفرنسية أسمى ذكاء ونبوغاً من رجال فرنسا أيام لويس الخامس عشر أو لويس فيليب . وهل كان أولئك الذين حفظ التاريخ أسماءهم ، لظهورهم في مسرح باريس ، أو لأنهم أخطب خطباء المجالس الثورية ذوى مزايا وطباع نادرة ؟ نعم قد يستحق ميرابو أن يلقب بالخطيب العبقري ، ولكن هل كان روبسبير ودانتون وفرنيو أفصح من خطبائنا في الوقت الحاضر مثلاً ؟ كلا . »

✧ وإذا بحثنا عن رجال مجلس العهد وهم مجتمعون رأينا أنهم لم يتصفوا بشيء من الذكاء والفضيلة والشجاعة وأن الخوف لم يبد على جماعة كبدا عليهم ، وأن عملهم انحصر في الخطب كان هذا المجلس المختال ، الذي كان يتوعد الملوك أجبن المجالس السياسية التي عرفها العالم وأشدها خضوعاً . فقد كان ينقاد كالعبد للاندية والجمعية الثورية ويرتجف فرقاً أمام الوفود الشعبية التي كانت تستولى عليه كل يوم ويعمل بوصايا مشيرى الفتن ، وقد سلم

اليهم أنبل أعضائه وعمل بوصاياهم فسن قوانين عقيمة اضطر إلى الغائها بعد أن تركوا ردها الاجتماع .

والمجالس التي هي ضعيفة مثل ذلك المجلس قليلة . ومن يود أن يعلم الدرك الذي تهبط إليه الحكومات الشعبية فلينظر قصة مجلس العهد .

٢ — تأخير انتصار الديانة اليعقوبية

نعد الديانة الثورية من أهم الأسباب التي منحت دور العهد صبغته الخاصة . وقد كمل في هذا الدور صوغ العقيدة التي كانت في طور التكوين .

وتتألف هذه العقيدة من عناصر مختلفة . وهذه العناصر — أي الفطرة وحقوق الانسان والحرية والمساواة والعقد الاجتماعي والسلطة الشعبية — هي فصول انجيل لا يجادل المؤمنون فيه ، ولها رسل راسخو الايمان بسلطتهم . وقد حاولوا ، شأن المعتقدين في كل جيل ، أن يسخروا العالم لها بالقوة غير مبالين بأحد .

والحق على الخوارج هو ، كما بينا في بحثنا عن ثورة الاصلاح الديني ، من صفات أتباع المعتقدات الكبيرة : وقد أثبتت لنا ثورة الاصلاح الديني أن الصراع بين المعتقدات القرية يكون عنيفاً . ولذلك لا يعجب من قتال اليعاقبة الشديد لمن خالفهم في العقيدة من الجمهوريين الآخرين .

والدعوة التي قام بها الرسل الجدد صارمة . فقد أرسلوا لوعظ سكان الولايات أنصاراً أشداء ترافقهم المقصلات . ولم يتساهل هؤلاء القضاة في الخطأ وإن صغر ، وكانوا يفعلون حسب رأي روبسبير القائل « إن الجمهورية لا تقوم إلا بآبادة مخالفيها » ، ولم يبالوا بامتناع البلاد عن التجدد . فأرادوا تجديدها على رغم أنفها . قال كاريه « أجدر بفرنسة أن تصبح مقبرة من أن لا تتجدد على منهجنا . »

والسياسة اليعقوبية التي صدرت عن الايمان الجديد كانت بسيطة كالاشتراكية المسوية التي يديرها سلطان مطلق غير متسامح . فلم تكن أفكار أنصارها الذين ساسوا فرنسة ملائمة لمقتضيات الاقتصاد ولطبيعة الانسان ، بل كانت المقصلة والخطب ، ولوصيائية ، كافية في نظرهم لبلوغ الأرب ، قال تايين :

« كانت خطبهم مشبعة من الأقوال المجردة ومن الآراء المختلة في الطبيعة والعقل والأمة والجباة والحرية وغير ذلك من الأمور المشابهة لكلمات متفوخة متصادمة

ولولم يؤد جميعها الى نتائج عملية مخيفة لاعتقدنا أنها لهُو منطقيّ وتمرينات مدرسية وأقوال وترا كيب خيالية .

نشأ عن آراء اليعاقبة استبداد مطلق فكانوا يرون أن على الوطنيين الذين تساوا مقاماً ومالا أن يطيعوا الحكومة إطاعة عمياء . وكانت السلطة التي انتجلوها أعظم من سلطة الملوك السابقين . فقد سعروا السلع وادعوا أنه يحق لهم أن يتصرفوا في حياة الوطنيين وأملاكهم . ثم بلغت ثقتهم بفضيلة المعتقد الثوري مبلغاً جعلهم يشهرون الحرب على الآلهة بعد أن شهروها على الملوك فوضعوا تقويماً حذفوا منه أسماء القديسين وأوجدوا آلهة للعقل وصاروا يعبدونها في كنيسة نوتردام بطقوس تعدل طقوس المذهب الكاثوليكي ، وقد استمرت هذه الديانة حتى أقام روبيسير في مكانها ديانة شخصية جاعلا نفسه جبرها الاعظم . واليعاقبة وأنصارهم الذين لم تكن الاكثرية بجانبهم بعد ما سادوا فرنسا خربوها . ولا يسهل تعيين عددهم ، ولكنه كان قليلا ، على كل حال ، وقد قدره تايين بخمسة آلاف في باريس التي كان يسكنها سبعة الف نفس وبثلاثمئة في بيزانسون التي كان يسكنها ثلاثون الف نفس وبثلاثمئة الف في فرنسا جميعها .

ولسيادة اليعاقبة فرنسا على رغم عددهم القليل أسباب كثيرة منها منح الايمان إياهم قوة عظيمة . ومنها قبضهم على زمام الحكومة بعد أن تعود الفرنسيون منذ قرون كثيرة إطاعة أولياء الأمور . ومنها اعتقاد الناس أن إسقاطهم يؤدي الى رجوع العهد السابق الذي كان يخافه مشترى الأملاك الوطنية . ولولم يشتد استبدادهم ما أقدمت مديريات كثيرة على العصيان .

والسبب الأول عظم الأهمية . فالنصر في الصراع بين المعتقدات القوية والمعتقدات الضعيفة لا يكون في جانب المعتقدات الضعيفة . وأما علة اندثار اليعاقبة في نهاية الأمر فهي أن شدة اضطهاداتهم أدت إلى تجمع ألوف العزائم الضعيفة تجمعا تغلبت به على عزمهم القوي . وإن قلت إن الجيرونديين الذين طاردهم اليعاقبة كانوا ذوى عقائد راسخة فاعلم أنه اعترضهم في الصراع الذي حدث ما لم يعترض خصومهم من تربية واحترام لبعض التقاليد والحقوق ، قال إميل أوليفيه :

• إن أكثر مشاعر الجيرونديين رقيقة كريمة وأكثر مشاعر اليعاقبة قاسية شرسة

طاغية . فلو قابلنا فرنيو بما را رأينا البون بينهما شاسعاً ولم يكن ما يدنى أحدهما من الآخر .

لم يلبث الجيرونديون الذين تغلبوا في البداية بأهليتهم وفصاحتهم على مجلس العهد ان استحوذ عليهم المونتانيار الهاججون العاطلون من كل رأى صائب والذين كانوا لا يعرفون غير إثارة عواطف السوق .

٣ — صفات مجلس العهد النفسية

للمجالس ، عدا صفاتها العامة ، صفات تحدث بتأثير البيئة والأحوال ، وتمتج كل اجتماع شكل خاصاً . وما عزواناه إلى المجلس التأسيسي والمجلس الاشتراعى ، من هذه الصفات شوهه أشد منه في مجلس العهد

اشتمل مجلس العهد على سبعة وخمسين نائباً وكان ثلث هؤلاء النواب أعضاء في المجلس التأسيسي والمجلس الاشتراعى . وقد نجح اليعاقبة ، بما أتوا به من ضروب الارهاب ، في انتخاباته التي قاطعها ثلاثة أرباع الناخبين . وإذا بحثنا عن مهن نواب مجلس العهد رأينا أن أكثرتهم العظمى كانت من رجال القانون أى مؤلفة من المحامين وكتاب العدل والقضاة .

لم تكن نفسية هذا المجلس متجانسة . ولما كان المجلس الذى يتألف من رجال ذوى صفات مختلفة معرضاً لسهولة الانقسام إلى عدة أحزاب لم يلبث مجلس العهد ان ظهر فيه ثلاثة أحزاب أى حزب الجيرونديين وحزب المونتانيار (الجبليين) وحزب البليين (السهلين) وكان ينتسب الى كل من حزب الجيرونديين وحزب المونتانيار مئة عضو ، وكان في حزب المونتانيار أشد الأعضاء تطرفاً . نذكر منهم كوتون وايرول ديشيشل وداتون وكاميل ديمولان ومارا وكولوديربو ويوفارين وباراس وسان جوست وفوشيه وتاليان وكاريه وروبسيير . ونذكر من أعضاء حزب الجيرونديين بريسو ويسيون وكوندرسيه وفيرنيو . ومن الأعضاء الباقين أى من أكثرية المجلس العظمى تألف ما يسمونه حزب البليين (السهلين) ، وكان هذا الحزب متردداً صامتاً مذبذباً خائفاً يتبع كل ناعق ويتقلب مع الزمن وينضم الى أقوى الحزبين المذكورين ، فبعد أن أطاع الجيرونديين اتبع المونتانيار عندما تغلبوا على خصومهم . وهذه هى نتيجة السنة القاضية على العزائم الضعيفة بالخضوع للعزائم القوية .

وفي مجلس العهد تجلى تأثير النواب النافذين تجلياً ساطعاً. فقد سيرته أقلية ضعيفة الذكاء اكتسبتها عقائدها الراسخة قوة عظيمة.

وأقلية متصفة بالشجاعة والاقدام تقود اكثرية خائفة مذبذبة وبهذا نوضح سر تطرف المجالس الثورية.

انتقل رجال العهد بالتدرج من طور الاعتدال الى طور القهر والاستبداد. ثم أخذوا يقتلون. ومن مئة وثمانين جيروندياً كانوا يديرون في البداية مجلس العهد قتل وهرب مئة وأربعون. وفي آخر الامر ساد روبسبير الذى كان أشد رجال الهول تعصباً فريق النواب الذى استحوذ عليه الخوف فرضى بالذل والاستكانة.

كان الأذكىاء فى المجلس المذكور من حزب البلين (السهليين) أى من خمسة العضو المترددين المذبذبين. وقد تألفت اللجان الفنية التى تعزى اليها أعمال مجلس العهد النافعة من ذلك الحزب. ولم يبال أعضاء الحزب المذكور بالسياسية. فقد أوجب انهماكهم بأمر اللجان عدم ملازمتهم مجلس العهد. فكانت جلسات هذا المجلس لا تحتوى اكثر من ثلث النواب. ومن دواعى الأسف عدم اتصاف هؤلاء الأذكىاء الصالحين بخلق الثبات والحزم، شأن من هو مثلهم فى الغالب. فالخوف دفعهم الى استصواب ما كان يميله عليهم الزعماء المتغلبون من الأوامر السيئة.

استصوب حزب البلين (السهليين) كل ما أمر به. فاستحسن احداث محكمة ثورية ونظام الهول. وبمعونته بحق الموتائير الجيرونديين وأباد روبسبير الايريين والداتونيين. وساعد جنب أعضاءه على اقتراف مظالم العهد الهائلة.

وكان الخوف الشديد صفة مجلس العهد الظاهرة. فالخوف هو الذى دفع كل فريق الى ضرب رقاب الفريق الآخر كيلا يسبقه هذا الفريق فيضرب رقابه. ويسهل إدراك هذا الخوف : فقد كان اولئك الأعضاء المناكيد يتشاورون بين ضجيج الحضور. وكثيراً ما كان يستولى على مجلس العهد وحوش مسلحة بالحراپ فكانوا يجعلون اكثر أعضائه يفرون من الجلسات. وهؤلاء الأعضاء وإن كانوا يحضرون الجلسات اتفاقاً كانوا يستصوبون صامتين ما يأمرهم به الموتائير الذين كانوا أقلية صغيرة فى مجلس العهد. والخوف الذى استولى على الموتائير كان كذلك عظيماً. فليس التعصب وحده هو الذى كان يدفعهم الى إبادة خصومهم، بل إن اعتقادهم وجود خطر محقق بهم كان

يدعوهم الى اقتراف ذلك أيضاً . ولم يكن قضاة المحكمة الثورية أقل فرقا . فقد حكموا
مكرهين على داتون وأرملة كاميل ديمولان وآخرين بالموت . وما استولى طيف الخوف
على مجلس العهد في وقت استيلاءه عليه حينما أصبح روبسبير سيد البلاد الأوحده ، فقد
كانت نظرة منه تشنج زملاءه فزعاً . فيقرأ على وجوههم « شحوب القلق واليأس » .
وكان روبسبير يخاف الجميع والجميع يخافون روبسبير ، فقد ضرب الرقاب خوفاً من
الانتثار به . والخوف هو الذي دفع الناس الى تسليمه رقابهم .
و يدلنا ما تركه رجال العهد لنا من الخواطر على شدة فظائع ذلك الدور القاتم . قال تايين :
« عندما سئل باربر بعد عشرين سنة عن غاية لجنة السلامة العامة وسريرتها أجاب :
(كان همنا الوحيد أن نحفظ حياتنا التي كان كل واحد منا يعتقد أنها في خطر . فكان كل
واحد منا يقطع رأس جاره خوفاً من أن يسبقه جاره فيقطع رأسه) » .
والخلاصة : إن تاريخ مجلس العهد من أظهر الأمثلة التي يستدل بها على شأن الرعماء
والخوف في المجالس .

الفصل الرابع

حكومة مجلس العهد

- ١ — شأن الأندية والجمعية الثورية أيام مجلس العهد
- ٢ — الحكومة أيام مجلس العهد
- ٣ — نهاية مجلس العهد ، منشأ حكومة الديركتوار

١ — شأن الأندية والجمعية الثورية أيام مجلس العهد

بيننا آنفاً تأثير زعماء الأندية والجمعية الثورية في المجلس التأسيسي والمجلس الاشتراعي ، وقد عظم أمر هذا التأثير في مجلس العهد . فلم يكن تاريخ مجلس العهد بالحقيقة سوى تاريخ الأندية والجمعية الثورية التي تغلبت عليه ، ولم تستعبد الأندية مجلس العهد وحده . بل استعبدت فرنسا جميعها . فكانت أندية المديريات التي كان يسوسها نادى العاصمة تراقب القضاة الموظفين وتنفيذ الأوامر الثورية .

وعندما كانت الأندية أو الجمعية الثورية تستصوب بعض الأمور كانت ترسلها الى مجلس العهد ليوافق عليها ، فإذا خالفها المجلس ساقط اليه وفودها . أى سلطت عليه عصابات مسلحة من الرعاع حاملة أوامر لا مناص من إجازتها . وقد بلغ شعور الجمعية الثورية بقوتها مبلغاً دفعها غير مرة الى مطالبة مجلس العهد بطرد من كانت تتمقته من النواب . وكان أعضاء مجلس العهد من المثقفين . وأكثر أعضاء الجمعية الثورية والأندية من صغار التجار والمحترفين والعمال وغيرهم من الذين كانوا يمثلون أمر الزعماء كداتون وكاميل ديمولان وروبسيير . وكان تأثير الجمعية الثورية في باريس أشد من تأثير الأندية ، فقد جمعت لنفسها جيشاً ثورياً وكانت تقود ثمانى وأربعين لجنة من الحرس الوطنى لا تطلب غير القتل والتخريب والنهب . والنظام الذى به أذلت هذه الجمعية الثورية باريس

كان هائلا . ومنه تفويضها الى السكاف شالاندون أن يراقب جزءاً من العاصمة وبيعث الى المحكمة الثورية أى الى المقصلة كل من يرتاب منه .

نعم ناهض مجلس العهد الجمعية الثورية قليلا . ولكنه لم يقاومها زمناً طويلا . وبلغ الصراع بينهما غايته عندما بعث إبير ، الذى هو روح الجمعية الثورية ، الى مجلس العهد الذى أراد أن يسجنه عصابات قوية لتطلب طرد من طلب سجنه من الجيرونديين . وقد أنى مجلس العهد ذلك . فحاصرت الجمعية الثورية فى ٢ يونيو سنة ١٧٩٣ بجيشها الثورى الذى قاده أنريو فارتعد هذا المجلس فرقا فسلم اليه سبعة عشر عضواً . عندئذ أرسلت الجمعية الثورية اليه وفداً ليشكره هائلاً .

وبعد سقوط الجيرونديين خضع مجلس العهد للجمعية الثورية القوية خضوعاً تاماً ، فقد اكرهته هذه الجمعية على جمع جيش ثورى يجوب البلاد ويقتل الناس بالشبهات ، ولم يتخلص مجلس العهد من ربة الجمعية الثورية والنادى اليعقوبى الا فى أواخر أيامه أى بعد سقوط روبسبير . فأغلق النادى المذكور وقصل رقاب أعضائه النافذين .

ومع ما فى هذا العقاب من شدة قد استمر الزعماء على تحريض السوقة ضد مجلس العهد . وتكرر حصاره فى شهر جرمينال وشهر بريريال (أى الشهر التاسع والشهر السابع من السنة الجمهورية) فأكرهه العصاة على استصواب إعادة الجمعية الثورية ودعوة مجلس جديد . ولكنه الغى هذين القرارين بعد خروج العصاة من ردهة المجلس . ولما خجل مجلس العهد من جنبه خصص كتاب لئزع السلاح من الضواحي فسجنت هذه الكتاب عشرة آلاف شخص . ثم فصل رقاب ستة وعشرين زعيماً من زعماء الفتنة وستة نواب تواطأوا عليها .

والواقع أن مجلس العهد لم يكن راغباً فى المقاومة . فكان حين لا تسيره الأندية والجمعية الثورية يخضع للجنة السلامة العامة ويوافق على اقتراحاتها من غير جدال . قال ويليم :

« إن مجلس العهد الذى كان يهدد امراء اوربة وملوكها بالحكم عليهم من قبله كان أسيراً لعصابة من المرتزقة . »

٢ — الحكومة أيام مجلس العهد

فى سبتمبر سنة ١٧٩٣ الغى مجلس العهد الملكية وأعلن الجمهورية مع تردد فريق كبير

من أعضائه العالمين أن الولايات ملكية . وهو لا اعتقاده أن هذا الاعلان يحول العالم المتمدن وضع تقوياً جديداً طائناً أن السنة الأولى من تاريخه تكون فجراً لعالم يسوده العقل ، وكانت محاكمة لويس السادس عشر التي أوجت بها الجمعية الثورية فاتحة تلك السنة .

ساد الجيرونديون الذين كانوا على شيء من الاعتدال ، إذا قيسوا بغيرهم ، مجلس العهد في البداية فانتخب رئيسه وكتابه منهم . ولم يكن لرو بسبير ، الذي صار بعدئذ سيد مجلس العهد المطلق ، سوى نفوذ ضئيل في ذلك الحين . فلم ينل سوى ستة أصوات في انتخاب الرئاسة مع أن يسون انتخب رئيساً بمئتين وخمسة وثلاثين صوتاً .

ولم تلبث سلطة المونتانيار الصغيرة في البداية أن عظمت فلم يبق للبعثدين مكان في مجلس العهد . فقد جعل المونتانيار مجلس العهد الذي هم أقلية فيه يهتم لويس السادس عشر فتم لهم بذلك انتصار على الجيرونديين وقضاء على الملكية وفصل بين النظام الجديد والنظام القديم .

وقد برعوا في تدبير تلك التهمة ، إذ جعلوا المديرية تمطر مجلس العهد عرائض طالبة فيها محاكمة الملك . وأرسلوا اليه بعثة من الجمعية الثورية الباريسية لهذا الغرض . وأذعن مجلس العهد . فاتهم الملك من غير مقاومة سائراً على سنة المجالس الثورية التي تخضع أمام الأنداز والوعيد فتفعل خلاف ما تريد .

دفع الخوف الجيرونديين ، الذين لم يريدوا قتل الملك وهم منفردون ، الى الحكم عليه بالقتل وهم مجتمعون . وقد وافق دوك دورليان ، خال لويس السادس عشر ، على ذلك طمعاً بنجاة نفسه . ولو كان عند لويس السادس عشر قدرة يكشف بها المستقبل كالقدرة التي نعزوها الى الآلهة لراى وهو صاعد في المقصلة أن نصيب اكثر الجيرونديين ، الذين لم يستطيعوا لضعفهم أن يدافعوا عنه ، سيكون مثل نصيبه .

ولو نظرنا الى قتل الملك من حيث فائدته لرأينا أنه عمل جنونى قامت به الثورة الفرنسية . فقد أحدث حرباً أهلية وأقام أروبة ضدنا وأوجب في مجلس العهد منازعات أدت الى انتصار المونتانيار وطرده الجيرونديين .

و بلغت مظالم المونتانيار مبلغاً أوجب عصيان ستين مديرية في الغرب والجنوب ، وقد كاد هذا العصيان ، الذي كان يقوده كثير من النواب المطرودين ، ينجح لو لم ينشأ عن اشتراك الملكيين فيه خوف الناس من رجوع العهد السابق . ودام هذا العصيان دوام

الثورة الفرنسية وكان غاية في الوحش . فكان الشيوخ والنساء والأطفال يقتلون وكانت القرى والمزروعات تحرق . وقد قتل في أثنائه في فاندو وحدها ما يزيد عن نصف مليون نفس .

وعقب الحرب الأهلية محاربة الاجنبي . وظن اليعاقة أنهم يدرون هذه الأضرار بوضعهم دستوراً جديداً فسن بمجلس العهد دستورين أحدهما سنة ١٧٩٣ والثاني سنة ١٧٩٥ ، ولا غرو . فمن تقاليد المجالس الثورية أن تعتقد سحر المراسيم غير معتبرة بفشل التجارب الماضية . قال أحد أكابر المعجبين بالثورة الفرنسية ميسورامبو :
« اعتقد ذوو الايمان القويم من أعضاء مجلس العهد أنهم بصوغهم مبادئ الثورة الفرنسية في قالب قانون يدهشون خصومهم فيهدونهم ويخمدون ثأرهم . »

وكان مجلس العهد يحتوى عدداً غير يسير من الفقهاء وأرباب الأعمال . وقد أدرك هؤلاء أنه يستحيل على مجلس كثير العدد كمجلس العهد أن يدير حكومة فقسموه الى لجان مستقلة كلجنة الأشغال العامة ولجنة الاشتراع واللجنة المالية واللجنة الزراعية واللجنة الفنية الخ . ثم أخذت هذه اللجان تهيج لوائح قانونية ليوافق عليها المجلس في جلساته العامة . والفضل يرجع الى هذه اللجان في جعل أعمال المجلس غير هادئة تماماً . فقد أتت أموراً كثيرة النفع كانشاء المدارس العالية والمقياس المتري . وكان أكثر أعضاء مجلس العهد يفرون الى هذه اللجان ليجتنبوا المخاصمات السياسية التي قد تؤدي الى هلاكهم . وكان على رأس لجان الأشغال المذكورة لجنة السلامة العامة التي أسست في شهر ابريل سنة ١٧٩٣ فكانت عدد أعضائها تسعة . وقد أدارها في بادئ الامر داتون ثم انتقلت إدارتها في شهر يوليو من تلك السنة الى روبسبير . وتدرجت الى ابتلاع جميع السلطات فأدار فيها كارنو أمور الحرية وكامبون أمور المالية وسانجوست وكالوديربوا دقة السياسة .

وكانت القوانين ، التي وافق عليها مجلس العهد ، بتأثير الوفود التي كانت تستولى عليه ، ظاهرة الخطأ خلافاً للقوانين السديدة التي اقترحتها اللجنة الفنية . ونذكر من تلك القوانين المختلة قانون الكمية الكبرى الذي وافق عليه مجلس العهد في شهر سبتمبر سنة ١٧٩٣ ، فلم ينشأ عن هذا القانون الذي أمر بتسعير الألفوات سوى قحط دائم وهدم قبور الملوك في دير سان دني ومحاكمة الملكة وحرق مقاطعة فاندو وتأليف المحكمة الثورية الخ .

وبينما كان مجلس العهد يفكك عرى فرنسا ويخربها كانت جيوشنا تحرز نصراً مبيناً فقد استولت على الضفة اليسرى من نهر الرين وعلى بلجيكة وهولندة . ثم اقرت معاهدة بال هذه الفتوحات . وقد قلت سابقاً ، وساعود الى هذا القول قريباً ، إنه يجب الفرق التام بين أعمال جيوش الجمهورية وأعمال مجلس العهد . وليس هذا على المعاصرين بالأمر العسير .

ومجلس العهد الذى كان لعبة تعبت بها الأهواء لم يفلح فى تهدئة الفتنة فى فرنسا التى قذفها فى بحار الفوضى . ولذلك كان مجلس العهد محطاً للاحتقار حينما غاب عن الوجود فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٧٩٧ . أى بعد قبضه على زمام الأمور ثلاث سنوات ، قال المفوض الأسوجى البارون درينكمن فى إحدى رسائله :
« أرجو أن لا تتحكم فى أمة جماعة من الفجرة السفهاء كالتى تحكم فى فرنسا منذ بدء انقلابها الحديث »

٣ — نهاية مجلس العهد — منشأ حكومة الديركتوار .

وضع مجلس العهد ، الذى لم يغير إيمانه بتأثير القوانين دستوراً جديداً فى أواخر أيامه ليحل محل دستور سنة ١٧٩٣ الذى لم يعمل به قط . وجاء فى هذا الدستور الجديد أنه يقوم بالسلطة الاشتراعية مجلسان : مجلس شيوخ مؤلف من مئتين وخمسين عضواً ومجلس شبان مؤلف من خمسة عشر عضواً وأنه يعهد فى السلطة التنفيذية الى جماعة (الديركتوار) المؤلفة من خمسة أعضاء يرشحهم مجلس الخمس مئة ويعينهم مجلس الشيوخ ، وقد قضى مجلس العهد أن يكون ثلثا أعضاء المجلس الجديد من أعضائه ، إلا أن هذا القرار لم ينفذ . إذ لم يوال اليعاقة سوى عشر مديريات . وحكم مجلس العهد على جميع المهاجرين الى البلاد الأجنبية بالنفى المؤبد . وذلك ليقضى الملكيين عن الانتخابات

لم يؤثر إعلان هذا الدستور فى الجمهورية خلافاً لما كان ينتظر ، فهو لم يقلل شيئاً من الفتنة الشعبية . ومن أهمها الفتنة التى توعدت فى ١٥ أكتوبر سنة ١٧٩٥ بمجلس العهد . فقد ساق الزعماء جيشاً اليه فعزم على الدفاع إزاءه فاستحضر كتائب وسلم قيادتها الى باراس وعهد إلى بوناپارت الذى أخذ يظهر من عالم الخفاء فى أمر تشيته . وقد تم ذلك التشتيت على يده بسرعة . فلما أطلق الرصاص على العصاة بالقرب من كنيسة سان روك فروا تاركين بضع مئات من القتلى . وهذا العمل الحازم الذى لم يكن لمجلس العهد عهد

بمثله صدر عن سرعة حركات الجيش ، وكان قع تلك الفتنة آخر أعمال مجلس العهد المهمة . إذ صرّح هذا المجلس في ٢٦ أكتوبر سنة ١٧٩٥ أن نيابته انتهت ، مسلماً الأمور إلى حكومة الديركتوار .

أظهرنا كثيراً من الدروس النفسية المستنبطة من أعمال حكومة العهد . وأهمها عجز الضغط والظلم عن التغلب على النفوس طويلاً . فلم يكن عند حكومة من وسائل القهر والاستبداد مثل ما كان عند حكومة العهد ، ولكن مجلس العهد على رغم المقصلة الدائمة والمفوضين المرسلين إلى الولايات مع الجلاد والقوانين الصارمة ، كان يضطر إلى مكافأة الفتن والمؤامرات على الدوام . وكانت المدن والمديريات وضواحي باريس تتمرّد من غير انقطاع على رغم فصل ألوف من الرؤوس

حارب مجلس العهد ، الذي ظن أنه الأمر الناهي ، قوى خفية رسخت في النفوس رسوخاً لم تؤثر فيه جحافل الضغط والاكراه . وسبب ذلك أنه لم يدرك شيئاً من أمر تلك القوى التي تم لها النصر في نهاية الأمر .

الفصل الخامس

مظالم الثورة الفرنسية

١ - الأسباب النفسية لمظالم الثورة الفرنسية

٢ - محاكم الثورة الفرنسية

٣ - الهول في المديرية

١ - الأسباب النفسية لمظالم الثورة الفرنسية

بيننا في الفصول السابقة أنه ينشأ عن المبادئ الثورية إيمان جديد، وهذه المبادئ التي قوامها العاطفة، وإن كانت تمجد الحرية والاخاء، نرى بينها وبين الأفعال تناقضاً تاماً، شأن أكثر الأديان التي لم تسمح للناس أن يتمتعوا بالحرية والتي أقامت مذابح فظيعة مقام الاخاء. وينشأ التباين بين المبادئ والعمل عن عدم تسامح المعتقدات. نعم قديماً المرء الدين بالرفقة والحلم. ولكن أمره يؤول إلى إقتراف المظالم لرغبة أنصاره في إكراه الناس عليه. بهذا نفسر مظالم الثورة الفرنسية، فلم يكن الهول الأكبر الذي قام أيام هذه الثورة إلا من نوع محكمة التفتيش والحروب الدينية ومذبحة سان بارتلمي والغاء مرسوم نانت واضطهاد البروتستان في جنوب فرنسا واضطهاد أنصار جانسينيوس، فهذه أمور صدرت كلها عن منبع نفس واحد.

ولم يكن لويس الرابع عشر ملكاً ظالماً، غير أن إيمانه هو الذي دفعه إلى طرد مئات الألوف من البروتستان من فرنسا بعد أن قتل وسجن فريقاً كبيراً منهم، ولا تنشأ وسائل الوعظ القاهرة التي يتذرع بها المعتقدون عن خوف يلقيه الخوارج في قلوبهم، فقد كان البروتستان وأنصار جانسينيوس قليلي الخطر في عهد لويس الرابع عشر، وإنما تصدر تلك الوسائل عن غضب حاكم، يزعم أنه متمسك بالحق، على أناس يعتقد إنكارهم إياه عن عناد، وكيف يصبر ذلك الرجل على ضلالهم وهو قادر على إزالته؟

هكذا تعلل المعتقدون في كل زمن . وهكذا تعلل لويس الرابع عشر ورجال الهول الاكبر ، فقد اعتقد هؤلاء جميعهم أنهم على الحق وأن نصرهم هذا الحق يحدد البشر . وهل كانوا يستطيعون أن يتساهلوا مع خصومهم أكثر من تساهل الكنيسة والملوك مع الخوارج ؟

عدّ المعتقدون في كل جيل طريقة الهول أمراً ضرورياً . فعلها قامت الأديان كلها . وهذه الأديان قد أذرت الناس بعذاب أبدى في الجحيم ليحافظوا على أوامرهم ويحتنبوا نواهيها .

وعلى ذلك يكون رسل المعتقد اليعقوبي قد ساروا على طريقة آبائهم ، واستعانوا بمثل وسائلهم ، ولو تم النصر اليوم لمعتقد جديد ، كالاشتراكية ، لاتخذ طرقاً في الدعاية تشابه طرق محكمة التفتيش ومحكمة الهول الاكبر .

وإذا اعتبرنا الهول اليعقوبي ناشئاً عن فتنة دينية فقط كان اطلاعنا عليه ناقصاً ، ويتم هذا الاطلاع عند إدراكنا أنه انضم الى هذا المعتقد المنصور منافع ذاتية كثيرة مستقلة عنه . نعم أدار الهول الاكبر قليل من الرسل المتعصين ولكنه كان بجانب هؤلاء ، الذين رأوا بعقلهم الضيق أن يحددوا العالم ، كثير من الرجال الذين عدوا المعتقد المذكور وسيلة إثراء . وهذا هو السبب الذي جعلهم يتبعون القائد الأول الظاهر حيناً تركهم يتمتعون بما اغتصبوه . قال البير سوريل :

« أقبل رجال الثورة الفرنسية على الهول لأنهم ظلوا به قابضين على زمام السلطة ولاعتقادهم أنهم لا يستطيعون حفظ مناصبهم بغيره . وهم على رغم قولهم أنهم لم يفعلوا شيئاً إلا لسلامة الدولة لم ينظروا بالحقيقة إلا الى سلامة أنفسهم . فالهول كان وسيلة قبل أن يصير نظاماً حكومياً ، وما ابتدع النظام إلا ليبرر الوسيلة . »

وقال إميل أوليفيه في معرض بحثه في الثورة الفرنسية :

« كان الهول الاكبر مفرقاً بين الناس مؤدياً الى سلب الأموال . ولم تأت بمثل عصابة من اللصوص . »

٢ - محاكم الثورة الفرنسية

كانت محاكم الثورة الفرنسية أيام الهول الاكبر واسطة قهر واكراه . وقد أقيمت

في فرنسا ، عدا محكمة باريس الثورية التي سعى لانشائها دانتون ، محاكم ثورية كثيرة .
قال تايين :

« أقيمت في فرنسا ١٨٧ محكمة ثورية منها ٤٠ محكمة كانت تحكم بالقتل وكانت تنفذ أحكامها في مكان الحكم حالا . وقد حكمت محكمة باريس على ٢٦٢٥ نفساً بالموت . ولم يكن قضاة المديريات أقل نشاطاً في الحكم من قضاة باريس . فقد فصلوا في مدينة اورانج الصغيرة رأس ٣٣١ نفساً . وقصلوا في مدينة آراس رأس ٢٢٣ رجلاً ورأس ٩٣ امرأة . وقصلوا في مدينة ليون رأس ١٦٨٤ نفساً . وبلغ مجموع الذين فصلت رؤوسهم ١٧٠٠٠ نفس منهم ١٢٠٠ امرأة . وكثيرات منهن كنّ مجاوزات سن الثمانين . »

ولا يخفى أن هنالك جمعاً كبيراً من المتهمين قتلوا من غير محاكمة في شهر سبتمبر أي قبل إنشاء محكمة باريس الثورية التي فصلت رؤوس ٣٦٢٥ نفساً ، وكانت محكمة باريس الثورية تقتصر ، كما أشار فوكيه تنفيل في أثناء محاكمته ، على تنفيذ الأوامر التي كانت تلقاها من لجنة السلامة العامة . وهي وإن سارت في البداية حسب القانون ظاهراً لم تلبث أن أهملت ذلك فألغت الدفاع وسماع الشهود ومناقشتهم وصارت تحكم على الناس بالشبهات . ثم اقترح فوكيه تنفيل أن تنصب المقصلة في دائرة المحكمة كي تنفذ الأحكام فوراً كانت تلك المحكمة ترسل المتهمين ، الذين وقفوا لما بين الأحزاب من حقد ، الى المقصلة على السواء . وسرعان ما صارت هذه المحكمة آلة ظلم في قبضة روبسبير السفاك ، وعند ما حكمت على دانتون ، احد مؤسسيها ، بالقتل سأل الله والناس العفو قبل أن يصعد في المقصلة لمعاونته على انشائها ، وهي لم تصفح عن أحد سواء كان الداهية لافوازيه أم الحكيم لوسيل ديمولان أم النبيل الفاضل مالزيرب . قال بنيامين كنستان مشيراً إليها :

« تمّ قتل كثير من أصحاب القرائح السامية على يد أدنى الناس وأشدهم غباوة ،

ويجب لتسوية ما اقترفته المحاكم الثورية من المظالم أن نذكر النفسية الدينية التي كانت عند اليعاقبة الذين أسسوها وأداروها . فقد ظن روبسبير وسان جوست وكوتون وغيرهم ممن قاموا بها أنهم يحسنون الى الجنس البشري بقضائهم عن طريقها على الخوارج وعلى أعداء معتقدهم الذي كانوا يزعمون أنه يحدد العالم .

ولم يكن الذين قتلوا أيام الهول الاكبر من الاشراف والاكابر وس فقط ، بل فصلت رؤوس أربعة آلاف من الفلاحين وثلاثة آلاف من العمال . واذا اعتبرنا ما ينشأ

عن إعدام رجل واحد من الاثري في النفوس اعتقدنا أن قتل كثير من الناس يؤثر فيها تأثير عظيماً. غير أن العادة أرهقت الحواس فلم ينتبه الناس كثيراً إلى ما كان يقع، وكانت الأمهات يقدن أولادهن ليشاهدوا فصل الرؤوس كما يقدرهم اليوم إلى دور الألعاب، وقد أوجبت مناظر القتل الكثيرة عدم اكتراث الناس للبوت، فصعدوا كلهم في المقصلة رابطي الجأش وعلا الجيرونديون درجاتها وهم ينشدون نشيد المرسلين.

نشأ هذا التسليم عن ناموس العادة المسكن لانفعالات النفس. ودليلنا على أن منظر المقصلة لم يرهب أحداً ما وقع من الفتن الملكية الكثيرة. فكانت هذه الفتن تحدث كأن الهول لم يخف إنساناً، ولا يصير الهول طريقة نفسية مؤثرة إلا إذا قصر دوامه. فالهول الحقيقي يكون بالوعيد والانذار أكثر مما بالتنفيذ.

٣ — الهول في الولايات

لم يكن قطع الرقاب الذي نشأ عن أحكام محاكم الثورة كل ما حدث أيام الهول الا كبير فقد كان يحول في فرنسة جيوش ثورية مؤلفة من قطاع الطرق واللصوص ناهبة قاتلة. قال تايين :

« عندما قطع أناس مجهولون في بيدوان، التي كان يسكنها الفانفس شجرة الحرية هدم فيها ٣٣٣ بيتاً وقطعت رؤوس ١٦ شخصاً من سكانها بالمقصلة وقتل منهم ٤٦ شخصاً رمياً بالرصاص. وطرده من بقي منهم فاضطروا كي يعيشوا إلى قطع السبل في الجبال وإلى تحت الكهوف لتكون لهم بيوتاً .. »

ولم يكن نصيب من أرسلوا إلى محاكم الثورة خيراً من ذلك فلما أصبحت محاكم الثورة طليقة من قيود القوانين أغرق كاريه وقتل رمياً بالرصاص في نانت وحدها ما يقرب من خمسة آلاف شخص من الذكور والإناث والولدان.

وقد وردت تفاصيل هذه المذابح في جريدة المونيتور. فقد قال توما في شهادته التي نشرت في عدد هذه الجريدة الصادر في ٢٢ ديسمبر سنة ١٧٩٤ :

« شاهدت بعد الاستيلاء على نوار موتيار رجالاً ونساء وشيوخاً يحرقون أحياء وشاهدت نساء وبنات يقل عمرهن عن خمس عشرة سنة يقتلن بعد انتهاك أعراضهن وشاهدت أولاداً يبقرون بالحرايب ويطرحون على الألواح بجانب أمهاتهم : »

وقد نشرت في العدد المذكور شهادة لجوليان ذكر فيها كيف كان كاريه يكره ضحاياه

على حفر قبورهم ليدفنهم فيها أحياء ، وجاء في عدد ١٥ اكتوبر سنة ١٧٩٤ من الجريدة المذكورة تقرير لميرلان دوتونفيل أثبت فيه أن ربان سيفينة ديستان تلقى أمراً ليحمل عليها إحدى وأربعين ضحية « منها ضرير بلغ الثامنة والسبعين من عمره واثنان عشرة امرأة واثنان عشرة بنتاً وخمسة عشر صيماً وخمسة أطفال ويغرقهم » . وورد في عدد ٣٠ سبتمبر أن محاكمة كاريه أثبتت « أنه أمر بقتل النساء والولدان إغراقاً ورمياً بالرصاص وأنه أوصى القائد هو كس بإبادة سكان فاندو وحرقت مساكنهم » .

وكان كاريه يشعر بالذمة عظيمة عندما كان يشاهد ضحاياه يتوجعون ، فقد نشرت جريدة المونيتور في عددها الصادر في ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٤ قول كاريه : « إنني لم أضحك في المديرات التي طارت فيها رؤوس رجال الاكايروس ضحكى حينما كنت أرى قبض وجوه هؤلاء عند موتهم » .

أقيمت الدعوى على كاريه لإرضاء للردة التي حدثت في شهر ترميدور (الشهر الحادى عشر من السنة الجمهورية) ولكن ما وقع في نانت من المذابح وقع مثله في مدن كثيرة فقد أوجب فوشيه قتل ألفى نفس في مدينة ليون ، وبلغ القتل في مدينة طولون مبلغاً أصبح به عدد سكانها سبعة آلاف في بضعة أشهر بعد ان كان تسعة وعشرين ألفاً .

ولجنة السلامة العامة هي التي كانت تعرض كاريه وفيرون وفوشيه وغيرهم على اقتراح المظالم ، قال كاريه في قضيته :

« أعترف أنه كان يقتل كل يوم نحو مئتين سجين رمية بالرصاص ، ولكن لجنة السلامة العامة هي التي كانت تأمر بذلك ، وحينما كنت أخبر مجلس العهد بأن العصاة الموقوفين يقتلون بالمئات كانت قاعته تدوى تصفيقاً فيأمر بنشر الخبر في الجريدة الرسمية . وماذا كان يفعل هؤلاء النواب الذين يتحاملون على الآن ؟ كانوا يصفقون لى ، ولماذا كانوا يتركون لى وظيفتى ؟ لأننى كنت منقذ الوطن ، وأما الآن فأنا رجل سفاك ! ! ! » .

ومما تقدم يظهر أن كاريه كان يجهل أن الذين سيروا مجلس العهد لم يزدوا عن ثمانية أشخاص ، نعم ان كاريه استحق القتل ، ولكن أعضاء مجلس العهد كانوا يستحقون القتل أيضاً لاستحسانهم ما وقع من المذابح ، ويثبت لنا دفاع كاريه الذى استند فيه إلى رسائل لجنة السلامة العامة أن ما حدث أيام الهول من ضروب الاضطهاد نشأ عن خطة مدبرة لا عن مساع شخصية .

ولم تقض حاجة التخريب أيام الهول بقتل النفوس فقط ، بل تناولت معاول الهدم

الأشياء أيضاً . ولم يكن في اعتداء زعماء الثورة الفرنسية على المباني والآثار الفنية ، التي عدوها بقايا ماضٍ ممقوت ، ما يقتضى بالعجب ، فتى يقبض المؤمن الحقيقي على زمام السلطة يقبض على أعداء إيمانه وعلى التماثيل والمعابد والشعائر الدالة على المعتقد المنكوس ، ومن الأمور المعلومة أن الإمبراطور تيودور الذى انتحل النصرانية أمر بهدم أكثر المعابد التي أقيمت على ضفتي النيل منذ ستة آلاف سنة .

كسرت التماثيل والنقوش البارزة وزجاج النوافذ والتحف الفاخرة . وعندما أرسلت حكومة العهد فوشيه ، الذى نال أيام نابليون لقب دوك وصار وزيراً في عهد لويس الثامن عشر ، لينوب عنها في نيافر ، أمر بهدم أبراج قصورها ونواقيس كنائسها . وقد تناولت يد الهدم القبور أيضاً . فقد جاء في تقرير بارير لمجلس العهد أن قبور الملوك الفخمة في سان دنى ، ومنها قبر هنرى الثانى العجيب الذى صنعه جرمن ييلون ، هدمت . وفرغت النواويس وأرسلت جثة تورين الى المتحف كشيء نادر بعد أن اقتلع أحد الحراس أسنانها ليبيعها . وقد تنف شارب هنرى الرابع ولحيته .

إن رضى أرباب العقول النيرة عن تخريب ميراث فرنسا الفنى أمر محزن . ولكننا إذا ذكرنا أن أسوأ المظالم ينشأ عن المعتقدات القوية وأن رجال الفن كانوا يهجمون كل يوم على مجلس العهد فيكرهونه على الخضوع رأينا في ذلك معذرة . ولا تدلنا قصة هذا التخريب على ما للتعصب من القوة فقط ، بل تدلنا أيضاً على ما يؤول إليه أمر المطلقين من الزواجر الاجتماعية وأمر الأمة التي يقبض هؤلاء على زمامها .

الفصل السادس

جيوش الثورة الفرنسية

- ١ — مجالس الثورة والجيوش .
- ٢ — مكافأة أوربة للثورة الفرنسية
- ٣ — العوامل النفسية والعوامل الحرية التي أوجبت انتصار جيوش الثورة الفرنسية

١ — مجالس الثورة والجيوش

لو اقتصر ما نعلمه عن مجالس الثورة ، ولا سيما مجلس العهد ، على ما يقع فيها من الانشقاق وعلى ضعفها وعلى ما تأتى به من الاضطهاد لكنت ذكرها سيئة . غير أن لذلك الدور نقوذاً مؤثراً ناشأ عن انتصار الجيوش التي فتحت بلاد بلجيكة والبلاد الواقعة على ضفة الرين اليسرى حينما ترك مجلس العهد مقاليد الحكم .

فاذا نظرنا الى حكم العهد في مجموعه أصبح من العدل أن يعزى اليه ما نالته جيوش فرنسة من النصر . وأما إذا فرقنا بين أقسامه ظهر لنا أنه لم يكن لمجلس العهد سوى نصيب صغير في الوقائع الحرية وأن الجيوش المرابطة في الثغور والمجالس الثورية كانتا قسمين مستقلين أثر أحدهما في الآخر تأثيراً قليلاً ونظر كل منهما الى الأمور نظراً متبايناً . وقد اتضح لنا أن مجلس العهد كان ضعيفاً وأن كان يسدل رأيه حسب تحريضات الشعب . فكيف استطاع أن يسيطر على الجيوش وقد كان منقاداً لا قائداً ؟

أوجب انهماك مجلس العهد في المنازعات ترك أمور الحرب الى لجنة كان يسيرها كارنو وحده . وأهم ما قامت به هذه اللجنة هو أنها أمدت الجيوش بالميرة والعتاد ، وقد نشأ فضل كارنو عن قيادته ٧٥٢٠٠٠ جندي كانوا مرابطين في المراكز الحرية وعن إيعازهم الى القواد بالهجوم وعن توطيد دعائم النظام في الجيوش .

ولم يفعل مجلس العهد في الدفاع عن البلاد غير أمره بالنفير العام ، ولا تستطيع حكومة أن تفعل غير ذلك إزاء أعداء فرنسا الكثيرين . فداخلة هذا المجلس في أمر الجيوش كانت يسيرة الى الغاية ، وقد خرجت هذه الجيوش وحدها ظافرة بفضل عددها وحماستها وخطط رسمها لها قواد شباب مستقلون عن مجلس العهد

٢ - مكالمة أوربة للثورة الفرنسية

نرى ، قبل بيان العوامل النفسية التي ساعدت على نجاح جيوش الثورة ، أن الالمام الى روح المقاومة التي تأصلت في أوربة واستفحلت ضد الثورة الفرنسية لا يخلو من فائدة :

نظر ملوك الأجانب في أوائل الثورة الفرنسية الى المصاعب التي كانت تلقاها الملكية الفرنسية المزاحمة لهم بعين الرضى ، لانه لما ظن ملك بروسية أن فرنسا ضعفت فكر في توسيع ملكه على حسابها فاقترح على امبراطور النمسة أن يساعدا لويس السادس عشر بأمل الحصول على ولاية فلاندر وألزاس . فعقدوا في فبراير سنة ١٧٩٢ معاهدة ضد فرنسا ، إلا أن الفرنسيين سبقوا في الهجوم فشهروا الحرب بتأثير الحزب الجير وندى

ومع أنه لم يقتل في المعركة سوى ثلاثمائة فرنسى ومئتا بروسى فانها كانت ذات نتائج عظيمة ، لأن رد جيش اشتر باستحالة قهره أورث قلوب الكتائب الثورية الفتية شجاعة كبيرة فأخذت هذه الكتائب تهاجم العدو على طول الجهة ولم تمض بضعة أسابيع حتى طرد جنود فالى النمساويين من بلجيكة فاستقبلهم الناس فيها كمنقذين .

- وقد اتسع نطاق الحرب كثيراً أيام مجلس العهد . ونشأ عن ضم مجلس العهد سنة ١٧٩٣ بلاد بلجيكة الى فرنسا حرب مع انكلترة استمرت اثنتين وعشرين سنة .

- اجتمع مندوبو انكلترة وبروسية والنمسة في أنفرس وتعاقدوا على تقسيم فرنسا على أن تنال بروسية مقاطعة ألزاس ومقاطعة لورين وأن تنال النمسة مقاطعة فلاندر ومقاطعة أرتوا وأن تنال انكلترة مرفأ دنكرك . وقد اقترح سفير النمسة أن تقمع الثورة الفرنسية بالارهاب وباستئصال شأفة قادة الأمة الفرنسية ، وهذا ما اضطر فرنسا الى أن تحارب من

سنة ١٧٩٣ الى سنة ١٧٩٧ على طول ثغورها . أى من جبال البيرنه حتى الشمال .

وقد أضاعت فرنسا في البداية فتوحاتها السابقة وحلت بها نوازل كثيرة . فاستولى الاسبان على مدينة يربنيان ومدينة بايون . واستولى الانكليز على مدينة طولون . واستولى

النمسيون على مدينة فلنسيان فاضطر مجلس العهد سنة ١٧٩٣ الى الامر بتجنيد كل فرنسي تتراوح سنه بين الثامنة عشرة والأربعين . وساق الى الحدود تسعة جيوش مؤلفة من ٧٥٠.٠٠٠ جندي تقريباً ، وقد مزجت كتائب الجيش الملكي السابقة بكتائب المتطوعين وكتائب المجندين .

انكسر الحلفاء ورفع الحصار عن موبوج بعد انتصار المارشال جوردان في فاتيني ، ثم أنقذ أوش مقاطعة لورين فأخذت فرنسا تهاجم فاستردت بلجيكة وضمته الرين اليسرى ثم كسر المارشال جوردان النمسيين في فلوروس ورماهم خلف الرين مستولياً على كلونيا وكوبلنز ، واحتل هولندة فاضطر ملوك الحلفاء الى طلب الصلح معترفين لفرنسة بفتحاتها .

ومن دواعي انتصار فرنسا أن أعداءنا لم يعيروا قضيتنا ما تستحقه من الاهتمام . فكانوا منهمكين في تقسيم بولونية منذ سنة ١٧٩٣ حتى سنة ١٧٩٥ ، فكان كل منهم يريد أن يحضر القسمة لينال أكثر من غيره ، وهكذا استفدنا كثيراً من تردد الحلفاء - وسوء ظن بعضهم ببعض ، فلو زحف النمسيون في صيف سنة ١٧٩٣ على باريس لكنا كما قال القائد تياول : « خسرنا مئة وربحنا واحداً . فهم الذين أنقذونا بمنحهم إيانا وقتنا كافياً لجمع الجنود واختيار الضباط والقواد » .

وبعد معاهدة بال لم يبق لنا عدو ذو شأن في أوربة سوى النمسة فسأقت حكومة الديركتوار جيشاً الى مقاطعة ميلانه الايطالية التابعة للنمسة وفوضت الى بوناپارت أن يهاجمها . وقد أكره بوناپارت دولة النمسة على طلب الصلح من فرنسا . وذلك بعد وقائع دامت حولا كاملاً أى من شهر ابريل سنة ١٧٩٦ إلى شهر ابريل سنة ١٧٩٧ .

٣ — العوامل النفسية والعوامل الحربية التي أوجبت انتصار جيوش الثورة الفرنسية

يجب لادراك السبب في انتصار جيوش الثورة الفرنسية أن نذكر مقدار ما كان عند جنودها الحفاة العراة من الحماسة الشديدة ومن الصبر على المكاره ومن إنكار النفس ، فهم لما أشبعوا من المبادئ الثورية شعروا بأنهم رسل دين جديد أوحى به لتجديد العالم ، وقد منحهم إيمانهم بطولة وبسالة لم تزعزعهما قارعة ، فأنقذوا الوطن من العدو وصاروا يحاربونه حرب استيلاء . يوم حلت محل مجلس العهد حكومة الديركتوار ولم يبق في فرنسا جمهوريون سوى الجنود . وبذلك كرنا تاريخهم بتاريخ قبائل جزيرة العرب التي

آمنت بما جاء به محمد (صلم) فتحولت الى جيوش بخيفة فتحت جزءاً كبيراً من العالم الروماني القديم بأسرع ما يمكن .

- استقبل كثير من البلاد المحتلة غزاة فرنسة كمحررين لها ، فقد هرع سكان سافوا الى رؤية الجنود الفرنسيين واستقبل الناس في مايانس هؤلاء الجنود بحماسة وغرسوا أشجار الحرية وأسسوا مجلس عهد شبيه بمجلس باريس .

✱ وكلما كانت جيوش الثورة الفرنسية تصطدم بأمم أذلها الملوك المستبدون ولم يكن لها خيال تذب عنه كان النصر يحالفها ، ولكن النصر كان يتعذر عليها عند اصطدامها بأناس أولى خيال وثيق تحياها . نفيال الحرية والمساواة القادر على استمالة الشعوب العاطلة من العقائد المتينة والراحة تحت استبداد امرائها لا يؤثر بحكم الطبيعة في أناس ذوى خيال قوى رسخ في نفوسهم منذ عهد طويل ، فهذا ندرك سر محاربة سكان بريطانيا وفانده الذين كانوا ذوى مشاعر دينية وملكية متأصلة فبهم جيوش الجمهورية وانتصارهم عليها سنوات كثيرة . وقد عمت قن هاتين المقاطعتين عشر مديريات لجمعتنا ٨٠٠٠٠ مقاتل . وبما أنه لا محل للرحمة في تنازع الخيالات المتباينة أى المعتقدات التي لا شأن للعقل فيها لم يلبث الصراع الذى وقع في فانده أن اتصف بقسوة لا تحدث الا في الحروب الدينية وقد استمر هذا الصراع حتى أواخر سنة ١٧٩٥ حين وطد اوش دعائم السلام في فانده ، ولم تخمد الفتنة فيها الا بآبادة عصاتها ، قال مولينارى :

« أصبحت فانده بعد حرب أهلية استمرت سنتين قاعاً صاففاً ، فقد هلك فيها ٩٠٠٠٠٠ نفس تقريباً . ولم يبق للذين ظلوا أحياء فيها بعد تلك المذابح طعام ولا مأوى . واذا صرفنا النظر عما عند جيوش الثورة الفرنسية من الايمان الذى يتعذر معه قهرهم رأينا أنهم فاقوا غيرهم بقادتهم النوابع الذين أنجبهم ساحات القتال ، فلما هاجر اكثر قادة الجيش الذين هم من طبقة الأشراف الى البلاد الأجنبية سنحت لأصحاب الأهلية الحرية فرصة أبدوا فيها مواهبهم فتدرجوا في بضعة أشهر الى جميع المراتب . ومن هؤلاء اوش الذى كان في سنة ١٧٨٩ عريفاً فصار قائد فرقة ثم قائد جيش في الخامسة والعشرين من عمره ، وقد كانت بسالة هؤلاء القواد تمنحهم روحاً هجومية لا عهد لجيوش الاعداء بها ، وهم لعدم تقيدهم بالتقاليد وعدم تطبعهم بالعادات أبدعوا فنا حرياً ملائماً لمقتضيات الزمن .

ولا تقدر الجنود غير المجربة على الحركة إزاء كتاب اتخذت الجندية مهنة لها

وتدربت على الطرق المستعملة منذ حرب السنوات السبع، إلا أن قيام جموع كثيرة بالمهجرات ذل ذلك، فالعدد الكبير هو الذى كان يمكن القواد من القيادة، وهو الذى كان يسد الفراغ الناشئ عن طريقة الهجوم المذكورة المؤثرة مع ما فيها من قسوة.

كانت الجموع الكثيفة عند هجومها على العدو بالخراب تهزم كتابه المتعودة طرقاً تدارى بها حياة الجند. وبطوء إطلاق الرصاص فى ذلك الوقت جعل فن فرنسة الحربى أسهل استعمالاً، فيه تم النصر لها. غير أنه أهلك كثيراً من أنبائها، فمئذ سنة ١٧٩٢ حتى سنة ١٨٠٠. قتل فى ساحة الحرب ما يقرب من ثلثهم (أى ٧٠٠.٠٠٠ من مليونى مقاتل) ولشابر على استخراج النتائج من الحوادث التى بحثنا عنها فى هذا الكتاب بحثاً نفسياً: دلنا البحث عن الجماعات الثورية فى باريس وفى الجيوش على ما لهذه الجماعات من مختلف الأطوار. ويسهل شرح هذه الأطوار. فقد أثبتنا أن الجماعات لما كانت عاجزة عن العقل فانها تسير كما تحرض. ورأينا أيضاً أنها ذات بسالة متناهية وأن مزية محبة الغير تكون نامية عندها فى الغالب وأنه يسهل علينا أن نجد فيها ألوفاً من الرجال مستعدين للتضحية بأنفسهم فى سبيل أحد المعتقدات.

فصفات نفسية مثل هذه تؤدى الى أعمال متباينة حسب الأحوال، والدليل على ذلك ما ورد فى قصة مجلس العهد وجيوشه. فقد أثبتت هذه القصة أن جماعات مؤلفة من عناصر متقاربة سارت فى باريس وفى الثغور سيراً مختلفاً اختلافاً يجعل الانسان يظن أنها لم تكن من شعب واحد.

فكانت الجماعات فى باريس مضطربة قاسية سفاكة للدماء متقلبة فى رغائبها تقلباً يستحيل معه أن يستقيم أمر أية حكومة، وكانت الجماعات فى الجيوش خلاف ذلك، فلما اختلطت هذه الجماعات بالجنود أى بفريق الأمة الذى شب على حب النظام من فلاحين وعمال، وتم ترويضها بالتعليم الحربى واجتذابها بالحاسة السارية أوجب ذلك كله صبرها على ضنك العيش واستخفافها بالمهالك وساعد على تأليف فئة عجيبة انتصرت على أشد جيوش أوربة سطوة.

نستدل بمثل هذه الأمور على تأثير النظام. فهو يحول الرجال. ولا تلبث الأمم التى تتحرر منه أن تصبح قبائل بربرية. ولا تزال هذه الحقيقة تغيب عن بال أولياء الأمور. ويؤدى جهلهم سنن الجماعات الى العمل بما تضعه هذه الجماعات من الخطط بدلا من قيادتها.

الفصل السابع

روح زعماء الثورة الفرنسية

١ — نفسية رجال الثورة الفرنسية ، شأن الاخلاق القوية والاخلاق الضعيفة .

٢ — نفسية النواب أيام بعثتهم

٣ — دانتون وروبسبير

٤ — فوكيه تنفيل — دوما — يوفارين — مارا

٥ — مصير رجال العهد الذين ظلوا أحياء بعد انتهاء الثورة الفرنسية

١ — نفسية رجان الثورة الفرنسية • شأن الاخلاق القوية والاخلاق الضعيفة

لما كان الانسان يميز بذكائه ويسير بخلقه وجب لا يدرك أمره أن يفرق بين الذكاء والخلق . وللخلق المقام الاول في الأدوار العظيمة . والحركات الثورية معدودة من تلك الأدوار بحكم الطبيعة .

وقد وصفنا في كثير من الفصول السابقة ما يسود الفتن من مختلف النفسيات فلا نعود اليه الآن ، وهذه النفسيات تغير شخصية الانسان المورثة والمكتسبة وقد رأينا ما خلقت التدين من شأن في النفسية يعقوية وما أدخله هذا الخلق الى قلوب أتباع الايمان الجديد من تعصب شديد . ورأينا أيضاً أن أعضاء المجالس ليسوا كلهم متعصبين وأن المتعصبين كانوا أقلية فيها وأن اكثرية الاعضاء في مجالس الثورة الفرنسية كانوا مطبوعين على الحياء والاعتدال والحياد وأن الخوف هو الذي كان يدفعهم الى السير مع القساة المنظرين .

وأصحاب الاخلاق الهينة المحايدة الذين يتبعون في كل دور اكثر المحرضات تناقضاً هم الاكثر عدداً في كل زمن . ولا فرق بينهم وبين القساة من حيث الخطر . فقوة هؤلاء تعتمد على ضعف اولئك .

وقد شوه في الثورات كلها ، ولا سيما في الثورة الفرنسية ، أقلية حازمة مع ضيق عقل متغلبة على اكثرية كبيرة متصفة بسمو المدارك وفقدان الخلق . وبجانب الدعاة المتعصبين وضعيفي الاخلاق يظهر أيام الثورات أناس لا يهمهم سوى الاستفادة منها . وما اكثر من ظهر أيام الثورة الفرنسية من رجال هذا الفريق الذين لا غاية لهم سوى الانتفاع من الأحوال ليغتوا . ونعد منهم باراس وتاليان وفوشه وبارير الذين انحصرت سياستهم في خدمة القوى ضد الضعيف .

والواقع أن عدد هؤلاء الطامعين في أوائل الثورة الفرنسية كان عظيما . وهذا ما جعل كاميل ديمولان يقول سنة ١٧٩٢ : « إن مصدر الثورة الفرنسية هو ما كان عند كل واحد من خلق الأثرة وخلق العجب » .

ويتألف من الملاحظات السابقة وما ذكرناه في فصل آخر عن الأطوار النفسية أيام الانقلابات السياسية فكر عام في خلق رجال الثورة الفرنسية . وبناء عليه نذكر شيئا عن أشهر زعماء تلك الثورة .

٢ — نفسية النواب أيام بعثتهم

إن المسير لأعضاء مجلس العهد في باريس والزاجر والمحرض لهم هو تأثير رفقتهم وتأثير البيئة ، ويجب ، للحكم في شأنهم ، أن نبحث عنهم وحبلهم على غاربهم أي وهم أحرار لا رقيب عليهم .

بعث مجلس العهد بعض أعضائه الى المديرية . وألزم الموظفين والقضاة إطاعتهم فكان هؤلاء الأعضاء مطلّقين بعيدين من كل مراقبة . وكان الواحد منهم أيام بعثته « يسخر الناس في المقاطعة التي ولى أمرها ويسجنهم ويضبط أموالهم كما يريد » . وكان يخرج الى الناس « في عربة يجرها ستة أحصنة والحرس يحيط بها من كل جانب ويجلس حول موائد فاخرة ، ذات ثلاثين « طبقا » ، مع موكب من المهرجين والحفراء . وقد « شابهت أبهة كولودير بوا في ليون أبهة سلاطين الترك . فكان لا يقابله أحد إلا بعد ثلاث طلبات ، وكان يتقدم قاعة استقباله حاجز لثلاث يمثل امامه أحد على بعد يقل عن خمس عشرة خطوة » ، وليس من الصعب تصور زهو أولئك النواب عند دخولهم المدن والحرس يحيط بهم ، أولئك النواب الذين كانت إشارة منهم تكفي لقطع الرؤوس .

لم يلبث المحامون العاطلون من العمل والأطباء المبتدلون والكهنة المعتزلون والأغبياء الخاملون وغيرهم ممن لم يقسم لهم ثغر الدهر أن صاروا مساوين لأكبر من عرفهم التاريخ من الجسارة وكانوا بضربهم الرقاب وإغراقهم الأحياء وقتلهم الناس بالرصاص يشعرون بارتقائهم من مستوى وضع إلى درجة أعظم الملوك .
لم يسبق نبرون وهليوغابال في الظلم والاستبداد نواب العهد قط ، فلم يكن هنالك ما يردع أولئك النواب من قوانين وتقاليد . قال تان :

« نظر فوشه من نافذته والنظارة في يده إلى ذبح ٢١٠ من سكان ليون ، وكان كولد ولا بورت وفوشه يقصفون أيام القتل بالرصاص وقد نهضوا عند سماعهم إطلاق الرصاص هائفين فرحاً محركين قلائسهم . »

ونذكر من نواب البعثة السفاكين الكاهن لوبون الذي ضرب أراس وكامبرى عندما أصبح ذا سلطة قوية . فثله ومثل كاريه يثتان ما يؤول إليه أمر الانسان عندما يتخلص من التقاليد والقوانين . وقد بلغ حبه سفك الدماء واقتراف المظالم مبلغاً أدى إلى نصبه المقصلة قريبة من نوافذ بيته ليمتع هو وزوجته وأعوانه بمنظر الذبح . وقد أقام على قائمة المقصلة مقصفاً ليشرب منه الثائرون . وكان الجلاد يركم في الطريق أجساد القتلى عارية على أوضاع مضحكة ليضحك منها الثائرون . وانحصر دفاع ذلك الكاهن في قوله :
لم أفعل ما فعلته إلا لتنفيذ ما أمرت به .

أشرت آنفاً إلى خيلاء هؤلاء النواب الذين أصبحوا فجأة ذوى سلطة فاقت سلطان أشد المستبدين . ولكن الإشارة إلى ذلك لا تكفى لايضاح قسوتهم . فلهذه القسوة أسباب مختلفة : منها أنهم لما كانوا رسل إيمان قوى لم يرحموا ضحاياهم ، ويتخلصهم من زواجر التقاليد والقوانين أطلقوا الأعنة لما تركته الهمجية الأولى فيهم من غرائز وحشية .

نعم إن الحضارة تقيد هذه الغرائز ، ولكنها لا تميتهأ أبداً ، والحاجة إلى القتل في نفوس الصيادين دليل على ذلك ، قال مسيو كونيى كارنو :

« إن حب القتل للقتل نفسه خلق عام ، وهذا الخلق هو علة الكلف بالصيد ، فنحن لا نزال نأتى أعمالاً كانت ضرورة العيش تكره أجدادنا الهمج على إتيانها . ونعجز عن كسر سلاسل العبودية المقيدة لنا منذ القديم وعدم التلذذ بقتل الحيوانات التى لا نرق

لها حينما يستولى علينا حب الصيد . فقتل بالرصاص أو بالحبال أودعها وأجملها ومنها الطيور المشنفة الآذان بتغاريدها من غير أن نشعر بشفقة تكدر صفاء لذتنا بمشاهدتها مضرجة بالدماء راقصة من الألم محاولة الفرار على أرجلها المكسورة أو محركة أجنحتها المهيضة . وسبب ذلك هو الخلق الموروث الذي لا يقدر على مقاومته أفضل الناس .

وحذراً من بطش القوانين لا نسلط هذا الخلق الموروث إلا على الحيوانات في الأوقات العادية ، فتي بطل عمل هذه القوانين لم نلبث أن نسلطه على الانسان أيضا . وبهذا ندرك علة تلذذ رجال الهول بذبح الناس . وما قاله كاريه عن فرحه عند مشاهدته وجوه ضحايا ساعة هلاكهم ذو معنى . فالوحشية عند كثير من أهل الحضرة غريزة مزجورة غير مندثرة .

٣ — دانتون وروبسبير

كان دانتون وروبسبير أكثر رجال الثورة الفرنسية نفوذاً . وكان دانتون خطيب أندية محرصاً ذا صولة مهيجاً للشعب . وكانت نتائج خطبه القاسية تحزنه في الغالب . وكانت درجته رفيعة أيام كان روبسبير ، خصمه في المستقبل ، في الصف الأخير . نعم جاء وقت أصبح دانتون فيه روح الثورة الفرنسية ولكنه لما كان عاطلاً من خلق العناد والثبات تغلب تعصب روبسبير المستمر على جهوده المتقطعة فساقه الى المقصلة .

ولا يزال امر روبسبير غامضاً . فن الصعب اكتناه نفوذه الذي ملك به حق الحياة وحق الموت .

لا جرم ان امر روبسبير لا يكتبه بقول تايين إنه معجب بنفسه غارق في بحار المجردات او بقول ميشله إنه مبادئه علة نجاحه او بقول معاصره ويليم « إن سر قبضه على زمام الحكم هو اعتماده على اهل النقائص ومقتري الجرائم » ،

ويستحيل ان يكون نجاحه قد نشأ عن فصاحته . فقد كان يقرأ بصعوبة خطبه التي لم تكن غير كلمات مجردة باردة مبهمه . وكان في مجلس العهد خطباء يفوقونه بلاغة كدانتون والجيرونديين الذين أبادهم جميعاً .

إذن ليس عندنا إيضاح كاشف لسلطة هذا الحاكم المطلق الذي لم يكن له نفوذ في المجلس الوطني فأصبح بالتدريج سيد العاقبة ومجلس العهد وأهم رجال فرنسة ، ولا شك

في إغاثة الأحوال له كثيراً ، فقد عده الناس سيداً لا غنية لهم عنه . وهذا هو سبب ارتقائه السريع ، واطنه كان ذا سحر شخصي لا عهد لنا به اليوم ، وبهذا يمكن إيضاح ما ناله من النجاح عند النساء . فكان المجلس أيام القائه خطبه ، ويكتظ بالنساء وكان عدد اللواتي كنّ يجلسن على مقاعد الاستماع لا يقل عن سبعمئة وكنّ يصفقن له هائجات النفس وعندما كان يخاطب اليعاقبة كان شقيق الحنو والهتاف يسمع من كل جانب وكان الضوضاء يهز أركان ردهة الاجتماع .

وقد أرسلت إليه أرملة دو شالابر الفتاة التي كان دخلها السنوي أربعين ألف فرنك رسائل غرام دعت فيه إلى الزواج .

ولم يكن خلق روبسبير سبب ميل الناس إليه . فقد كان سوداوى المزاج ضعيف الذكاء عاجزاً عن فهم الحقائق غائصاً في بحر من المجردات ما كرأ مداحياً معجباً بنفسه إعجاباً لم يفارقه طول حياته معتقداً أن الله أرسله ليوطد دعائم الفضيلة وأنه هو المسيح الذي أرسله الله لاصلاح كل شيء .

وكان يزعم أنه من أرباب البيان ، فكان ينقح خطبه طويلاً ، وقد أدى حسده الخطاب والادب إلى قتلهم ، وكان يستخف بزملائه ، فلما خلا بارس إليه ساعة تزينه بصق نحوه كأنه لم يكن حاضراً ولم يحبه عن أسئلته تكبراً ، ولم يكن ازدراؤه أبناء الطبقة الوسطى والنواب أقل من ذلك ، والجمهور وحده هو الذى كان صاحب الخطوة عنده ، قال : « لا مناص من الخضوع للجمهور عندما يتصرف في أمور السلطة ، فكل ما يفعله الجمهور فضيلة وحقيقة ، وليس فيه ما يعد ظلماً أو ضللاً أو جرماً . »

وكان روبسبير مولعاً بالاضطهاد ، ولم يكن قيامه بأمر الرسالة علة قطعه كثيراً من الرؤوس ، بل كان ذلك ينشأ أيضاً عن اعتقاده أنه محاط بالأعداء والمؤتمرين ، قال ميسو سوريل : « كان خوفه من زملائه أشد كثيراً من خوفهم منه . »

ونعد حكمه المطلق الذى استمر خمسة أشهر مثلاً واضحاً لسلطان بعض الزعماء ، فاذا أهلك جبار قابض على زمام جيش أيأ شاء فليس في ذلك ما يعسر فهمه ، وأما إذا استطاع رجل وحده أن يرسل عدداً كبيراً من أقرانه إلى المقصلة فهذا أمر لا يسهل إيضاحه ، وعلى نسبة إرسال روبسبير أشهر النواب ككاميل ديمولان وإيبرت وداتون وغيرهم إلى

المحكمة الثورية ومنها الى المقصلة كانت قدرته تعظم . وقد سقط أكثر الجيرونديين ميتاً أمامه ثم اختلف الجمعية الثورية ففصل رقاب رؤسائها وأقام مقامها جمعية ثورية جديدة منقادة لأوامره .

وأراد روبسبير أن يتخلص بسرعة من لا يروقونه فجعل المجلس يوافق على قانون شهر بريريال (الشهر التاسع من السنة الجمهورية) الذى يسمح بقتل الناس لمجرد الشبهات وبفضله قطع روبسبير فى باريس وحدها ١٣٧٣ رأساً فى تسعة وأربعين يوماً ، وكف زملاؤه عن النوم فى بيوتهم فرقاً منه . وصار عدد من يحضر الجلسات من النواب لا يزيد عن المئة .

وزيادة اعتماده على نفسه وعلى جبن أعضاء مجلس العهد أوجبت هلاكه . فلما أراد أن يحملهم على سنّ قانون يجوز سوق النواب إلى المحكمة الثورية ومنها إلى المقصلة من غير أن يأذن المجلس فى ذلك ائتمر كثير من أعضاء حزب الموتانير وحزب البليين به ليسقطوه . فاتهمه تاليان ، الذى أحس دنوا أجله وأنه ليس لديه ما يخسره ، بالبغى والطغيان فأراد روبسبير أن يدافع عن نفسه فخلق صراخ المؤتمرين صوته فكفى لانتكاسه تكرير كثير من الأعضاء الحاضرين ، بتأثير العدوى النفسية ، كلمة « ليسقط الظالم » ، وأمر المجلس باتهامه حالاً .

ورأت الجمعية الثورية إنقاذه . ولكن مجلس العهد صرح أنه لا يستحق حماية القانون . قال ويليم :

« كان تأثير كلمة « عدم استحقاق حماية القانون » فى الرجل الفرنسى كتأثير كلمة الوباء ، فالذى كانت تقال فيه تلك الكلمة كان يحرم مديناً ويعده الناس نجساً . »

قطع رأس روبسبير فى اليوم العاشر من شهر ترميدور (الشهر الحادى عشر من السنة الجمهورية) ، وقطع معه رؤوس عصابته البالغ عددها ٢١ رجلاً ومنهم سان جوست ورئيس المحكمة الثورية ورئيس البلدية ، وقطع فى غد ذلك اليوم رؤوس سبعين يعقوبياً وبعده يومين رؤوس ١٣ يعقوبياً فانقضت بذلك دور الهول الذى دام عشرة أشهر .

وانهيار البنيان يعقوبى فى ذلك الشهر من الحوادث النفسية الغريبة التى وقعت

أيام الثورة الفرنسية . ولم يخطر على قلب أحد من المونتانيار الذين أسقطوا روبسبير أن دور الهول سينتهى بسقوطه . نعم قضى تاليان وباراس وفوشه وغيرهم على روبسبير كما قضوا سابقاً على إيبيرت وداتون والجيرونديين وغيرهم . ولكنهم لما علموا أن الجماعة أرادت بهتافها لقتل روبسبير زوال دور الهول ساروا كأنهم يريدون ذلك . ثم إن حزب البلين المؤلف من أكثرية المجلس والذي قتل روبسبير كثيراً من أعضائه ثار على الدور المذكور الذي هتف له زمناً طويلاً على رغم مقتته إياه . ولا أشد هولاً ممن زال الخوف عنهم بعد استيلائه عليهم . فقد اضطهد حزب البلين حزب المونتانيار وألقى في قلوب أعضائه الرعب انتقاماً .

ولم يصدر تذلل زملاء روبسبير في مجلس العهد عن ميلهم اليه ، ولكن هذا الحاكم المطلق أخافهم كثيراً فكانوا يخفون حقداً شديداً خلف ما كانوا يظهرونه نحوه من الإعجاب والحماسه . ويظهر ذلك من مطالعة التقارير التي نشرها بعد قتله كثير من النواب في أعداد جريدة المونيتور الصادرة في ١١ و ١٥ و ٢٩ اغسطس سنة ١٧٩٤ ، فلم يشتم عبد سيدة بعد سقوطه مثلما شتم روبسبير وعصابته في تلك التقارير . وقد جاء فيها : « أن أولئك الغيلان جددوا عهد مذابح ماريوس وسيللا . وقد وصف فيها روبسبير بالعاقى الذي كان يبحث عن سلامة نفسه في قتل الناس بالشبهات والذي كان لا يحجم عن أن يأمر . مثل كاليغولا ، الشعب الفرنسي بأن يعبد حصانه لو وجد الى ذلك سيللا .

إلا أنه فات هذه التقارير أن تذكر أن سلطة روبسبير لم تستند الى جيش قوى كسلطة ماريوس وسيللا التي أشير اليها بل الى سكوت مجلس العهد عنه فلولاً جبن أعضاء هذا المجلس ما استمرت سلطة روبسبير يوماً واحداً .

حقاً إن روبسبير من جبارة التاريخ . ولكنه كان جباراً بلا جنود . ويمكن تلخيص مبادئه في أنه كان مشعباً . أكثر من كل إنسان . من العقيدة اليقينية على رغم منطقها الضيق وتصوفها الشديد . ولا يزال يرى مادحين له . فقد نعته مسيو هاميل بالشهيد واقترح أن يقام له تمثال . وإني لأشترك في ثمنه مختاراً . لأنني أعد الآثار الدالة على عمى الجماعات وعلى تذلل المجالس أمام زعيم يعرف كيف يقودها لا تخلو من فائدة . فسوف يذكرنا تمثال روبسبير بهتاف الإعجاب والحماسة الذي أناه مجلس العهد نحو التدابير التي كان يهده بها .

٤ - فوكيه تنفيل - دوما - يوفارين - مارا .

إن ذكرى فوكيه تنفيل . النائب العام في المحكمة الثورية . من أشد الذكريات شؤماً ، وقد أوردت غير مرة ذكر هذا النائب الذي اشتهر في بدء الأمر بحمله ثم أصبح سفاكاً تشمئز منه النفوس لأبين ما يطرأ على بعض الأخلاق من التحولات أيام الثورة فقد كان فوكيه تنفيل أيام سقوط الملكية فقيراً منتظراً كل شيء من نشوب ثورة اجتماعية ليس عنده ما يخسره فيها . فلما جاء مجلس العهد قلده مقاليد أموره فأصبح في يده مصير الفى متهم ، منهم الملكة مارى اتوانيت والتجير ونديون ودانتون وايرت وغيرهم . وكان يقصل رقاب جميع المتهمين المرفوعة أسماؤهم اليه . وعندما تزول سلطة أحد حماته السابقين ككاميل ديمولان أو دانتون أو غيرهما يطلب قتلهم من غير تردد .

ولم يكن شأن فوكيه تنفيل في الأوقات العادية أكبر من شأن قاض هادى مجهول أمره . فن حسنات المجتمع المنظم تقييده لأمثاله الذين لا يردعهم سوى الزواجر الاجتماعية .

قطع رأس فوكيه تنفيل وهو لا يعلم علة عقابه لانه لم يكن ما يسوغه من الوجهة الثورية . وهل فعل سوى تنفيذ أوامر رؤسائه بنشاط ؟ لا يجوز تشبيهه بأولئك النواب الذين أرسلوا الى الولايات ولم تكن مراقبتهم في الامكان . فقد فُحص مفوضو مجلس العهد جميع أعماله واستصوبوها حتى اليوم الأخير . ولولم يشجعه رؤساؤه على قسوته وعلى طريقته السريعة في الحكم على السجناء ما استمرت سلطته . وبفضاء مجلس العهد على فوكيه تنفيل قضى على دوره الرهيب

وبجانب فوكيه تنفيل نذكر دوما الذى أظهر قسوة عظيمة كانت تصدر عن خوفه الشديد ، فقد كان دوما لا يخرج إلا مسلحاً ويمتنع عن مواجهة الناس ولا يكلم الزائرين إلا من كوة وكان يسيء الظن بالناس ، ومنهم زوجته التى دفعه سوء ظنه بها الى سجنها ثم الى قتلها .

ومن الذين ظهروا في دور العهد واشتهروا بهمجيتهم نذكر يوفارين الذى هو عنوان الوحشية الحيوانية .

وقد كان يظل في ساعات الغضب والضيق هادئاً قائماً بعمله الرهيب وكان يحضر

رسمياً مذابح سجن الأيثنى ويهنيء الجزارين ويجزل لهم الأجر ثم يدخل بيته كأنه راجع من النزهة . وكان ، وهو رئيس النادي اليعقوبي ورئيس مجلس العهد وعضو في لجنة السلامة العامة ، يجر الجيرونديين والملكة وسيد السابى داتون الى المقصلة ، وقد استصوب ضرب مدينة ليون بالمداغ وإغراق مدينة نانت . وهو الذى رتب لجنة اورانج الظالمة وكان يحرض فوكيه تفيل على أعماله . وكثيراً ما كان يجيئ اسمه على رأس مراسيم أحكام الموت التى كان يمضئها قبل زملائه غير راحم أو متأثر أو هائج ، وكان يسير فى طريقه عندما كان هؤلاء يترددون أو يتمهلون متفوهاً بكلمات ضخمة هازاً ذوابته كالأسد ، ولما أحرق الخطر بروبسبير وسان جوست وكوتون تركهم وانضم الى الحزب المعارض ليضرب رقابهم ، ولكن لماذا ؟ إن المرء ليحار فى الجواب ، وهو الذى لم يقطع بشئ . ولم يبتغ مالا ولا سلطاناً .

أظن أن الجواب ليس صعباً ، فالعطش الى القتل عند بعض المجرمين يوضح لنا سر سلوك يوفارين . وأكثر المجرمين يقتربون القتل للقتل نفسه . وهم كالصيادين ، يسمون الصيد قضاء لما فى نفوسهم من شهوة الاتلاف الغريزية . والخوف من الشرطى والمقصلة يردعهم . وهم المفطورون على تلك الغرائز السفاكة . عن اقتراف الجرائم فى الأزمنة العادية . ولكنهم عندما يحين الوقت الذى يطلقون فيه أعنتهم لا يتأخرون عن الاجرام .

وأما نفسية مارا فأكثر غموضاً . لا لأنه كان فيه . عدا ميله الى القتل ، عوامل أخرى كعزة نفسه المكرومة وطمعه وعقائده الخ ، بل لأنه كان ولوعاً بالمراتب السنية ولعاً بلغ حد الجنون وكان متعصباً لبعض المبادئ تعصباً جاوز حد الجبود .

كان مارا ذا مزاعم عليية فى الدور السابق . وكان يحلم فيه بالمناصب والمعالى ، ولكن لم يعر أحد تراهاته أذناً صاغية ، ولم ينل سوى وظيفة حقيرة عند أحد الأمراء الاقطاعيين . فلما اشتعلت الثورة الفرنسية أراد الانتقام من المجتمع السابق الذى كان يحقد فضائله فأصبح على رأس أشد الطغاة ، وقد أنشأ ، بعد أن مجد مذابح سبتمبر جهراً ، جريدة وشى فيها بأناس كثيرين طالباً قتلهم ، وهو لو لم تقتله شارلوت كوردائى بخنجرها ما تفلت من ساطور المقصلة حتماً .

• — مصير رجال العهد الذين ظلوا أحياء بعد انتهاء الثورة الفرنسية

وجد بجانب رجال العهد الذين كانت لهم نفسية خاصة رجال آخرون ، كباراس وفوشيه وتاليان وميرلان دوتيونفيل ، لم يكونوا من ذوى المعتقدات أو المبادئ ، ولم يبالوا بغير الأثراء .

استطاع هؤلاء أن يستفيدوا من البؤس العام فجمعوا أموالاً عظيمة ، ولو فعلوا ذلك في الأزمنة العادية ، لا في أيام الثورة التي لا يفرق فيها بين الفضيلة والرديلة ، لعدوا من اللصوص المجرمين ، نعم ظل القليل من اليعاقبة متعصباً لمذهبه ، وأما أكثرهم فقد تركوه بعد أن اغتنوا وأصبحوا من بطانة نابليون ، ونذكر منهم كنباسيرس الذى كان يلقب لويس السادس عشر ، وهو فى السجن ، بـ (لويس كاني) فصار يطلب أيام نابليون من جلسائه أن يلقبوه بـ (صاحب السمو) وأن يخاطبوه بـ (سيدنا) ، وأمر مثل هذا يدلنا على مقدار الحسد الذى كان ينطوى تحت ميل كثير من اليعاقبة الى المساواة . قال ميسو مادلن :

« اغتنى أكثر اليعاقبة (مثل شابو وبازير ومرلن وباراس وبورسول وتاليان وبارير) فصاروا أصحاب قصور وأطيان . ومن لم يغتن منهم فى البداية أثرى فى النهاية . وقد وجد فى لجنة السنة الثالثة وحدها رجال أصبح أحدهم فى المستقبل أميراً . وصار ثلاثة عشر رجلاً منهم من الكونتات وخمسة رجال منهم من البارونات وسبعة رجال منهم أعضاء فى مجلس الشيوخ الإمبراطورى وستة رجال منهم أعضاء فى مجلس الشورى . ونعد بجانبهم خمسين ديموقراطياً كانوا أعضاء فى مجلس العهد فصاروا فى أقل من خمس عشر سنة أرباب مخازن وعربات وأوقاف وفنادق وقصور ، ومن هؤلاء الخمسين نذكر الدوك اورتان والكونت رينول ، ولما مات فوشيه كان ميراثه خمسة عشر مليوناً . »

وهكذا أعيدت امتيازات العهد السابق التى انتهكت حرمتها ، ولكن لم يتم الوصول الى هذه النتيجة إلا بتخريب فرنسة واحراق ولايات برمتها وقتل نفوس كثيرة وإيقاع كثير من الأسرى فى الغم الشديد وإغلاق أوربة وموت مئات الألوف من الناس فى ميادين الحرب .

نختم هذا الفصل الذى بحثنا فيه عن نفسية كثير من زعماء الثورة الفرنسية بما يأتى :

إذا كان علم الأخلاق ، وهو الباحث في القواعد التي يجب على المجتمعات أن تحترمها لتعيش ، يقضى على علمائه أن يكونوا أشداء في أحكامهم على بعض الأشخاص فإنه ليس في علم النفس ما يجعل علماءه أشداء مثلهم ، فغاية علم النفس هي إدراك الأسباب ، وسرعان ما يزول النقد إزاء هذا الإدراك .

والروح البشرية آلة سريعة الانكسار ، ولذلك قلما تستطيع الحوادث التي تمثل على مسرح التاريخ أن تقاوم القوى المحركة لها . ولما كانت هذه القوى المهيمنة مؤلفة من الوراثة والبيئة والأحوال فإنه لا يستطيع أحد أن يقول متيقناً ماذا يصبح سيره لو كان في مكان من يحاول أن يفسر أعمالهم من الرجال .

الباب الثالث

النزاع بين المؤثرات الوراثة والمبادئ الثورية

الفصل الأول

تقلص الفوضى - حكومة الديركتوار

- ١ - نفسية الديركتوار
 - ٢ - حكومة الديركتوار المستبدة - مظالمها
 - ٣ - ارتقاء بونا بارت
 - ٤ - علل استمرار الثورة الفرنسية طويلاً
-

١ - نفسية الديركتوار

كانت حكومة الديركتوار تتألف من ثلاثة مجالس . منها مجالسات اشتملا على كثير من النواب . وأما المجلس الثالث فقد كان صغيراً مؤلفاً من خمسة مديرين ، وكان المجلسان الكبيران يشبهان مجلس العهد بضعفهما . نعم لإنهما لم يسيرا مثله مع الفتن الشعبية التي قاومها مجلس المديرين بيد حديدية ، ولكنهما كانا يذعنان لأوامر هؤلاء المديرين المطلقة إذعاناً تاماً .

ولما أعيى الاستبداد اليقوي جميع الناس رأى ذاك المجلسان الكبيران أن يعمرافرنسة التي عمها الخراب وأن يقيمافرنسة حكومة غير مستبدة ، غير أن الأقدار الثورية التي كانت فوق عزيمة الرجال جعلت أعضاءهما ، مع ما فهم من صدق نية ، يفعلون

خلاف ما يريدون ، فقد رجوا أن يكونوا معتدلين فظهروا بالاشداء ، ورجوا أن يقضوا على نفوذ العاقبة فاقتدوا بهم . وحلوا أن يصلحوا ما خرب فزادوه ضعفاً على إباله . وتمنوا أن يعم السلم الديني فاصطهدوا الكهنة وأعملوا السيف في رقابهم بأشد ما وقع أيام الهول .

وبعكس ذلك كانت نفسية المجلس الصغير المؤلف من خمسة مديرين ، فقد كانت مواجهته للبصاعب اليومية تدفعه الى حلها مع أن ذينك المجلسين النيايين اقتصرا على إبداء الرغائب لبعدهما من الحقائق .

وكان المديرون ، وهم الذين لم يكثرثوا للبسادى ، يحبون أن يبقوا سادة . وكانوا يأتون ، لهذا الغرض ، أفسى الأعمال واكثرها مخالفة للقانون ، ولكنهم وإن استطاعوا بظلمهم أن يتسلطوا على البلاد لم يحسنوا سياستها . وحسن السياسة هو أشد ما كانت تحتاج اليه .

اشتهرت حكومة العهد فى التاريخ بشدتها وحكومة الديركتوار بضعفها مع أن من الثابت أن الثانية كانت أقوى من الأولى . ويتضح ما بين حكومة الديركتور وحكومة المجالس السابقة من الفروق بما يأتى :

من الممكن أن تشتد الحماسة فى مجلس يضم ستمئة أو سبعمئة عضو ، كما حدث فى ليلة ٤ اغسطس . وأن تدفعه شدة العزيمة الى شهر الحرب على الملوك كلهم ، ولكن هذه الاندفاعات لا تكون قوية لعدم استمرارها . وأما المجلس المؤلف من خمسة أعضاء والمتغلب عليه أحد أعضائه فيكون ذا عزيمة مستمرة أى ذا ثبات فى سيره . ومن هذا النوع مجلس المديرين الخمسة الذى كان ذا إرادة قوية فلم يبال بالقانون ولا بأبناء الوطن ولا بالمصلحة العامة والذى أثقل كاهل فرنسا باستبداد لم تأت مثله حكومة ظهرت منذ بدء الثورة الفرنسية .

وحكومة الديركتوار ، كحكومة العهد ، لم تستطع أن تكون سيدة فرنسا مع ما التجأت اليه من أساليب استبدادية . وهذا الأمر ، الذى أشرنا اليه سابقا ، يثبت لنا ما فى الضغط المادى من العجز عن قهر القوى الأدبية الموروثة عن الأجداد . ويصعب أن يقال إننا عاطلون من مثل هذه القوى التى هى قوام المجتمع . فالمجتمع لا يقوم إلا

بعض الروادع أى بالقوانين والعادات والتقاليد الوازنة لغرائز الانسان الهمجية التى لا تزول منه زوالا تاما .

٢ — حكومة الديركتوار المستبدة — مظالمها

استأنف المديرون حروب الفتح لتحويل الأنظار وإلهاء الجند ونهب الأموال من البلدان المجاورة ، فاستغرقت هذه الحروب أيامهم كلها ، وقد رجعت الجيوش منها ، ولاسيما من ايطالية ، ظافرة ذات مغنم كثيرة .

وظهر بعض سكان البلاد المفتحة بمظهر الساذج البسيط فظنوا أن فرنسة لم تقم بالفتح الا لمنفعتهم ، ولكنهم لم يلبثوا أن رأوا أن الفتح أعقبته ضرائب ثقييلة ونهب للكنائس وسلب لبيوت المساكين . وأدت هذه السياسة الى تحالف دولى جديد ضد فرنسة دام حتى سنة ١٨٠٦ .

قضى المديرون ، الذين لم يبالوا بأمر البلاد ولم يكونوا أهلا لتنظيمها ، أوقاتهم فى مكالفة المؤامرات واتخاذ الطرق التى بها يظنون قابضين على زمام السلطة ، ولما اشتدت الفوضى وصار الناس يتطلبون بدأ قوية قادرة على توطيد أركان النظام أحست الأمة ، ومنها المديرون أنفسهم ، أن النظام الجمهورى قرب أجله .

ورأى بعض الناس إعادة الملكية ورأى غيرهم إعادة نظام الهول ورأى آخرون تفويض الأمر الى قائد . ولم يخش تبديل النظام سوى المستولين على الأموال الوطنية . أخذ استياء الشعب من حكومة الديركتوار يزيد ، ولما جدد انتخاب ثلث المجلس النيابى فى شهر مارس سنة ١٧٩٧ خرج اكثر النواب الجدد من المعارضين لها ، فأقلق ذلك المديرين فأبطلوا انتخابات تسع واربعين مديرية وطردوا من النواب الجدد بعد نقض انتخابهم ١٥٤ نائبا وحكموا على ٥٣ منهم بالنفى ، ومن بين هؤلاء المنفيين أشهر رجال الثورة الفرنسية كبروتاليس وكارنوت ورونسون وودراى .

وحكمت بعض المجالس الحريسة ، من غير روية ، على مئة وستين رجلا بالقتل ونفت ٣٣٠ رجلا الى الكويان فمات نصفهم فى وقت قصير ولم تلبث أن طردت المهاجرين والكهنة الذين عادوا الى فرنسة ، ولم يكتف المديرون بهذا الاستبداد الذى دهش منه المعتدلون بل أتوا بعده عملا آخر وهو أنهم لما رأوا زيادة عدد نواب اليعاقبة فى الانتخابات الجديدة نقضوا انتخاب ستين عضوا يعقويا .

وما تقدم يدلنا على مزاج أعضاء حكومة الدير ككتوار الاستبدادى ، ويظهر هذا المزاج بأجلى من ذلك عند الاطلاع على تفاصيل تدابيرهم :

لم يكن هؤلاء السادة فى حبهم سفك الدماء أقل من وحوش دور الهول . فهم وان لم ينصبوا مثلهم المقصلة نصبا مستمرا استعاضوا عنها نفايا قل أن يبقى من يكون عرضة له على قيد الحياة . فكان المنفيون يساقون الى روشفور فى أقفاص من حديد معرضين لتقلبات الجو ثم يكبدسون فى السفن .

ولما اطلع المديرون على النهضة الكاثوليكية وخيل اليهم أن الكهنة يأترون بهم نفوا فى سنة واحدة ١٨٤٨ قسيسا وقتلوا عددا كبيرا منهم رميا بالرصاص ، فأحيوا بذلك دور الهول . وقد أصاب ظلم حكومة الدير ككتوار فروع الادارة ولا سيما المالية . فلما احتاجت هذه الحكومة الى ستمئة مليون فرنك حملت النواب على الموافقة على ضريبة زائدة لم ترجع عليها إلا باثنى عشر مليون فرنك . ثم أعادت الكرة فأمرت بعقد قرض اجبارى قدره مئة مليون فرنك فنشأ عن ذلك إغلاق المصانع ووقف الأشغال وتسريح الأجراء ، ولم تنل من هذا القرض الذى أثقل كاهل الناس ، سوى أربعين مليون فرنك ، ثم جعلت المجلس يوافق على قانون الرهائن الذى يأمر باعتبار بعض الرجال فى كل كورة مسؤولين عما يقع فيها من الأجرام .

ولا يخفى ما ينشأ عن مثل ذلك النظام من الغيظ والاحتقاد ، ففى سنة ١٧٩٩ رفعت أربع عشرة مديرية راية العصيان واستعدت ست وأربعون مديرية للتمرد ، ولو طال عمر حكومة الدير ككتوار لانفرط عقد المجتمع الفرنسى انفراطا تاما . وهكذا تدرجت فرنسا الى الانحلال فتداعت فيها أركان الادارة والمالية وأصبحت واردات بيت مالها تافهة وصار ضباطها ودائنوها لا يصلون الى حقوقهم .

وقد كان منظر فرنسا عند السائحين فى ذلك الحين ، منظر بلاد خربتها الحرب وهجرها سكانها ، وكان الجولان فيها متعذرا لكثرة ما انهار من جسورها وأبنيتها ، وأصبح اللصوص يقطعون طرقها المقفرة فصار جوب مديرياتها لا يخلو من خطر إلا باشتراك تذاكر السلامة من رؤسائهم ، وقد عم الخراب الصناعة والتجارة أيضا فأغلقت فى ليون وحدها أبواب ١٣ر٠٠٠ مصنع من ١٥ر٠٠٠ مصنع ، وأضحت ليل وهافر وبوردو ومرسيليا مدنا مقفرة ، ولم يخل مكان فى فرنسا من البؤس والجوع .

ولم يكن فساد الأخلاق في فرنسا أقل من ذلك . فكان حب النفائس والترف والولائم والزينة والرياش شمة المجتمع الفرنسي الجديد المؤلف من الفلاحين وملتزمي الميرة والماليين الذين اغتنوا من النهب والسلب وخدعت مظاهر الترف في باريس كثيراً من المؤرخين فنسوا أن البؤس والتلف سارا في ذلك الدور معاً .

توضح لنا قصة الديركتوار قلة ما في كتب التاريخ من الصحة ، وها هي دار التمثيل تحيي ذكرى ذلك العهد الذي لا يزال الناس يقلدون أزياءه لا اعتقادهم أن الحياة رجعت فيه الى كل شيء بعد أن انتزعت في دور الهول . والواقع أن نظام الديركتوار لم يكن أصح من نظام الهول ، فكلاهما أديا الى سفك الدماء وكانت عاقبة نظام الديركتوار أن ألقى في النفوس غيظاً ساق المديرين الى البحث عن سيد مطلق قادر على الحلول في مكانهم وعلى حمايتهم .

٣ — ارتقاء بوناپارت

ظهر بما تقدم أن أمر الفوضى والانحلال في آخر عهد الديركتوار استفحل حتى صار الناس ينتظرون ظهور رجل قادر على إعادة النظام . وفكر كثير من النواب منذ سنة ١٧٩٥ في إعادة الملكية . إلا أن تصريح لويس الثامن عشر الذي قال فيه إنه سيعيد النظام القديم برمته وسيرد الأملاك الى أصحابها السابقين وسيجازي أنصار الثورة الفرنسية حول الأنظار عنه .

وبعد أن تعذر إرجاع الملكية بحث الناس عن قائد فوجدوا بوناپارت . وقد اشتهر بوناپارت في معارك ايطالية . فبعد أن جاز جبال الألب ودخل ميلان والبندقية ظافراً وجمع غنائم عظيمة زحف على فينا ولما أصبح على بعد خمسة وعشرين فرسخاً منها طلب امبراطور النمسة اليه الصلح .

ولم يكتف هذا القائد الشاب بما ناله من شهرة فطمع في زيادته . فأقنع حكومة الديركتوار بأن الاستيلاء على مصر يخضع شوكه انكلترا فاجبر من طولون الى مصر في شهر مايو سنة ١٧٩٨ ، ولم تطل إقامة بوناپارت في مصر ، فقد رجع الى فرنسا حين استدعاه أصدقائه . وعم الابتهاج أنحاء فرنسا عندما بلغ الناس عودته .

وقد ساعدته فرنسا على إتمام المؤامرة التي دبرها سياسيس ومديران وبعض الوزراء لاسقاط مجلس النواب ، ونشأ فرح كبير عن تخلص فرنسا من ربة العصابات

المشؤومة التي قهرت البلاد منذ زمن بعيد ، نعم عانت فرنسا بعد ذلك نظاماً استبدادياً ، ولكنه لم يكن شديد الوطأة كالنظام السابق .

ويؤيد تاريخ اسقاط مجلس النواب المذكور ما قلناه في مكان آخر عن صعوبة الحكم الصحيح في الحوادث المعلومة التي شاهد وقوعها أناس كثيرون . فقد كان الناس منذ ثلاثين سنة يعدون ذلك الاسقاط جناية أوجب اقترافها طمع رجل يعضده الجيش ، مع أن الواقع أن الجماعة التي طردت من عائد من النواب لم تكن من الجند بل من حرس المجلس الذي فعل ما أمرته به الحكومة المستعينة بفرنسة .

٤ — علل استمرار الثورة الفرنسية طويلاً .

لو اقتصر دوام الثورة الفرنسية على الوقت اللازم لنيل ما سعت إليه من المبادئ كالمساواة أمام القانون والسلطة الشعبية ومراقبة النفقات ، لم يزد وقتها عن بضعة أشهر لأن هذا حصل سنة ١٧٨٩ ولم يضاف إليه مبدأ آخر ، والواقع أن الثورة الفرنسية استمرت طويلاً ، فإذا نظرنا إلى المدة التي عيها المؤرخون الرسميون رأينا أنها انتهت يوم ارتقاء بوناپارت أي بعد انقضاء عشر سنين .

ولماذا دام دور المهرج والاضطهاد أكثر من الزمن الضروري لاقامة المبادئ الجديدة؟ يجب أن لا يبحث عن ذلك في الحروب مع الدول الأجنبية ، وقد كانت هذه الحروب تنتهي بسرعة لانقسام الحلفاء وانتصار فرنسا عليها . كما أنه يجب أن لا يبحث عنها في محبة أبناء فرنسا للحكومة الثورية . ولم يوجد نظام مقتنه الناس وكرهوه مثل نظام المجالس ، وأعرب فريق كبير من الأمة عن سخطه عليه بما قام به من العصيان وأتى به من انتخابات كثيرة مخالفة له .

أوضح المتأخرون من المؤرخين كره فرنسا للنظام الثوري بعد أن ظل أمر هذا الكره مجهولاً زمناً طويلاً ، وقد لخصت آراؤهم في العبارة الآتية التي تقتطفها من مؤلف جديد لمسيو ما دلن بحث فيه عن الثورة الفرنسية :

« قبضت على زمام فرنسا والجمهورية فئة قليلة مكروهة فصارت ثلاثة أرباع البلاد ترجو أن تنتهي الثورة أو أن تنقذ من أبدى هذه الفئة المكروهة التي بقيت مدة طويلة على رأس الأمة التعسة بما تذرعت به من ألوف الحيل والوسائل ، ولما أصبح بقاؤها حاكمة

لا يتم الا بالارهاب أخذت تقضى على من كانت تظن أنه مخالف لها ولو كان من أشد خدم الثورة الفرنسية إخلاصا .

واليعاقبة هم الذين قاموا بالحكم حتى أواخر عهد الديركتوار ، وقد كانت غايتهم في نهاية الأمر ان يحافظوا ، مع السلطة ، على ما جمعه من المال عن طريق النهب وسفك الدماء ، والذي جعلهم يفاوضون نابليون على إسقاط مجلس النواب هو اقراره إياهم على تلك الغاية التي لم يعترف لويس الثامن عشر لهم بها .

ولكن كيف استطاعت حكومة شديدة الاستبداد ثقيلة الوطأة ، مثل تلك الحكومة أن تبقى سنوات كثيرة ؟ لم يتم لها هذا البقاء بتأثير الديانة الثورية في النفوس والزام الناس ذلك الحكم ظلما وعدوانا فقط ، بل تم لها البقاء ايضا لانتفاع جزء غير يسير من الشعب بذلك الاستمرار ، فبعد ان جردت تلك الثورة الملك والأشراف والاكليروس من سلطتهم منحت ابناء الطبقة الوسطى والفلاحين ما كانت الطبقات الممتازة السابقة مستولية عليه من الوظائف والأموال وجعلتهم بذلك من اعظم انصارها ، وصار هؤلاء يخشون استرجاعها منهم إذا اعيدت الملكية .

لهذه الأسباب استطاعت تلك الحكومة ان تدوم الى ان ظهر قائد قادر على ارجاع النظام وعدها باقرار ما نشأ عن الثورة الفرنسية من المكاسب الأدبية والمادية

استقبل بونابارت الذى حقق هذه الأمانى بحماسة ، وافر تلك المكاسب المادية والأدبية في نظم وقرانين ، ولذلك اخطأ من قال إن الثورة الفرنسية انتهت بارتقاء بونابارت فهو لم يقض عليها بل وطد امرها .

الفصل الثاني

إعادة النظام - الجمهورية القنصلية

- ١ - كيف أقرت القنصلية أمر الثورة الفرنسية
- ٢ - تنظيم فرنسا في العهد القنصلي
- ٣ - العوامل النفسية التي أوجبت نجاح القنصلية

١ - كيف أقرت القنصلية أمر الثورة الفرنسية

أثبت لنا تاريخ القنصلية أن عمل الفرد القوي أفضل من عمل الجماعات، فقد أحل بونابارت النظام محل الفوضى الدامية التي سادت الجمهورية منذ عشر سنين وأنجز وحده في وقت قصير ما لم تستطع إنجازهِ مجالس الثورة الفرنسية الأربعة مع ما أنت به من استبداد واضطهاد.

ولم يلبث بونابارت أن قضى بعزمه على الفتن الباريسية وعلى كل تدمير يؤدي إلى إعادة الملكية، فأرجع إلى فرنسا التي فرقها الأحقاد والضغائن وحدتها الأدبية. وأقام استبداداً فردياً منظماً مقام استبداد الجماعات المشوش. وكانت وطأة هذا الاستبداد الفردي أخف من وطأة الاستبداد السابق فربح الناس من ذلك واستوجب عطفهم.

ولا نجاري المؤرخين السابقين في القول إن بونابارت قوَّض أركان الجمهورية. فقد أبقى بونابارت منها ما يمكن بقاءه وقرر في الأنظمة والقوانين أهم المبادئ الثورية كالغاء الامتيازات والمساواة أمام القانون.

ويحتمل أنه لولا القنصلية لقامت مقام حكومة الديركتوار حكومة ملكية ومحت أكثر مبادئ الثورة الفرنسية. فلنفرض أن بونابارت لم يمثل دوراً تاريخياً فإن مؤامرة ملكية كانت تقلب حكومة الديركتوار التي كان يُمقَّتُها الناس، فاسحة المجال للويس

الثامن عشر . نعم جلس لويس الثامن عشر على العرش بعد ست عشرة سنة من هذا التاريخ ، ولكن نابوليون كان قد منح في تلك الأثناء المبادئ الثورية قوة عظيمة جعلت ذلك الملك العائد لا يجرؤ على مسها ولا على ارجاع أموال المهاجرين .

ولو كان لويس الثامن عشر قد قبض على زمام الدولة عند سقوط حكومة الديركتوار لكان الأمر عكس ذلك ، إذ كان يعيد معه استبداد العهد السابق ويجعل الناس يقومون بثورات جديدة للقضاء عليه ، وليس إسقاط شارل العاشر لسعيه لإعادة النظام السابق بأمر مجهول .

ومن البساطة أن يغضب المرء من استبداد بوناپارت ، فقد تحمل الناس أنواع الاستبداد في العهد الذي جاء قبل عهده وفرضت حكومة الديركتوار عليهم استبداداً أشد وأقسى ، ولم يكن الاستبداد وقتئذ سوى أمر عادي لا يحتاج عليه إلا إذا قام مع الفوضى ، فلما عمت الفوضى أنحاء البلاد بحث الناس عن سيد قادر على إخضاعها ، وكان بوناپارت ذلك السيد .

٢ — تنظيم فرنسة في العهد القنصلي

كان كل شيء محتاجاً إلى الإصلاح والتجديد حينما قبض بوناپارت على زمام الدولة ، فقد سـ " بعد سقوط مجلس النواب دستوراً يحوله سلطة كافية لتنظيم البلاد والوظائف ، وطلّ هذا الدستور ، الذي اسمه دستور السنة الثامنة ، معمولاً به حتى آخر أيام نابليون ، ونصّ على إقامة سلطة تنفيذية يقوم بأمورها ثلاثة قناصل على أن يكون رأى اثنين منهم استشارياً ورأى القنصل الأول ، أى بوناپارت ، نافذاً ، ومنح هذا الدستور بوناپارت حق تعيين الوزراء وأعضاء مجلس الشورى والسفراء والقضاة والموظفين وحق البت في أمر الحرب والسلام وأناط به السلطة الاشتراعية لحصره في يده أمر اقتراح القوانين أمام المجالس الثلاثة أى مجلس الشورى ومجلس التريبونا والمجلس الاشتراعى ولم يمنح مجلس الشيوخ سوى واجب المحافظة على الدستور .

وكان بوناپارت ، مع استبداده ، يستشير قبل أن يجرم في الأمر ولا يمضى مرسوماً قبل أن يباحث فيه مجلس الشورى الذى هو رئيسه ، وكان هذا المجلس المؤلف من العلماء يبيّ القوانين ثم يعرضها على المجلس الاشتراعى ليبدى رأيه فيها بحرية تامة ، وقد

وثق نابليون بهذا المجلس وثوقاً تاماً لاشتغاله على فقهاء أفاضل لا ينطقون بشيء إلا عن علم وأراد بونابارت أن يحكم الأمة من غير أن يستعين بها . ولذلك لم يجعل لها نصيباً في الحكم إلا مرة واحدة ، أى حين عرض عليها الدستور الجديد ليستفتيها فيه . ولم يرجع إلى الانتخاب العام إلا في أحوال نادرة .

ونظم القنصل الأول ، في أثناء سن الدستور الذى عزز فيه مركزه ، أمور الادارة والمالية والقضاء فربط جميع سلطات الدولة بياريس ثم جعل على رأس كل ولاية والياً ومجلساً عاماً مساعداً لهذا والى وعلى رأس كل لواء مديراً ومجلساً ادارياً مساعداً لهذا المدير ، وعلى رأس كل كورة معتمداً ومجلساً بلدياً إدارياً مساعداً لهذا المعتمد ، وجعل أمر تعيينهم كلهم من حقوق وزرائه لا من حقوق الشعب .

ولا يزال هذا النظام المركزى باقياً ، فالمر كزية ، مع ما فيها من مخاطر ، هى الطريقة الوحيدة التى يجتنب بها الاستبداد المحلى فى بلاد منقسمة كفرنسة ، وأوجب ذلك النظام الصادر عن اطلاق تام على النفسىة الفرنسيه راحة وطمأنينة لم يكن للبلاد عهد بهما منذ زمن طويل .

وألغيت أحكام الموت وأعيدت الكنائس الى المؤمنين ثم شرع بونابارت فى وضع قانون مدنى مستنبط اكثره من عادات العهد السابق . فوفق فيه ، كما قيل ، بين الشرع الحديث والشرع القديم .

وما أتى به القنصل الأول من العمل الجليل فى وقت قصير يدلنا على سرسيه فى بدء الأمر الى وضع دستور يخوله سلطاناً مطلقاً ، ولو عهد فى إنجاز ما أصلح به بونابارت فرنسة من الأعمال الى مجالس مؤلفة من المحامين ما تخلصت من الفوضى .

٣ — العوامل النفسىة التى أوجبت نجاح القنصلىة .

لا تلبث العوامل الخارجىة المؤثرة فى الانسان ، كالعوامل الاقتصادية والتاريخية والجغرافية ، أن تتحول الى عوامل نفسىة ، ومن يرغب فى الحكم فعليه أن يغلبها ، وقد جهلتها المجالس الثورىة واطلع عليها بونابارت .

كانت المجالس ، ولا سيما مجلس العهد ، مؤلفة من احزاب متطاحنة فادرك نابليون أن تغلبه عليها يتطلب أن لا ينتسب الى أحد منها ، وهو لعلبه أن قيمة الأمة بما فى احزابها

من ذوى العقول السامية سعى في الانتفاع بها كلها . فعين الوزراء والولاة والقضاة من حزب الأحرار والحزب الملكي والحزب اليعقوبي ناظرأ الى أهليتهم وحدها .

ومع أنه لم يرفض مساعدة رجال الدور السابق كان يعرب عن ميله الى المحافظة على مبادئ الثورة الفرنسية . وهذا لم يمنع الملكيين من الانضمام الى نظامه الجديد .

وإعادة السلم الدينى من أهم الأعمال التى قامت بها القنصلية . فقد كان انقسام فرنسا من أجل الدين أشد من انقسامها السياسى . وقد شعر بوناپارت بأن أمر طمأنينة النفوس فى يد البابا فلم يتأخر ساعة عن مفاوضته . وبعد المعاهدة التى عقدها بوناپارت مع البابا من الأعمال النفسية العظيمة الشأن . فالقوى الأدبية لا تقا تل بالغف وتؤدى مكافحتها الى أخطار كبيرة . وقد علم نابليون بمداراته السكينة كيف يملكهم . وهو بجعله أمر تعيينهم وعزلهم من حقوقه ظل سيدهم .

وما لقيه القنصل الأول بوناپارت من المضاعف فى العهد القنصلى كان أشد مما لقيه بعد تنويجه . فكان عليه أن يطارد اللصوص الذين ظلوا مثابرين على قطع الطرق . وأن يقضى على العصابات التى كانت تخرب فرنسا الجنوبية ، وأن يدارى تاليران وفوشه وقوادأ آخرين كانوا يحسبون أنفسهم من أمثاله . وقد ذلل نابليون هذه العقبات قبل جلوسه على العرش .

مضى العهد الذى سخط فيه المؤرخون العمى والشعراء على إسقاط مجلس النواب . وقد بينا أن الحكومة لم تأتمر بهذا المجلس وحدها ، بل ائتمرت به فرنسا التى حررها ذلك الاسقاط من الفوضى . وهنا نسأل لماذا أتى أذكاء العلماء أحكاماً غير صحيحة فى دور تاريخى واضح مثل ذلك الدور ؟ لا ريب فى أن علة ذلك هو نظرهم الى الحوادث من خلال عقائدهم . وإذ إن الحقيقة تبدل فى نفوس المعتقدين فإن أكثر الأمور وضوحاً غابت عنهم ، ولم يكن تاريخ الحوادث سوى ما أملاه الخيال عليهم .

ولا يستطيع العالم النفسى أن يطلع على سر ذلك الدور الذى وصفناه بإيجاز إلا إذا تحرر من قيود العواطف الحزبية . وحيث لا يلوم ماضياً نشأ عن مقتضيات الزمن المهيمنة . وهذا لا يمنعنا من القول إن نابليون حمل فرنسا عبأ ثقيلاً لانتها قصته بغارتين أغارهما الأجنبي عليها ولغارة ثالثة نشأت عن ارتقاء وارث اسمه الى العرش ولا نزال نقاسى نتائجها . لتلك الحوادث ارتباط بمصادرها . وهى تدل على ما ينشأ عن تبدل مثل الأمة الأعلى من النتائج . فالإنسان لا يقدر على الانفصال بغتة عن ماضيه إلا بتخریب مجرى تاريخه تخریباً تاماً .

الفصل الثالث

النتائج السياسية التي نشأت في قرن واحد عن تصادم التقاليد والمبادئ الثورية

١ — الأسباب النفسية التي أدت الى استمرار الحركات الثورية في فرنسا .

٢ — خلاصة الحركات الثورية التي وقعت في فرنسا منذ قرن .

١ — الأسباب النفسية التي أدت الى استمرار الحركات الثورية في فرنسا .

سنرى في بحثنا الآتي عن نشوء المبادئ الثورية منذ قرن أن هذه المبادئ انتشرت بين طبقات الأمة شيئاً فشيئاً في خمسين سنة ، وقد رفضت اكثرية الشعب والطبقة الوسطى هذه المبادئ طول تلك المدة ولم يقم بأمر إذاعتها غير عدد قليل من الدعاة ، إلا أن ما لها من نفوذ وما ارتكبه الحكومات من الأغلاط كفى لايقاد ثورات كثيرة سوف نلخصها بعد أن نبحث عن عللها النفسية .

يثبت تاريخ ما وقع منذ قرن من الانقلابات السياسية أن الناس محكومون بنفسياتهم أكثر مما بالأنظمة التي تفرض عليهم . فالثورات الكثيرة التي حدثت في فرنسا هي نتيجة نزاع بين حزبي الأمة ذوى النفسيتين المتباينتين اللتين إحداهما دينية ملكية تابعة لمؤثرات وراثية ، والثانية ذات صبغة ثورية تابعة لهذه المؤثرات أيضاً ، وقد ظهر النزاع منذ بدء الثورة الفرنسية بين تينك النفسيتين المتباينتين ظهوراً واضحاً واستمرت الفتن والمؤامرات حتى نهاية دور الديركتوار على رغم ما أتى من الاضطهاد كما بينا سابقاً فثارت ستون مديريةية على النظام الجديد ولم تخمد جذوة الثورة إلا بمذابح كبيرة

والتوفيق بين النظام السابق والمبادئ الجديدة هو أشد ما عانى بونابارات حله من

المشاكل . فكان يبحث عن أنظمة ملائمة للنفسيتين الفاصلتين لفرنسة ، وقد نجح بذلك لالتزامه بجانب التوفيق ولتسميته أموراً قديمة بأسماء جديدة .

ويعد دور نابليون من أدوارنا التاريخية النادرة التي كملت فيها وحدة فرنسة النفسية ، ولكن هذه الوحدة لم تستمر بعد سقوطه ، فالأحزاب السابقة لم تلبث أن ظهرت ثانية ولا تزال باقية حتى اليوم وبعضها متمسك بأهداب التقاليد والبعض الآخر رافض لها .

ولو وقع ذلك الصراع بين معتقدين وأخلاء لم يدم طويلاً لتساع الأخلاء . ولكن حدوثه بين معتقدات متباينة أوجب استمراره . فالكنيسة الزمنية لم تلبث أن لبست ثوباً دينياً وأصبح مذهبها العقلي نوعاً من الكهنوتية الضيقة ، وقد حققنا أن التوفيق بين المعتقدات المتباينة أمر مستحيل . فلم يظهر الكهنة يوم كان الحكم في يدهم بمظهر التسامح مع الأحرار كما أن هؤلاء لم يبدوا أقل تساهل مع أولئك بعد أن قبضوا على زمام الأمور . وظن كثير من ذوى النفوس البسيطة أن السنة الأولى الجمهورية هي مبدأ تاريخ فرنسة الحديثة . غير أن هذا الفكر الصياني أخذ يتضاءل في هذه الأيام فأشد الثوريين تمسكاً يعدلون عنه في الوقت الحاضر معترفين بأن تأثير الماضي هو خلاف تأثير ذلك الدور الهمجى المظلم الذى استحوذت عليه الأباطيل .

وقد سهل تباعض المعتقدين في كل حزب قلب الحكومات والوزارات عندنا . ولا تأبى أحزابنا التي تبقى أقلية في مجلس النواب أن تتحالف ضد الحزب الغالب . فمن الأمور المعلومة أن عدداً كبيراً من الاشتراكيين الثوريين في مجلس نوابنا الحاضر لم ينتخبوا إلا بمعونة الملكيين الذين ليسوا بأوسع حيلة من الملكيين أيام الثورة الفرنسية الكبرى .

ولم تكن اختلافاتنا الدينية والسياسية وحدها سبب ما هو واقع في فرنسة من الشقاق ، بل كان لها سبب آخر . وهو اتصاف بعض رجال فرنسة بالنفسية الثورية التي من شأنها القيام في وجه أى نظام واقع ولو كان هذا النظام محققاً لآمالهم .

ويزيد ما عند أحزاب فرنسة من عدم التسامح ومن حب القبض على زمام الحكم اعتقادها أن القوانين تجدد المجتمعات . فالجماعات الفرنسية تعتبر الحكومة ذات قدرة لاهوتية مثل القدرة التي تقمصها الملوك في العهد السابق . ولم يكن الشعب وحده واثقاً بما عند الحكومة من السلطان العظيم بل نرى عند مشترعينا نظير تلك الثقة .

ولم يفقه رجال السياسة عندنا حتى الآن أن الأنظمة معلولات لا علل وأنه لا قوة ذاتية لها . فهم إذ كانوا وارثين لذلك الوهم الثورى لا يرون أن الانسان ابن ماض لا تقدر على تجديد قواعده أبداً .

ولا ريب في أن الصراع الواقع بين المبادئ التي فرقت فرنسا منذ قرن سيستمر . ولا يقدر أحد على كشف ما قد يولده من الانقلابات . فلو علم أهل أثينا قبل الميلاد أن افتراقهم يؤدى الى استعباد بلاد اليونان ما أتوا به . ولكن كيف كان يمكنهم كشف ذلك؟ قال مسيو غيرو :

« قلبا يبالي الناس بما يعملون . فالتاس وإن كانوا يهشون المستقبل بعملهم . لا يكون المستقبل في الغالب إلا خلاف ما يريدون . »

٢ — خلاصة الحركات الثورية التي وقعت في فرنسا منذ قرن .

أوضحنا ما للحركات الثورية التي وقعت في فرنسا منذ قرن من العلل النفسية . والآن نلخص تاريخ تلك الثورات :

قهر الملوك نابليون فردوا فرنسا الى حدودها السابقة وأجلسوا لويس الثامن عشر على العرش . فنشر هذا الملك الجديد مرسوماً قال فيه إنه يرضى أن يكون ملكاً دستورياً وأن يكون نظام البلاد نيابياً . ثم اعترف بنتائج الثورة الفرنسية من قانون مدنى ومساواة أمام القانون وحرية العبادة وعدم استرداد الاموال الوطنية الخ ، إلا أنه حصر حق الانتخاب في الذين يدفعون ضريبة معينة .

فناهض الملكيون المتطرفون في مجلس النواب هذا الدستور الحر وارادوا إعادة الأموال الوطنية والامتيازات السابقة الى أصحابها . ولكن لما شعر لويس الثامن عشر بأن تنفيذ هذا العمل الرجعى يشعل ثورة جديدة اكتفى بفض مجلس النواب . وأدت الانتخابات الجديدة الى اختيار نواب معتدلين فاستطاع الملك أن يشار على الحكم بتلك المبادئ . عالماً أن إرجاع سكان فرنسا إلى مبادئ العهد السابق مما يدفعهم الى العصيان .

ومن دواعي الأسف أن تبوأ شارل العاشر العرش بعد وفاة لويس الثامن عشر سنة ١٨٢٤ ، فقد كان هذا الملك السخيف العاجز عن إدراك ما طرأ على العالم من التبدل نخوراً بعدم تغيير أفكاره منذ سنة ١٧٨٩ . وأعد سلسلة من القوانين الرجعية

القائلة بتعويض المهاجرين مليار فرنك وإعادة حقوق البكرية وامتياز الاكايروس الخ . وقد عارضت اكرثية النواب فى ذلك فوضع الملك سنة ١٨٣٠ مراسيم حل فيها مجلس النواب وألغى حرية الصحافة وهياً أمر الرجوع الى نظام العهد السابق فأوجب هذا الاستبداد تحالف الأحزاب فاتفق الجمهوريون والبونابارتيون والملكيون الأحرار على إيقاد نار الفتنة فى باريس . ولم تمض أربعة أيام على نشر تلك المراسيم حتى استولى العصاة على العاصمة وفر شارل العاشر قاصداً انكلترة ، ثم دعا زعماء الفتنة — كتيار وكازيمير برية ولافايت — لويى فيليب ، الذى كان الشعب لا يعلم عنه شيئاً ، الى باريس ونصبوه ملكاً للفرنسيين .

وقد استند لويى فيليب فى توطيد دعائم ملكه الى الطبقة الوسطى فوضع قانوناً خفض فيه عدد الناخبين الى مئى ألف . وهذا ما أوجب انتخاب نواب من تلك الطبقة موالين للحكومة الجديدة .

فبات لويى فيليب فى موقف حرج ، إذ كان عليه أن يقاوم فى آن واحد أنصار هنرى الخامس (حفيد شارل العاشر) والبونابارتيين الذين اعترفوا بلويى نابليون رئيساً والجمهوريين . وقد أحدث هؤلاء كلهم ، (من سنة ١٨٣٠ حتى ١٨٤٠) ، بلهيم من الجمعيات الخفية المشابهة لأندية الثورة الفرنسية ، فتناً كثيرة ، وإن سهل قمعها جميعها ، ولم ينصرف أنصار هنرى الخامس والكهنة عن دسائسهم قط ، فقد حاولت والدته إيقاد نار الثورة فى مقاطعة فاند . فلم تنجح ، وصارت مطالب الاكايروس من التشدد بحيث نشأ عنها عصيان خربت فى أثناءه اسقفية باريس .

ولم يكن الجمهوريون حزباً شديداً الخطر لاتفاق مجلس النواب والملك على مناهضتهم . وقد صرح الوزير غيزو أن الحكم يحتاج الى أمرين : العقل والمدفع ، ولا شك فى أن شيئاً من الوهم تطرق الى هذا السياسى الشهير الذى نسب الى العقل ما للدفع من تأثير .

ولم يعدل الجمهوريون والاشتراكيون عن الحركة . فقد سعى أحد زعماء الاشتراكيين (لويى بلان) الى حمل الحكومة على إيجاد أعمال لأبناء الوطن كلهم . وفى سنة ١٨٤٨ حدثت أزمة إصلاح الانتخابات فنشأت عنها فتنة جديدة أوجبت سقوط لويى فيليب بغتة .

والعلل التي سوغت خلع لويس فيليب أقل أهمية من العلل التي نشأ عنها خلع شارل العاشر، فإذا قلت إن لويس فيليب كان سيء الظن بالانتخاب العام قلنا لك إن حكومات الثورة الفرنسية أساءت الظن به مرات كثيرة. ونضيف الى ذلك قولنا إن حكومة لويس فيليب لم تكن مطلقة كحكومة الديركتوار وغيرها.

قامت في دائرة البلدية حكومة موقفة لتدير دقة الأمور فاعلنت الجمهورية وقررت الانتخاب العام. وأمرت أن ينتخب الشعب جمعية وطنية مؤلفة من تسع مئة عضو. وقد صارت هذه الحكومة منذ البداية هدفاً للدعاية الاشتراكية ولفتن كثيرة فوقعت أمور نفسية كالتى حدثت أيام الثورة الفرنسية الكبرى أى قامت أندية جديدة. وقد كان زعماء هذه الأندية يسوقون الشعب من وقت الى آخر الى الجمعية الوطنية لأسباب يرفضها العقل الرشيد. كما كراه الحكومة على معاضدة عصيان كان قد اشتعل في بولونية.

وارضاء للاشتراكيين الذين كانوا يقترحون كل يوم اقتراحاً جديداً أنشأت تلك الجمعية مصانع وطنية ليقوم فيها العمال بشئ الأعمال. وكان يشتغل في هذه المصانع مئة الف عامل. وكانت الحكومة تنفق عليهم كل يوم مليون فرنك. ولكن هؤلاء العمال لما طلبوا أن يعطوا رواتب من غير أن يأتوا عملاً قررت تلك الجمعية إغلاق ما أسسته من المصانع.

ونشأ عن ذلك القرار عصيان هائل. فرفع خمسون الف عامل راية العصيان واستولى الفزع على الجمعية الوطنية فعهدت في السلطة التنفيذية الى الجنرال كافيناك. وقد قتل في المعركة التي وقعت بين الحكومة والعصاة ثلاثة قواد ومطران باريس، ثم أمرت تلك الجمعية بنفى ثلاثة آلاف سجين الى بلاد الجزائر.

ولم يلبث الفلاحون الذين ظنوا أن خطر الاشتراكية والطبقة الوسطى محقق بهم أن انقلبوا على النظام الجمهوري، ولكن لما وعدهم لويس نابليون باعادة النظام استقبلوه بحماسة. فرشح نفسه لرئاسة الجمهورية فانتخبه لها خمسة ملايين ونصف مليون ناخب.

وسرعان ما وقع الخلاف بين الجمعية الوطنية ولويس نابليون ففرض هذا الأخير تلك الجمعية وقبض على ثلاثين الف رجل ونفى عشرة آلاف رجل وطرده من البلاد مئة نائب، وقد رضيت الأمة بذلك عندما استفتيت فيه، فاستحسنه سبعة ملايين ونصف مليون ناخب من ثمانية ملايين ناخب، وفي ٢ ديسمبر سنة ١٨٥٢ نصب لويس نابليون

امبراطوراً بأكثرية اكبر من تلك ، والسبب في إعادة النظام الامبراطورى هو مقت الناس في فرنسا للمشاعيين والاشتراكيين

وكان نظام الامبراطورية استبدادياً في العقد الاول فأصبح دستورياً في العقد الثانى ، وخلعت ثورة ٤ سبتمبر سنة ١٨٧٠ الامبراطور لويس نابليون على أثر تسليمه مدينة سيدان بعد أن ملك ثمانى عشر سنة .

وندر بعد هذا التاريخ وقوع قن ثورية . ونعد أهم فتنة اشتعلت منذ ذلك الحين فتنة شهر مارس سنة ١٨٧١ التى احترق فيها قسم من مباني باريس الفخمة والتي قتل فيها عشرون الف عاص .

وبعد ما نال البلاد من المصائب الكثيرة مانالها في حرب سنة ١٨٧٠ لم يعلم الناجون شطر من يولون وجوهم فأرسلوا الى المجلس التأسيسى نواباً اكثرهم من البوربونيين والاورليانيين . ولما لم يتفق هؤلاء النواب على إعادة الملكية اتخبوا تيار رئيساً للجمهورية ثم أقاموا في مكانه المرشال مكماهون وقد جددت الانتخابات سنة ١٨٧٦ فحاز الجمهوريون لاكثرية كما حازوها في كل انتخاب وقع بعد ذلك .

وقد انقسمت مجالسنا النيابية بعد هذا التاريخ الى أحزاب كثيرة فأوجب ذلك سقوط كثير من وزاراتنا . على أن ما وقع بين تلك الأحزاب من الموازنة متع البلاد بسكينة نسبية . ولم ينشأ عن إسقاط أربعة رؤساء للجمهورية اشتعال ثورة أو شعب ، نعم ، حدثت فتنة شعبية سنة ١٨٨٨ وأوشكت أن تقضى على النظام الجمهورى ليقبض الجنرال بولانجه على زمام الحكم . ولكن مقاومة هذا النظام لتلك النفسية أدت الى تغلبه على الأحزاب المخالفة كلها .

ولبقاء النظام الجمهورى الحاضر في فرنسا أسباب كثيرة : منها أن الأحزاب المتطاحنة ليست من القوة بحيث يستطيع واحد منها أن يسحق الآخر . ومنها تجرد رئيس الدولة من السلطة تجرداً لا نستطيع معه أن نعزو اليه السيئات التى تقاسى نتائجها فندعى أن الأمور تبدل باسقاطه . ومنها أنه لما توزعت السلطة بين ألوف من الموظفين وتجزأت المسؤولية صار من الصعب معرفة من يجب لومه ومجازاته .

ونلخص التحول الذى نشأ عن الثورات التى وقعت في فرنسا بالكلمة الآتية وهى :

أن هذه الثورات اقامت مقام استبداد الفرد الذى يسهل القضاء عليه استبداد الجماعة القوي الذى يصعب تقويض دعائمه .

ويظهر أن الأمم الطامعة فى المساواة والتي تعودت أن ترى حكوماتها مسؤولة عن كل ما يحدث لا تطبق استبداد الفرد وإنما تصير على استبداد الجماعة وإن كان استبداد الجماعة أشد وأقوى .

وبما أن ما قمنا به من ثورات كثيرة لم يؤد إلا إلى قيام استبداد الجماعة وتقويته فإنه يمكن اعتبار هذا الاستبداد غاية الأمم اللاتينية ، واستبداد الجماعة هو بالحقيقة هدف الأمم اللاتينية الذى أجمعت عليه هذه الأمم ، وما الجمهورية والملكية والامبراطورية عند الأمم اللاتينية إلا عناوين باطلة وأشباح ماثلة .

الجزء الثالث

نشوء المبادئ الثورية في الوقت الحاضر

الفصل الأول

تقدم العقائد الثورية بعد الثورة الفرنسية

١ — انتشار المبادئ الديمقراطية البطيئة بعد الثورة الفرنسية

٢ — النصيب المتفاوت لمبادئ الثورة الفرنسية الثلاثة .

٣ — ديمقراطية الكتاب والديمقراطية الشعبية

٤ — التفاوت الطبيعي والمساواة الديمقراطية .

١ — انتشار المبادئ الديمقراطية البطيئة بعد الثورة الفرنسية .

تحافظ المبادئ التي رسخت في النفوس على نفوذها أجيالاً كثيرة . ولم تشذ المبادئ التي أعلنتها الثورة الفرنسية عن هذا الناموس . فمع أن دوام تلك الثورة ، حكومة ، كان قصيراً جداً نرى تأثير مبادئها قد طال كثيراً . وعلة ذلك أن هذه المبادئ لما صارت معتقداً ذا صبغة دينية حولت وجهة مشاعر كثير من الأجيال وأفكارهم تحويلاً أساسياً . استمرت الثورة الفرنسية وقتاً طويلاً ، ولا تزال مستمرة . وذلك مع ملاحظة بضع فترات وقعت . فلم يقتصر تأثير نابليون على قلب العالم وتغيير خارطة أوربة وتجديد أعمال الاسكندر بل كان لحقوق الشعب الجديدة التي أعلنتها ثورتنا الكبرى وثبتها نابليون في أنظمتهم وقوانينهم ، تأثير عظيم في كل مكان ، وقد عاشت هذه الحقوق الثورية ، التي أعان نابليون على انتشارها بعد زوال ملكه .

وما وقع بعد الدور الامبراطورى من الحوادث التى أدت إلى إقامة الملكية أنسى الناس فى بدء الأمر شيئاً من مبادئ الثورة الفرنسية . وقد تركت هذه المبادئ أثراً فى نفوس عدد يسير من النظريين الوارثين لنظرية العقاب البسيطة والمعتقدين أن القوانين تجدد المجتمعات فأراد هؤلاء استئناف العمل .

أخذوا يذيعون مبادئهم مما ينشرونه من مقالات وكتب ، وقد نشأ عن تقليدهم رجال الثورة الفرنسية عدم بحثهم فى مسألة ملائمة خططهم الإصلاحية لطبيعة البشر ، وهامهم قد أقاموا ، مثل رجال الثورة الفرنسية ، مجتمعاً وهمياً ظانين أن تحقيق أحلامهم فيه يحدد النوع الانسانى .

والنظريون فى كل جيل وان لم بقدروا على البناء أثبتوا أنهم قادرون على التخریب قال نابليون فى جزيرة القديسة هيلانة : « لو قامت ملكية من صوّان لاستطاع النظريون أن يحولوها الى غبار ،

ومن بين أولئك الخياليين ، الذين نذكر منهم سان سيمون وفورييه وبيارليرو ولويس بلان وكينيه ، نرى أن أوغست كونت وحده هو الذى أدرك وجوب نشوء الأفكار والعادات قبل التنظيم السياسى .

ولا تؤدى خطط النظريين الإصلاحية فى الوقت الحاضر الى انتشار المبادئ الديمقراطية بل تعوق سيرها . فالشيوعية تخوف أرباب المال والطبقات العاملة ، وقد رأينا فى الفصل السابق أن الخوف منها كان عاملاً أساسياً فى إعادة النظام الامبراطورى . ومع أن ما ألفه كتاب النصف الأول من القرن التاسع عشر لا يستحق أن يجادل فيه ، فإنه يثبت ما للمبادئ الدينية والأدبية المحترقة الآن من الشأن فى ذلك الزمن ، فالمصلحون فى كل زمن سعوا الى إقامة المجتمعات الجديدة على ما لا تقوم بغيره من المعتقدات الدينية والأخلاقية .

والى ماذا يستند المصلحون فى إيجاد تلك المعتقدات ؟ يستندون الى العقل . فما دام العقل هو الذى يصنع الآلات المعقدة فلم لا يستعينون به على إيجاد معتقدات دينية أو أخلاقية ؟ لم يخطر على قلب أحد منهم أن المعتقدات المذكورة لا تقوم على أساس العقل أبداً . حتى إن ذلك خفى على أوغست كونت نفسه . فقد أسس ديناً وضعياً لم ينتحله سوى بضعة أشخاص حتى الآن . ويأمر هذا الدين بتعيين كهنة يديرهم خبر جديد غير الخبر الأعظم للذهب الكاثوليكي .

ولم ينشأ عن هذه الأفكار السياسية والدينية والأخلاقية غير تحويل الجماعات عن المبادئ الديمقراطية . أقول ذلك والمبادئ الديمقراطية آخذة في الانتشار السريع . وإنما يقع هذا الانتشار بتأثير طرق الحياة الجديدة ، لا بتأثير النظريين . فقد أوجبت مبتكرات العلم تقدم الصناعة وتأسيس مصانع عظيمة وتغلب مقتضيات الاقتصاد على عزائم الحكومات والشعوب شيئاً فشيئاً . وفسح المجال للمذهب الاشتراكي والمذهب النقابي أى لمظهرى الأفكار الديمقراطية في الوقت الحاضر .

٢ — النصيب المتفاوت لمبادئ الثورة الفرنسية الثلاثة .

يمكن تلخيص ميراث الثورة الفرنسية في ثلاث كلمات : الحرية والمساواة والاخاء ، وقد رأينا أن تأثير مبدأ المساواة وحده كان عظيماً . والناس قد اختلفوا في فهم تلك الألفاظ ، ومن الأمور المعلومه أنه نشأ عن الاختلاف في تفسير الألفاظ الواحدة حروب كثيرة .

كانت كلمة الحرية تدل عند رجال العهد على حقهم في الاستبداد المطلق والآن تدل عند الشاب المتعلم على تحرير النفس من كل احترام لما يضغطها من تقاليد وقوانين وأفضليات . وهى تدل عند يعاقبة الوقت الحاضر على حقهم في اضطهاد خصومهم .

يذكر الخطباء السياسيون كلمة الحرية من وقت الى آخر في خطبهم ، وقد عدلوا عن ذكر كلمة الاخاء لدعوتهم اليوم الى تطاحن الطبقات لا الى التوفيق بينها . وما وجد حقد يفرق بين طبقات الأمة وأحزابها السياسية مثل الحقد الذى ينقثون سمومه . وبينما يترعزع مبدأ الحرية ويتقلص مبدأ الاخاء نرى مبدأ المساواة ينمو . وقد بقى هذا المبدأ ، على رغم ما وقع في فرنسا من الانقلابات السياسية منذ قرن . وبلغ من الاتساع مبلغاً صار به أساساً لحياتنا السياسية والاجتماعية وقوانيننا وعاداتنا وتقاليدينا ، ولو من الجهة النظرية على الأقل .

فمبدأ المساواة هو ميراث الثورة الفرنسية الصحيح ، وليس الاحتياج الحاضر الى المساواة أمام القانون وفي المناصب والأموال إلا طور الاشتراكية أى طور الديمقراطية الأخير ، وكلما سمع هذا الاحتياج عظم سلطانه وإن خالف سنن الحياة والاقتصاد ، وهو صورة جديدة لما بين العقل والمشاعر من الصراع الذى قلبا يخرج العقل منه ظافراً .

٣ - ديموقراطية الكتاب والديموقراطية الشعبية .

يمكن رد جميع المبادئ التي قلبت العالم الى ناموسين : النشوء البطيء والتكيف حسب اختلاف النفوس .

ويشبه المذهب ذوات الحياة ، فهو لا يعيش إلا إذا تحول ، وبما أن الكتب لا تذكر هذا التحول فيكون ما تقرره هو طور الماضي ، أى صورة الموت هى التى ترسم فيها لا صورة الحياة .

وقد أثبت في كتاب آخر كيف تتحول النظم واللغات والفنون عندما تنتقل من أمة الى أخرى وبينت درجة اختلاف سنن هذه التحولات عما يرد في الكتب . والذي يجعلنى الآن أشير الى ذلك هو أننى أريد أن أوضح علة عدم مبالاة فى البحث عن الديموقراطية بما يحى في مذاهبها من النصوص وعلة كونى أقصر على التنقيب عن عناصرها النفسية وعن تأثيرها في طبقات الناس الذين ينتحلونها .

يتحول المبدأ الأول بسرعة عند ذوى النفسيات المختلفة . ولا يلبث هذا المبدأ أن يصبح عنوان أمور كثيرة التباين . ويتطابق هذا الرأى المعتقدات الدينية والسياسية ، فعندما يبحث فى الديموقراطية مثلاً يجب تحقيق مدلول هذه الكلمة عند مختلف الأمم وتحقيق الفرق فى الأمة الواحدة بين ديموقراطية الكتاب والديموقراطية الشعبية .

ويسهل علينا ، عند وضعنا الملاحظة المذكورة موضع الاعتبار أن نحقق أن ما يرد فى الكتب والجرائد من الأفكار الديموقراطية لم يكن غير نظريات خالصة يضعها الكتاب ولا يعلم الشعب من أمرها شيئاً ولا يفيد العمل بها . فإذا حاز العامل نظرياً حق اختراق الحواجز التى تفصله عن الطبقات القائمة بالمسابقات والفحوص فإن أمل وصوله الى ذلك عملياً ضعيف جداً .

وليس للديموقراطية الكتاب غاية سوى إيجاد فريق من الناس تتألف منهم طبقة الأمة القائمة . وانما نأسف على تأدية هذه الديموقراطية الى إقامة حقوق مطلقة تخص جماعة مستبدة قصيرة النظر مقام ما للبلوك من الحقوق الالهية ، فالحرية لا تكون باحلال استبداد محل استبداد .

وأما الديموقراطية الشعبية فلا تسعى الى إنشاء فريق من القادة . وهى لشدة اهتمامها بالمساواة وتحسين أحوال العمال ترفض مبدأ الاخاء ولا تبالى بالحرية ، ولا تتصور

شكلاً للحكومات غير الشكل الاستبدادى ، وذلك ما يبدو لنا من هتافها للحكومات المستبدة التى ظهرت منذ نشوب الثورة الفرنسية ومن الطريقة القهرية التى تسير عليها نقابات العمال .

والفرق النفسى بين ديموقراطية العمال وديموقراطية الكتاب ليس بالأمر الخفى ، فالفريقان لا يتكلمان لغة واحدة وصرح رجال النقابات أن الاتفاق لا يمكن أن يسودهما حقاً إن الاتفاق بينهما لا يمكن أن يكون ، وهذا هو السبب فى عدم ظهور مفكرين عظام يدافعون عن الديموقراطية الشعبية منذ زمن أفلاطون .

٤ — التفاوت الطبيعى والمساواة الديموقراطية .

مشكلة التوفيق بين المساواة الديموقراطية والتفاوت الطبيعى من أصعب مشاكل الوقت الحاضر ، وليست أمانى الديموقراطية بجهولة لدينا ، فلنبحث عن جواب الطبيعة عن هذه الأمانى .

اصطدمت المبادئ الديموقراطية ، التى زعزعت العالم منذ عصر البطولة اليونانية ، بما نشأ عن الطبيعة من التفاوت . والمؤلفون الذين قالوا مع هلفيسوس إن التفاوت بين الناس صادر عن الترتيب لقليل العدد . فالطبيعة لا تعرف المساواة وقد وزعت أمور الدهاء والحسن والصحة والقوة والذكاء توزيعاً مختلفاً ، ولا تقدر النظريات على تحويل هذا الاختلاف . فستظل المذاهب الديموقراطية محصورة فى مجال الألفاظ حتى اليوم الذى ترضى فيه نواميس الوراثة بتوحيد أهليات الناس .

وهل يجوز أن نفرض أن المجتمعات تستطيع أن تصنع المساواة التى أنكرتها الطبيعة ؟ استمر بعض النظريين على القول إن الترتيب قادرة على إحداث مساواة عامة ، ولكن التجارب التى وقعت فى عدة سنين أثبتت ضعف نظريتهم .

ويستحيل على الاشتراكية ، عند انتصارها . أن تقم دعائم المساواة بقضائها على أفاضل الناس ، ولا يصعب إدراك مصير أمة أهلكت صفوتها فى زمن تتقدم فيه الأمم المجاورة بما عندها من خيرة الرجال .

وليس أمر الطبيعة مقتصراً على عدم إقرارها بالمساواة ، بل إنها أوجبت تقدم العالم بما أدت إليه من التفاوت الزائد . وهذا التفاوت هو الذى أوجد من خلايا الأدوار الجيولوجية أناساً غيرت اكتشافاتهم وجه الأرض .

و يشاهد مثل ذلك في المجتمعات ، فالديموقراطية التي تصطفى أذكيا الشعب تؤدي في نهاية الأمر إلى وجود أريستوقراطية ذهنية مخالفة لحلم النظرين بخفض عناصر المجتمع الراقية الى مستوى عناصره الدنيا .

والآن يشاهد الناس أنه كلما حاولت القوانين والنظم مساواة الأفراد زاد تقدم الحضارة تفاوتهم . فقد كان الفرق الذهني بين الأمير الاقطاعي والفلاح ضئيلا في العهد السابق . ولكنه أصبح عظيما بين العامل والمهندس في هذه الأيام . وهو أخذ في الزيادة صارت الأهلية عاملا أساسيا للرقى . فذوو الأهلية من كل طبقة يصعدون والعاطلون منها يقفون أو ينزلون . وماذا تفعل القوانين في مقنضيات الزمن التي لا مفر منها ؟

ومن العبث أن يزعم فاقدو الأهلية أنهم أصحاب القوة لكثرة عددهم ، فالقضاء على ذوى الأدمغة العالية التي تفيد العمال بمباحثها يوقع العمال في الفاقة والفوضى .

وما لصفوة الناس من الشأن العظيم في المدينيات الحديثة واضح لا يحتاج إلى إثبات . فعند الأمم المتمدنة والأمم المتأخرة طبقة متوسطة متماثلة . وإنما الذي يجعل الأمم المتمدنة أعلى من الأمم المتأخرة هو ما عند الأمم المتمدنة من صفوة لا نظير لها عند الأمم المتأخرة . وقد أدركت الولايات المتحدة ذلك فأغلقت أبوابها دون عمال الصين الذين يتصفون بأهلية كالتي عند عمال أمريكا ويزاحمونهم في ميدان الصناعة بأجور بخسة .

يزيد النفور بين العوام والخواص كل يوم . ومع أن الاحتياج الى الخواص لم يشتد في وقت اشتداده في زماننا فإن الصبر على هذا الاحتياج لم يصعب في دور مثل صعوبته في الدور الحاضر .

ونعد الحقد الشديد على صفوة الناس من صفات الاشتراكية . وينسى أنصار الاشتراكية أن مبتكرات العلم والفن والصناعة هي سر قوة البلاد وسعادة من فيها من ملايين العمال وأن هؤلاء العمال مدينون لأصحاب العقول السامية الذين أتوا بتلك المبتكرات . فلو أن معجزة جعلت الناس ينتحلون الاشتراكية قبل قرن وقضت هذه الاشتراكية على صفة المخاطرة وإنعام النظر والاستنباط وكل باعث على العمل لأدى ذلك الى الوقوف وفقر العامل . والباعث على القول بالمساواة في البؤس هو ما يغلي في صدور بعض ذوى السخف من الشهوة والحسد . ولن يعدل البشر عن تقدم الحضارة لإرضاء لمثل هذه الأهواء الدنيئة .

الفصل الثاني

نتائج النشوء الديموقراطي

١ — تأثير المبادئ التي لا قيمة عقلية لها في النشوء الاجتماعي .

٢ — الروح العنقودية والنفسية التي نشأت عن المعتقدات الديموقراطية .

٣ — الانتخاب العام ومتخوبه .

٤ — الاحتياج الى الاصلاح .

٥ — الفروق الاجتماعية بين أنواع الديموقراطية .

١ — تأثير المبادئ التي لا قيمة عقلية لها في النشوء الاجتماعي

بيننا في الفصل السابق أن السنن الطبيعية لا تلائم الأمانى الديموقراطية ، ومن الأمور المعلومة أن لا تأثير لهذه الحقيقة في المبادئ الراسخة في النفوس ، فالإنسان لا يبالي بما في المعتقد الذي يسيره من القيمة الحقيقية ، والفيلسوف الذي يبحث عن هذا المعتقد وإن وجب عليه أن يجادل في قيمته العقلية ينبغي أن ينقب أيضاً عن تأثيره في النفوس . وتبدو أهمية هذا التقسيم عند الاستعانة به على تفسير المعتقدات التي ذكرها التاريخ ، فمع أن المشتري ومولوخ وفيشنو وغيره من الآلهة خيالات من الجهة العقلية كان شأنها عظيماً في حياة الأمم ، وكذلك كان شأن المعتقدات التي سادت القرون الوسطى وحت ظهور ألوف الناس أمام الهياكل ، ومن هو في شك من ذلك فليقابل بين تغلب الدولة الرومانية وتغلب الكنيسة : فقد كان تغلب الرومان ملبوساً لا ريب فيه وكان تغلب الكنيسة قائماً على أسس وهمية ، إلا أنه اتفق لتغلب الكنيسة من السلطان القوى ما اتفق لتغلب الرومان ، ففي القرون الوسطى المظلمة نالت به الأمم الهمجية ما لا تقوم حضارة على غيره من الروادع الاجتماعية والروح القومية ، ويثبت هذا السلطان الذي نالته الكنيسة قدرة بعض الأوهام على إيجاد مشاعر مخالفة لمنافع الفرد والمجتمعات كالرهبانية والحروب الصليبية وحروب الدين الخ

واذا عرضنا الملاحظات السابقة على المبادئ الديمقراطية والاشتراكية ظهر لنا أن نجاح هذه المبادئ لا يتطلب قيامها على أساس متين وإنما يكفها أن تبسط سلطانها على القلوب .

ومن الخطأ أن يكلف دعاة المذاهب الجديدة أنفسهم عنا البحث عن أساس عقلي يفسرون به أمانهم . فثأيرهم يكون أتم وأكمل إذا اقتصروا على التوكيد وبث الآمال ، وما قوتهم إلا في النفسية الدينية الملازمة لقلب الانسان والتي لم تغير سوى المواضيع في مختلف الأجيال . وقد قلنا عندما تكلمنا عن الكنيسة في القرون الوسطى إنها قدرت على التأثير في نفوس الناس . فعندما يتحقق شيء من آمال المذاهب الديمقراطية نرى أن سلطانها ليس أقل من سلطان الكنيسة في القرون الوسطى .

٢ — الروح اليقينية والنفسية التي نشأت عن المعتقدات الديمقراطية .

لم يقتصر ميراث الأجيال الحديثة على المبادئ الثورية بل اشتمل على النفسية التي أوجبت انتصار هذه المبادئ .

ولقد وصفنا هذه النفسية ، عند البحث في الروح اليقينية . فأثبتنا أنها تميل إلى إرغام الناس على قبول أوهايمها التي عدتها حقائق . ولم تلبث الروح اليقينية أن عمت فرنسا والبلدان اللاتينية الأخرى فاستحوذت فيها على أحزابها ومنها الأحزاب المحافظة .

نتيجة انتشار الروح اليقينية هي حمل الناس على المبادئ السياسية والنظم والقوانين قسراً . وهذا هو السر في أن المذهب النقابي ، الذي هو سلبى ومنظم في البلاد الأخرى ، لم يلبث أن نهج عندنا نهجاً فوضوياً متجلياً في صورة اضطرابات وحرق وتخريب .

وإذا استولى الخوف على الحكومات فلم تكبح جماح الروح اليقينية أفسدت هذه الروح أصحاب العقول الصغيرة . فلما وافق تلك المندوبين في مؤتمر المعدنين الأخير على سياسة التخريب قال أحد كتاب المؤتمر : « أهدى الى كل من يعمل بسياسة التخريب من العمال سلامي الأخوى وإعجابي القلبي . »

وتوجب هذه الذهنية العامة زيادة الفوضى في البلاد . وإذا لم تكن فرنسا الآن في ثورة مستمرة فذلك لما هو واقع بين أحزابها من توازن . نعم إن كل حزب فرنسي مفعم من الحقد الشديد على الأحزاب الأخرى . ولكن لم يملك واحد من هذه الأحزاب قوة كافية لاختضاع غيره .

وقد سارت الروح اليعقوبية في البلاد مسيراً جعل حكامنا أنفسهم يتذرعون بأشد الوسائل الثورية لقهر خصومهم فاضطهدوا هؤلاء الخصوم وجردوهم من أموالهم من غير أن تحتاج الأحزاب على ذلك ، وما أشبه سير حكامنا في الوقت الحاضر بسير الفاتحين في القرون القديمة حين لا أمل للمغلوب .

إذن ليس عدم التسامح خاصاً بالعوام بل يشاهد أيضاً عند ولادة الأمور ، وقد لاحظ ميثله منذ زمن طويل أن استبداد المتعلمين أشد من استبداد العوام في بعض الأحيان . ولا ريب في أن المتعلمين لا يكسرون المصاييح . ولكن سرعان ما يسهل عليهم ضرب الرقاب ، فالتعلمون والأساتذة والمحامون الذين ظن أن ما نالوه من التهذيب المدرسي لين طباعهم هم الذين اقتروا أشد المظالم أيام الثورة الفرنسية . ولم يطف التعليم طباع الناشئة في الوقت الحاضر أكثر من ذي قبل . وهذا يظهر من قراءة الجرائد والرسائل التي ينشرها أساتذة الجامعات . فيسأل القارى متعجباً كيف اشتعل الحقد في قلوب هؤلاء الذين حالفهم الحظ الحسن .

ولم يكونوا صادقين في قولهم إن محبة الغير هي التي تدفعهم الى ذلك فروحهم الدينية الضيقة وشوقهم إلى الشهرة هما سبب ما ينشرونه من رسائل الدعوة ، وقد استشهدت في مؤلف آخر بعبارات أحد أساتذة مدرسة فرنسة (كولييج دوفرانس) التي جاءت في أحد كتبه وحرّض فيها الشعب على نهب أموال الطبقة الوسطى التي يلعبها فلستنتجت منها أنه إذا اشتعلت ثورة جديدة سهل عليها أن تجد بين مؤلفي تلك الرسائل أعواناً مثل مارا ورويسير وكاريه .

وإذا نفدت شؤون المذاهب الدينية السابقة فان حقبة المبادئ الديمقراطية لا تزال ملائ . ونرى أنه يخرج منها كل يوم شيء جديد ، ونعد الحقد على الأفضليات من أهم ما خرج منها . وقد عم الحقد على كل من يجاوز المستوى المتوسط فكان من نتائج هذا الحقد شيوع الحسد والغيبة والميل الى الهجو والسخرية والجفاء وارتكاب الدنيايا ووجود الصدق والنزاهة والذكاء . ومن يدقق في أحاديث المتعلمين والشعب يعلم أنهم ينتقصون فيها أكابر الرجال ويحطون من قدرهم . ولم ينبج أعظم الموتى من أن يكونوا عرضة لمثل ذلك الانتقاص ، فلم تؤلف كتب أكثر من التي استصغرت فيها قيمة المشاهير الذين عدوا في الماضي أثمن ميراث حوته البلاد .

والحسد والحقد ، كما يظهر ، قد لازما مبادئ الديمقراطية في كل زمن ، ولكن لم يكثريشيوعهما في وقت كثرته اليوم ، وما خفى ذلك على المدققين ، قال مسيو بوردو :

« نرى اليوم غريزة سافلة ثورية عاطلة من حلية الأدب لا غاية لها سوى خفض البشر الى الدرك الأسفل ، وهى تعد كل أفضلية ، ولوعلية ، خروجاً على المجتمع ، فهذا الميل اللثيم الى المساواة هو الذى كان مشتتلاً في قلوب اليعاقبة السفاكين حينما قطعوا أعناق لافوازيه وشيذه وغيرهما . »

وليس الحقد على الأفضليات ، العامل على انتشار الاشتراكية الآن ، هو كل ما تتصف به الروح الجديدة الناتجة عن المبادئ الديمقراطية ، بل نرى عوامل أخرى مهمة تقوى بها هذه الروح . وهذه العوامل هى : تقدم المذهب الحكومى وتناقص ما عند الطبقة الوسطى من النفوذ والقوة وزيادة تأثير الملايين وتنازع الطبقات واضمحلال الروادع الاجتماعية القديمة وانحطاط الآداب .

ومثل الحركة الاجتماعية في زيادة سرعتها كمثل الحركة الميكانيكية ، فأمرها يتفاقم من يوم الى آخر ، ويتجلى هذا التفاقم فيما يقع كل يوم من الحوادث كاعتصاب المعدنين وموظفى البريد وانفجار المدرعات الخ . قال مسيو دولانيسان أحد وزراء بحريتنا السابقين بمناسبة تحطم المدرعة الليبرته التى قيمتها خمسون مليون فرنك والتى هلك فيها مئتا رجل في دقيقة واحدة :

« إن المرض الذى يقوض أسطولنا هو كالأذى يقوض جيشنا وإدارتنا ودواويننا ونظامنا النيابي ونظامنا الحكومى ومجتمعنا برمته ، وهذا المرض هو الفوضى أى ارتباك النفوس وسائر الامور ارتباكاً تنجز به الأعمال على وجه غير معقول ويسير به كل امرئ على وجه ينافى الواجب والآداب . »

وقال رئيس بلدية باريس مسيو فليكس روسل : « ليست بحريتنا علة دائمة ، بل إن هذه العلة أعم . وتلخص في ثلاث كلمات : عدم التبعية وقلة النظام والفوضى . »
وبدل ذلك على أن أشد المدافعين عن النظام الجمهورى يعترفون بتدرجنا الى الانحلال الاجتماعى شاعرين بعجزهم عن تلافيه ، وعلة هذا العجز صدور ذلك الانحلال عن مؤثرات نفسية أقوى من عزائمنا .

٣ - الانتخاب العام ومُنْتَحَبُوهُ .

الانتخاب العام هو أحد المبادئ الديمقراطية الجوهرية الفتاة، فبدأ المساواة يتجلى فيه بتساوى الأغنياء والفقراء والعلماء والجهلاء والوزراء والأجراء ساعة أمام صندوق الانتخاب، وقد خافت الحكومات كلها، ومنها حكومات الثورة الفرنسية، أمر الانتخاب العام، ومن ينعم النظر فيه ير أول وهلة إمكان الاعتراض عليه. وما تأباه النفوس توهم قدرة العوام على انتخاب رجال صالحين للحكم أى قدرة أناس قليلي المعرفة والنهذيب محدودى النظر على نيلهم بكثرة العدد أهلية يحسنون بها التمييز بين المرشحين. وإذ إنه يتعذر أن يحل فى الوقت الحاضر أى نظام محل الانتخاب العام وجبت ملائمة، ولا يفيد الاحتجاج عليه والقول مع الملكة ماري كارولين أيام محاربتها نابليون: « لا شئ أحق بالملت من حكم الناس فى هذا الزمن الذى ينقب الاساكفة فيه عن عورات الحكومة ويسخرون منها. »

والحق إن كل اعتراض على الانتخاب العام ليس له من القوة ما يبدو أول وهلة. فلما ثبتت عندنا صحة سنن روح الجماعات صرنا نشك فى أن اتخاذ طريقة الانتخاب المحدود يؤدى الى اختيار رجال أفضل من الذين يتم اختيارهم حسب طريقة الانتخاب العام، فلك السنن تدلنا على أن الانتخاب الموصوف بالعام ليس الا وهماً، لأنه لما كان رأى الجماعة هو فى الغالب رأى زعمائها، كان ذلك الانتخاب أضيق انتخاب. وهنا الخطر كله، فالزعماء القابضون على زمام هذا الانتخاب هم صنائع لجان محلية صغيرة مشابهة لأندية الثورة الفرنسية الكبرى وهم الذين ينتخبون النائب، ومتى يكمل انتخاب هذا الأخير يصبح ذا سلطة محلية مطلقة على أن ينظر الى مصالح تلك اللجان، وذلك ما ينسيه منفعة البلاد العامة.

تحتاج اللجان الى اناس مطيعين، فلا تنتخب للنياية رجالا ذوى ذكاء عال وأدب رفيع. وإنما تنتخب لها أناساً من ذوى الأخلاق الهينة الذين ليس لهم مكانة اجتماعية، ويخضع النائب لتلك اللجان، التى هى مبعث شهرته، خضوعاً تاماً فيقول ما تقول ويعمل حسبما تأمره ويمكن تلخيص ما يدعو اليه خياله السياسى بكلمة « طع تدم »، على أنه قد يحدث، أن يستأثر بعض الرجال بما لهم من الشهرة أو المنزلة أو الثروة بأصوات الشعب من غير أن تتدخل اللجان المحلية الواقعة فى ذلك.

إذن ليس الانتخاب العام في بلاد ديمقراطية كفرنسة في غير الظاهر ، وهذا هو السر في وضع كثير من القوانين التي لا منفعة للامة فيها كقانون اشتراء سكك الغرب الحديدية والقوانين التي سنت ضد اليسوعيين ، ولا تعبر هذه الأمور عن غير ما أملتة اللجان المحلية المتعصبة على النواب من المطالبين .

ويبدو تأثير اللجان المذكورة عند الاطلاع على اضطرار أكثر النواب اعتدالا الى الدفاع عن الفوضويين الذين يخربون دور الصناعة وعلى انفاقهم مع القائلين بعدم التجديد وعلى قبولهم أنحس المطالبين طمعاً في تجديد انتخابهم .

٤ - الاحتياج الى الاصلاح

الميل الى الاصلاح بوضع المراسيم من أشد ما انصفت به الروح اليقوية شوماً وأعظم ما ورثناه من الثورة الفرنسية خطراً وهو أحد العوامل الاساسية التي أدت الى ما وقع في فرنسة من الانقلابات منذ قرن .

ومع أننا منذ أربعين سنة باصلاحات جديدة بأن يدعى كل واحد منها ثورة صغيرة ، لانزال أقل امم اوربة تحولا ، وقد تكون تلك الاصلاحات سبب هذا التحول البطيء ، ويتجلى لنا هذا البطوء عند النظر الى ما عند الأمم من عناصر الحياة الاقتصادية والاجتماعية أى ما عندها من تجارة وصناعة الخ . إذ يظهر لنا أن تقدم كثير من الأمم ، ولا سيما الامة الألمانية ، عظيم مع أننا نمشى الهوينا ، فقد شاخ نظامنا الإدارى والصناعي والتجارى كثيراً وأصبح غير ملائم لمقتضيات الوقت الحديث ، فصناعتنا صارت قليلة الفائدة وبحريقتنا التجارية أصبحت مشرقة على السقوط ، وها نحن لا نقدر على مزاحمة المصنوعات الأجنبية في مستعمراتنا ، وقد أوضح وزير التجارة السابق مسيو كروبي هذا السقوط المحزن في كتاب وضعه حديثاً فرأى أن النظم قادرة على معالجته ، وعلى هذا الرأى جميع المشتغلين بالسياسة . ولذلك قلّ تقدمنا . فكل حزب يعتقد أن الاصلاحات تداوى الأمراض ويسوق هذا الاعتقاد الأحزاب الى مخاصمات تجعل فرنسة أكثر بلاد العالم انقساماً وطعمة للفوضى .

ولا نزال غافلين عن الحقيقة الدالة على أن قيمة الامة بأفرادها ومناهجهم لا بانظمتها ، فليست الاصلاحات الشافية هي الاصلاحات الثورية بل التي تتراكم مع الزمن ، وتم الانقلابات الاجتماعية الكبيرة مثل الانقلابات الجيولوجية بما يتجمع كل يوم من

العوامل الصغيرة ، وقد أثبت لنا تاريخ المانيا الاقتصادى منذ أربعين سنة صحة هذا الأمر وما اكثرت الحوادث العظيمة التابعة لنا موس تجمع العوامل الصغيرة ، فقد تنتهى المعركة الفاصلة أحياناً فى يوم واحد ، ولكن النجاح فيها لا يتم إلا بما سبقها من الجهود الدقيقة المتراكمة ببطء ، وقد رأينا ذلك سنة ١٨٧٠ ورآه الروس أخيراً ، فع أن أمير البحر توغو أباد الاسطول الروسى فى واقعة تسوشما التى توقف عليها مصير اليابان فان الوفاً من المؤثرات الصغيرة البعيدة أوجبت هذا النصر ، وليست العوامل التى نشأ عنها انكسار الروس أقل من ذلك ونعد منها : نظامهم القرطاسى المعقد المؤدى ، مثل نظامنا ، الى عدم المسؤولية ، ومنها عددهم الحرية التى يرثى لها على رغم ابتياعها بذهب يعدل وزنها ، ومنها نظام الجوائز للموظفين ، ومنها قلة المبالاة بمصالح البلاد .

والجزئيات التى تتألف عظمة الأمة منها هى من الخفاء بحيث لا تؤثر فى الجمهور ولا يصلح الاشتغال بها لقضاء منافع السياسيين الانتخابية ، فلا يلتفت هؤلاء اليها تاركين البلاد التى القت اليهم مقاليد أمورها تتدرج الى الانحلال فالى الأقراض .

• — الفروق الاجتماعية بين أنواع الديمقراطية .

ظن الناس ايام الانقسام الى قبائل والتفاوت فى الأنساب أن الفروق الاجتماعية صادرة عن سنة طبيعية ، ولكن عندما زالت الفروق الاجتماعية القديمة ظهر أن الفرق بين الطبقات أمر مصنوع لا يطاق فرأت الأمم الديمقراطية أن تتلافى ذلك بأحداث مراتب مصنوعة يستطيع نائلها أن يتحلل بها أفضلية على غيره . وما فشا الطمع فى الألقاب والأوسمة فى زمن فشوه اليوم .

ولا تأثير للألقاب والأوسمة فى البلدان الصحيحة الديمقراطية كالولايات المتحدة ، وإنما يتفاوت فيها الناس فى المال ، وقد يحدث أن فتيات مثرات يقترن فيها بذوى الألقاب الأريستوقراطية الأوربية ، وهكذا يفعلن بغرائهن ما يجعل أمة فتاة كالولايات المتحدة تنال ماضياً ضرورياً لثبات مزاجها الأدبى .

وإذا نظرنا الى الأريستوقراطية التى نشاهد ظهورها فى امريكة من حيث العموم رأينا أنها لم تقم على الألقاب والأوسمة بل على المال ، ولهذا لا تلقى هنالك فى القلوب حسداً كبيراً ، فكل أمرىء فى امريكة يطمع أن ينال منه قسطاً كافياً فى أحد الايام . وقد كان توكفيل يجهل ، عندما ذكر رغبة الامريكيين فى المساواة فى كتابه الباحث

عن الديمقراطية ، أنه سينشأ عن هذه المساواة المنتظرة تقسيم الناس الى طبقات حسب ما يملكونه من الدولارات ، ولا بد من حدوث ذلك في اوروبا يوماً ما .

وليس في الوقت الحاضر ما يسمح لنا أن نعد فرنسا بلداً ديمقراطية ، وهنا نرى أنفسنا حيال ضرورة البحث عما ينطوي تحت كلمة الديمقراطية من الأفكار التي تختلف باختلاف البلدان .

وعندنا أنه ليس في العالم بلاد صحيحة الديمقراطية غير انكلترا وأمريكا ، فهذان البلدان وإن تجلت فيهما الديمقراطية على شكلين مختلفين يشاهد فيهما مبادئ واحدة ، ولا سيما مبدأ التسامح المطلق مع جميع الآراء والأفكار ، ولكل امرئ في هذين البلدين اللذين لا عهد لهما بالاضطهادات الدينية أن يتخذ المهنة التي تروقه مهما كان عمره ، من غير أن يقوم أى حاجز في وجهه .

ويعتقد الناس في ذينك البلدين أنهم متساوون لعلهم أنه لا شيء يمنعهم من الوصول الى أعلى المراتب فالعامل فيهما يعلم أنه يستطيع أن يكون عربفاً فهندساً ، واذ كان من الواجب على المهندس أن يبدأ فيهما بالصعود من أسفل الدرجات ، لا أن يصعد الى أعلاها دفعة واحدة . كما يقع في فرنسا ، فانه لا يعتبر نفسه من جوهر غير جوهر الناس ، وهذا هو السر في كون الحقنء ، الشديد الشيوع عندنا ، لم ينتشر في انكلترا وأمريكا إلا قليلا .

ولا محل للديموقراطية الفرنسية الا في الخطب ، وما في فرنسا من أنظمة المسابقات والامتحانات التي يضطر المرء وهو شاب الى معاناتها يسد في وجهه أبواب المهن ويحدث في صميم الأمة الفرنسية طبقات متبانية متخاصمة .

وعلى ذلك نرى أن الديمقراطية اللاتينية أمر نظري ، وبتعبير آخر : قد حل الاستبداد الحكومى عندنا محل الاستبداد الملكى ولم يكن أقل قسوة منه ، وقد قامت الارستوقراطية المالية في بلادنا مقام ارستوقراطية النسب ، ولم تكن امتيازاتها أخف وطأة .

والفرق بين الملكية والديموقراطية في الشكل أشد عما في الأصل ، ويتبع الفرق الحقيقي بين نتائجهما ما عند الناس من النفسية المتحولة ، ولا فائدة من المجادلات في قيمة مختلف الأنظمة التي تكون قيمتها بقيمة المرؤوسين ، وتكون الأمة على شيء عظيم من الرقي إن علمت أن منزلتها بنسبة الجهود التي يقوم بها أفرادها لا بنسبة جهود حكوماتها .

الفصل الثالث

الاشكال الحديثة للمعتقدات الديمقراطية

- ١ - النزاع بين رأس المال والعمل .
- ٢ - نشوء طبقة العمال والحركة النقابية .
- ٣ - لماذا تتحول بعض الحكومات الديمقراطية الحديثة بالتدريج الى طوائف ادارية

١ - النزاع بين رأس المال والعمل .

بينما يخطط المسترعون في أمر الاصلاح والاشتراك يتدرج العالم ببطء في مجراه الطبيعي فتحدث منافع جديدة ويعظم ما بين الأمم من المزايدات الاقتصادية ويقوم العمال بضروب الفتن وتظهر مشاكل مخيفة لا تحلها خطاب رجال السياسة .

وأعقد المشاكل الجديدة ما يقع بين العمل ورأس المال من نزاع ، ولا يخلو بلد من ذلك حتى البلاد ذات التقاليد كالكثرة ، فقد عدل العمال عن احترام العقود وأخذوا يعتصمون لأسباب تافهة وبلغت البطالة والعوز مبلغاً يقلق البال وسرت عدوى الاعتصاب الى امريكا فعاشت صناعاتها ، ولكن استفحال الداء فيها أدى الى إيجاد الدواء ، فنظم رؤساء الصناعات بينهم موافقات كبيرة أصبحت من القوة بحيث تقدر على إلزام العمال طرقها التحكيمية .

وعما يزيد مشكلة العمال صعوبة في فرنسا اضطرارها ، من أجل تناقص مواليدها ، الى قبول عدد كبير من عمال الأجانب ، وينتج عن ذلك التناقص أيضاً صعوبة محاربة الأمم المزايدة التي سوف تلجئها قلة حقوقها الى الاستيلاء على البلدان القليلة السكان سائرة على أقدم ناموس عرفه التاريخ .

وسيشند النزاع بين العمال والمستصنعين أكثر من ذي قبل عندما يتفاقم النزاع الاقتصادي بين الآسيويين ذوي الحاجات الضعيفة والقادرين على الانتاج بأبخس الأثمان

وبين الأوربيين ذوى الحاجات العظيمة، وقد أشرت الى أهمية هذا الأمر منذ خمس وعشرين سنة، وجاء فى كتاب للجنرال هاملتون الملحق الحربى فى الجيش اليابانى، الذى أخبر بانتصار اليابان قبل وقوع الحرب الروسية اليابانية، ما يأتى :

« إن الصينى كما بدا لى فى منشورية قادر على إبادة العامل الأبيض فى الوقت الحاضر، ولا يفكر الاشتراكيون الذين يبشرون بالمساواة فى ما تودى اليه نظرياتهم، فهل النوع الأبيض صائر إلى الانقراض؟ إبنى على ما فى من عجز وقلة بضاعة أرى أن مصيره يتوقف على عدم إصغائنا إلى الخطب القائلة إن التأهب للحرب أمر مضر لا فائدة فيه . »
« وإبنى أنصح العمال أن ينظروا بعين البصيرة الى شؤون العالم فى هذا الوقت فيبذروا فى قلوب أولادهم حب الحرب ويرضوا بما ينشأ عن الروح العسكرية من المحن وأن لا ينوا فى محاربة العمال الجدد المزارحين، ولا يمنع الآسيويين عن الهجرة وخفض الأجور وعن الإقامة بين ظهرائنا غير الحسام، فإذا لم ينتبه الأمريكيون والأوربيون الى أن بقاء منزلتهم الممتازة متوقف على ما عندهم من قوة السلاح لم تلبث آسية أن تنتقم منهم . »
ومن الأمور المعلومة أن هجرة الصينيين واليابانيين إلى إمريكا أصبحت بما أوجبته من المزاخمة للعمال البيض كارثة وطنية، وقد أخذ أولئك يهاجرون الى أوربة أيضاً، ولكن هذه الهجرة لم تنسج بعد، على أن لمهاجرى الصين مستعمرات مهمة فى بعض المدن الأوربية ككندن وكارديف وليفربول الخ، وقد أحدث وجودهم فيها واشتغالهم بأثمان بخسة فلاقى كثيرة .

٢ — نشوء طبقات العمال والحركة النقابية .

ربما كان نشوء العمال الحديث الناشئ عن الحركة النقابية اكبر المشاكل الديموقراطية الحاضرة واعظمها شأنًا، وقد انتشر المذهب النقابى القائم على تجمع المنافع المتماثلة فأصبح علمياً، ولبعض النقابات ميزانيات تعدل ميزانيات الحكومات الصغيرة، ونذكر على سبيل المثال أن نقابات المانية بلغ دخلها واحداً وثمانين مليوناً، وبدل شيوع الحركة النقابية فى جميع البلدان على أنها ليست كالاشركية بدعة خيالية، بل هى نتيجة لمقتضيات الاقتصاد، ولا قرابة بين المذهب النقابى والاشركية من حيث الغاية ووسائل العمل، وقد أوضحت ذلك فى كتاب روح السياسة، فأكتفى الآن بتلخيص الفرق بينهما فى بضعة أسطر :

ترغب الاشتراكية في الاستيلاء على الصناعات وتسليم إدارتها الى الحكومة على أن توزع الحكومة منتجاتها بين أبناء الوطن على السواء ، وأما النقابية فانها بالعموم ترغب في إبطال تدخل الحكومة وتود تقسيم المجتمع الى طوائف مهنية مستقلة .

ومع أن النقابيين يسخرون من الاشتراكيين ويصارعونهم فان الاشتراكيين لم يألوا جهداً في كتم هذا الصراع ، ولكنه أصبح من الظهور بحيث يتعذر إخفاؤه ، وسوف يخسرون قريباً ما لهم من النفوذ السياسي ، والسبب في توسع النقابية على حساب الاشتراكية هو تأليفها بين الاحتياجات المتولدة عن الاختصاص الصناعي في الوقت الحاضر .

حقاً أننا نرى ظهور المذهب النقابي في بيئات مختلفة ، ولم ينل هذا المذهب نجاحاً في فرنسا كما في البلدان الأخرى ، فقد أدى لبسه ثوباً ثورياً في فرنسا الى سقوطه مؤقتاً بين أيدي فوضويين لا يباليون بأى نظام ولا يفعلون غير اتخاذ المذهب المذكور آلة لتقويض دعائم المجتمع الحاضر ، وهكذا يتعاون الاشتراكيون والنقائيون والفوضويون عندنا ، مع اختلاف مبادئهم ، على محق الطبقات المسيرة للامة ونهب أموالها .

ولا تشق المبادئ النقابية من مبادئ الثورة الفرنسية ابداً ، وكثيراً ما تناقضها مناقضة تامة ، فالمذهب النقابي يأمر بالرجوع الى أنظمة إلية قديمة من أنظمة طوائف المهن التي قضت عليها الثورة الفرنسية ، وهو من الموانقات التي حرمت تلك الثورة تأسيسها ، إذ يرفض النظام المركزي الذي أقمته الثورة المذكورة .

ولا يبالي المذهب النقابي بواحد من المبادئ الديمقراطية الثلاثة أى الحرية والمساواة والاخاء ، بل تطالب النقابات أعضائها بالخضوع المطلق المبطل لكل حرية .

وليس عند النقابات من القوة ما يكفي لبغى بعضها على بعض ، ولذلك نراها تتقابل كالأخوة ، ولكن لا بد من تطاحن منافعتها المتباينة عندما تنال ما تصبو اليه من القوة ، وذلك كما حدث أيام العهد النقابي في الجمهوريات الإيطالية ، فوفتند تنسى ما تبديه اليوم من الاخاء ويحل محل المساواة استبداد نقابي .

ويظهر أن ذلك الوقت قريب ، فالسلطة النقابية تعظم بسرعة ، ولا ترى أمامها سوى حكومات عزلاء لا تدافع عن نفسها بل تخضع لمطالب النقابات .

وقد استعازت الحكومة الانكليزية أخيراً بهذه الطريقة في نزاعها مع نقابة المعدنين التي أُنذرت انكساراً بوقف حياتها الصناعية إذا لم تحدد أصغر أجره يأخذها المنتسبون اليها من دون أن يحدد أصغر عمل يقومون به ، ومع أنه لم يكن هنالك ما يسوغ قبول

هذا الطلب فقد رضيت الحكومة بأن تقترح على البرلمان أن يضع قانوناً موافقاً له ، وما ألقاه مستر بلفور من الكلام الرزين في هذا الموضوع أمام مجلس النواب جدير بانعام النظر ، قال مستر بلفور :

« إن بلادنا ذات التاريخ الطويل الحافل بجلال الخواثل لم تجد نفسها إزاء خطر داهم كالخطر الحاضر ، ومصدر هذا الخطر هو تلك النقابة التي تهدد صناعة مجتمعنا وتجارتها بالفالج مع أن حياة هذا المجتمع قائمة على ما فيه من مصانع ومتاجر .

« ولا حد لسلطة المعدنين تحت ظل القانون الحاضر ، فهل كان لنا عهد بمثل ذلك ؟ ، وهل ظهر في بلادنا أمير إقطاعي أشد بغياً من هؤلاء ؟ ، وهل وجدت موافقة أمريكية سخرت من المصلحة العامة مستعينة بما خولها القانون من الحقوق نظير أولئك ؟ . إن مافى قوانيننا ونظامنا الاجتماعي وفي الصلات المتبادلة بين صناعاتنا ومهننا من الكمال يلقينا أكثر من كل جيل سابق ، إلى الخطر العظيم المهدد بالمجتمع في هذا الزمن ، وهانحن نشاهد المظهر الأول لقوة العناصر التي سوف تغمر المجتمع إذا لم يحذر منها ، ويدل الطور الذي به تدعن الحكومات لمطالب المعدنين على انتصار أولئك الذين يقومون في وجه المجتمع . »

٣ — لماذا تتحول بعض الحكومات الديمقراطية الحديثة بالتدريج إلى طوائف إدارية

إن ما ينشأ عن المبادئ الديمقراطية من الفوضى والمنازعات الاجتماعية يسوق بعض الحكومات إلى تحول مفاجئ . قد ينتهي بجعل سلطتها اسمية فقط ، ويقع هذا التحول الذي نلخص نتائجه الآن بتأثير بعض العوامل المهيمنة :

تتألف حكومة البلاد الديمقراطية من نواب قد تم اختيارهم حسب طريقة الانتخاب العام ، فهم الذين يسنون القوانين ويعينون الوزراء ويسقطونهم ، ولا يمضي وقت قصير على تسلم الوزراء زمام الأمور حتى يبدلوا . ولما كان من يحل محلهم من الوزراء ينتسبون إلى حزب آخر فانهم يحكمون بمبادئ مخالفة لمبادئ سابقهم .

والذي يظهر أول وهلة أن القرار والدوام لا يكونان في بلاد تتجاذبها مؤثرات متباينة كثيرة . ولكنتنا مع هذا التذبذب ، نرى أن أمر حكومة ديمقراطية مثل الحكومة الفرنسية مستقيم بعض الاستقامة ، فكيف نفسر هذه الحادثة ؟ نفسرها بقولنا إن الوزراء وإن ظهر أنهم يحكمون ليس يسيرون في سبيلهم من الحكم سوى شيء يسير وينحصر سلطانهم فيما يلقيه من الخطب التي قل من يصغي إليها وفي بضعة تدابير فاسدة وإن خلف سلطة الوزراء

السطحية العاطلة من القوة والدوام والتي هي العوبة ييد المشتغلين بالسياسة سلطة خفية أخذت في النمو ، أعنى سلطة الادارات ، فلهذه السلطة ذات التقاليد والمراتب والمتصقة بالاستمرار قوة اعترف الوزراء بعجزهم عن مناهضتها (١) وقد بلغ تجزؤ المسؤولية في الادارات مبلغاً جعل الوزراء لا يرون أمامهم من هو ذو شخصية كبيرة ويقوم أمام عزائمهم الموقفة ما يعترض به عليهم من الأنظمة والعادات والأحكام فيوجب عدم علمهم هذه الأمور قعودهم عن الافدام على خرقها .

ولا بد من تناقص ما للحكومات الديمقراطية من السلطة . ومن نواميس التاريخ الثابتة يتضح أنه متى عظمت شوكة إحدى الطبقات . كطبقة الأشراف أو الأكليروس أو الجيش أو الشعب . لا تلبث أن تستعبد الأخرى . فعلى هذا الوجه صارت الجيوش الرومانية تعين الامبراطرة وتسقطهم . وقد لقي الملوك مصاعب شديدة في مكافحة الأكليروس . وابتلع مجلس النواب السلطة أيام الثورة الفرنسية ثم حل محل الملك . ونرى أن طائفة الموظفين ستكون دليلاً جديداً على صحة هذا الناموس . فها هي قد أخذت ، بعد أن عظم أمرها . ترفع صوتها وتهدد وتعصب . ومن ذلك اعتصاب موظفي البريد واعتصاب موظفي سكك الحكومة . وهكذا يتألف من السلطة الادارية دولة صغيرة في وسط الدولة الكبيرة ، ولا بد من استئثار السلطة الادارية بالسلطة الحقيقية إذا استمرت على نشوءها الحاضر ، فتكون نتيجة ما قمنا به من الثورات انتقال السلطة من الملوك الى طائفة خفية مستبدة غير مسؤولة من الموظفين .

يستحيل اكتشاف عاقبة المعارك التي تذرنا بالأفول ، وينبغي أن لا نتفأل أو تتطير بل أن نقول : إن الضرورة لا تلبث أن توازن الأمور . فالعالم يجد في سيره من غير أن يبالي بما نلقيه من الخطب ، ولا شك في توصلنا الى ملامة تقلبات البيئة المحيطة بنا عاجلاً كان ذلك أم آجلاً ، وإنما الصعوبة كلها في الانتهاء الى هذه الملامة من غير اصطدام ثم في مقاومة أو هام الخياليين الذين خربوا العالم غير مرة حينما عجزوا عن تجديده ، ذهبت اثينة ورومة وفلورنسة وغيرها من المدن التي أضاعت التاريخ ضحية أولئك النظريين الخطرين الذين كانت نتائج أفعالهم واحدة : فوضى فحكم مطلق فانقراض .

(١) اشار الوزير كروني في كتاب نشره حديثاً الى هذا المعجز فقال : « إن الدواوين تثل عزائم اولى العزم من الوزراء فيعدلون عن مناهضتها . »

ولا تنفع هذه الدروس المؤتمرين الكثيرين في الوقت الحاضر ، فلا يزالون يجهلون أن الفن التي أثارها أطعمهم تنذرهم بالويل والثبور ، وقد بذروا في نفوس الجماعات آمالا يتعذر تحقيقها وحركوا شهواتها وقوضوا الروادع التي أقيمت في قرون كثيرة لجزر أمثالهم . وإن مقاتلة الجماعات العمياء لصفوة الرجال من الأمور التي جرت سنة التاريخ عليها ، وما أكثر المدنيات التي قضى عليها انتصار الحكومات الشعبية ، فالخواص يبنون والعوام يهدمون ، ومتى يضعف أولئك يظهر تأثير هؤلاء المقدس .

ولم تقدم الحضارات العظيمة إلا بالتغلب على العوام ، ولم ينشأ عن الاستبداد الديموقراطي فوضى فحكم مطلق فغارات اجنيدية ففقد استقلال في بلاد اليونان وحدها بل إن الاستبداد الفردي عقب استبداد الجماعات في كل زمن ، فهو الذي زعزع عظمة رومة وأدى الى قضاء البرابرة عليها .



الخلاصة

بحثنا في هذا المؤلف عن الثورات المهمة التي زلزلت بنيان التاريخ ، ولكننا فصلنا على الخصوص أمر الثورة الفرنسية التي هي أهمها لقلبها أوروبا مدة عشرين سنة ولأن صداها لا يزال يرن .

وهذه الثورة مصدر وثائق نفسية لا ينضب معينها ولا نعلم دوراً تاريخياً جمع تجارب كثيرة في وقت قصير مثل دورها .

وقد وجدنا في كل صفحة من صفحات هذه الفاجعة مجالاً لتطبيق ما بيناه في مؤلفاتنا المختلفة من المبادئ الدالة على ما عند الجماعات من الروح الموقنة وعلى ما عند الشعوب من الروح الثابتة وعلى تأثير المعتقدات وشأن المؤثرات الدينية والعاطفية والاجتماعية وعلى تصادم أنواع المنطق .

وأحوال المجالس الثورية تنبئنا بصحة نواميس روح الجماعات ، فالمسير لهذه المجالس في حالة الاندفاع وحالة الخوف عدد صغير من الزعماء ، وكثيراً ما تأتي هذه المجالس أعمالاً مخالفة لعزائم كل عضو من أعضائها وهو منفرد ، فمع أن المجلس التأسيسي كان ملكياً فقد قضى على الملكية ومع أن الجمعية الاشتراكية كانت مشبعة من روح الانسانية فقد سمحت بوقوع مذابح سبتمبر ومع أنها كانت مسالمة دفعت فرنسا إلى القيام بحرب هائلة ثم وقع مجلس العهد في مثل ذلك التناقض مع أن اكثريته كانت مؤلفة من فلاسفة ذوي عواطف رقيقة ومع أن أعضاء مجلس العهد كانوا يمجدون المساواة والاخاء والحرية ويمقتون الاضطهاد افرقوا أشد المظالم ، وقد وجد مثل هذا التناقض في عهد الديركتوار أيضاً ، ومع أن مجالسه كانت معتدلة في أمانها سفكت الدماء بغياً وعدواناً ومع أنها أرادت توطيد دعائم السلم الديني نفت ألوف الكهنة ومع أنها ودت تعمير فرنسا زادت خراباً .

إذنت الاختلاف تام بين عزائم رجال الثورة الفرنسية وهم منفردون وعزائمهم وهم مجتمعون ، وعلة ذلك إطاعتهم قوى خفية لا سلطان لهم عليها ، فهم وإن اعتقدوا

أنهم خاضعون لسلطان العقل المطلق كانوا يعانون ما لم يدركوا أمره من المؤثرات الدينية والعاطفية والاجتماعية

تقدم الذكاء مع تعاقب الأجيال ففتح للانسان آفاقاً عجيبة ، وأما الخلق الذى هو أساس روح الانسان وانحرك الحقيقى لأعماله فلم يتبدل منه شئ ، وإذا تنكر الخلق قليلا فانه لا يلبث أن يظهر كما كان ، ولذلك وجب النظر إلى الطبيعة البشرية كأمر واقع لا يتغير .

ولم يرض القائمون بالثورة الفرنسية بذلك فحربوا تحويل الناس والمجتمعات باسم العقل ولم يتيسر لآى مشروع من وسائل النجاح كما تيسر لمشروعهم . فقد كانت قوتهم حينما أرادوا إنجازهم أعظم من قوة الجبارة ولكن الثورة الفرنسية مع تلك القوة ومع انتصار الجيوش ومع ما سنوه من القوانين الصارمة ومع استئثارهم بالسلطة لم تؤد إلى غير التخريب وإقامة الحكم المطلق .

ولم تخل هذه التجربة من فائدة ، فالتجارب ضرورية لتثقيف الأمم ، ولولا الثورة الفرنسية لصعب إثبات كون العقل المطلق لا يغير الرجال وكون المجتمع لا يتجدد كما يريد المسترعون مهما كان سلطانهم عظيما .

لم تلبث الثورة الفرنسية التى أثارها منافع الطبقة الثانية أن أصبحت شعبية فخاربت الغريزة العقل و انتهكت حرمانت الزواجر التى أخرجت الانسان من طور الهمجية إلى طور الحضارة ، وقد حاول المصلحون أن ينشروا مذاهبهم باستنادهم إلى مبدأ السلطة الشعبية وصار الشعب الذى يقوده الزعماء يتدخل فى مذاكرات مجالس النواب ويقترف أشد المظالم .

وتاريخ الجماعات فى ذلك الدور حافل بالفوائد ، فهو يثبت خطئ المشتغلين بالسياسة الذين يعززون إلى الروح الشعبية كل فضيلة .

وتدلنا حوادث الثورة الفرنسية على أن الشعب يرجع مسرعاً إلى همجية القرون الخالية إن تفلت من الزواجر الاجتماعية التى هى أساس كل مدنية وترك يسير بغرائزه ، ففى كل انتصار يتم للثورة الشعبية عود إلى التوحش ، ولو استمرت ثورة الكومون التى وقعت سنة ١٨٧١ لأحيت دور الهول الأكبر ، وقد اقتصر رجال هذه الثورة على

حرق أهم مباني باريس عندما رأوا أنهم لم يكونوا من القوة بحيث يستطيعون قتل أناس كثيرين .

ولم تكن الثورة الفرنسية غير تصادم قوى نفسية تخلصت من القيود الزاجرة لها ، وقد نشأ عن تصادم هذه القوى النفسية التي هي الغرائز الشعبية والمعتقدات اليقينية والمؤثرات الارثية والشهوات والمطامع التي لا حد لها تضريح فرنسا بالدماء وإشراقها على الدمار .

ويلوح للنظر من بعيد أن الثورة الفرنسية كانت تتألف من مجموع تلك القوى التي لا تجانس بينها ، وينبغي تحليلها للوقوف على حقيقة تلك النازلة واستجلاء سر المحرضات التي حركت نفوس أبطالها ، وتوازن أنواع المنطق المختلفة - أى المنطق العقلي والمنطق العاطفي والمنطق الديني ومنطق الجماعات - في الأزمنة العادية تقريبا وأما في أيام الفتن فإنها تتصادم وينتقل الانسان من حال الى حال .

لم تنكر في هذا الكتاب ما جادت به الثورة الفرنسية على حقوق الأمم ، ولكننا قلنا مع كثير من المؤرخين إن ما ربحناه ، بعد إقرار كثير من أعمال التخريب في أثنائها ، كان لا بد من نيله مع سير الحضارة بلا عناء ، وما أعظم ما أصابنا من خسارة مادية وانحلال أدبي لكسب زمن قصير ! ، ولا يتم إصلاح هذه الأمور الطارئة على سلسلة التاريخ إلا بالتدريج ، ولم يتحقق هذا الإصلاح حتى الآن .

ويظهر أن الشعبية الحديثة تفضل العمل على الفكر ، وهي تستخف بمجادلات الفلاسفة العقيمة ولا ترى فائدة في الآراء الفارغة التي تدور حول أمور لا يزال جوهرها مجهولا ، حقاً إن العمل أمر محمود ، ولكنه لا يفيد إلا إذا وضع في محله والعمل يكون مضراً إذا احتقر الحقائق وسعى في تحويل مجرى الأمور بعنف ، والفرق عظيم بين تجربة يكون موضوعها المجتمع وتجربة يكون موضوعها ما في المختبر من الآلات ، وما أتيناه من الانقلابات يدلنا على شدة ما ينشأ عن الأغلاط الاجتماعية من المصائب .

يرغب كثير من المهوسين الذين استحوذت عليهم الأوهام أن يعيدوا دور الثورة الفرنسية ، وسترجع الاشتراكية التي هي خلاصة هذه الرغبة بالناس الى الوراء لابطالها

أهم عوامل السير فيهم ، فهي بإقامتها تبعة الجماعات وقوة استنباطها مقام تبعة الفرد وقوة استنباطه تسقطهم الى الدرك الأسفل .

وليست الساعة الحاضرة ملائمة لمثل هذه التجارب ، فالأمم تمنع الآن في التسليح ، وجميع الناس شاعرون بأنه لا مكان للامم الضعيفة في مزاحمة العالم .

تنمو في أوربة الوسطى دولة حرية مخيفة طامعة في سيادة العالم لتنال أسواقاً لسلعها ، فإذا داومنا على خرق اتحادنا بما يقع عندنا من النزاع الداخلي ومن تنافس الأحزاب ومن الاضطهاد الديني ومن وضع قوانين مقيدة لتقدم الصناعة فإن شأننا في العالم ينتهي ونفسح المجال الى أمم ملتحمة الأجزاء عالمة كيف تسير مع مقتضيات الطبيعة من دون أن تحاول تذليلها . نعم إن الحال لا يعيد الماضي وإن التاريخ حافل بأمور وقعت بقتة ، ولكن الحوادث في مجموعها مسيرة بسنن أزلية .

فهرس

صفحة	مقدمة المترجم
٣	مقدمة المؤلف في الطبعة الخامسة عشرة
٥	مقدمة المؤلف
٩	

الجزء الأول - روح الثورات

الباب الأول - صفات الثورات

الفصل الأول - الثورات العالمية والثورات السياسية

١٤	٢ - تقسيم الثورات
١٥	٢ - الثورات العلمية
١٦	٣ - الثورات السياسية
١٩	٤ - نتائج الثورات السياسية

الفصل الثاني - الثورات الدينية

٢١	١ - البحث في الثورات الدينية ينفع للوقوف على الثورات السياسية الكبرى
٢٢	٢ - أنصار الإصلاح الديني الأولون
٢٣	٣ - قيمة ثورة الإصلاح الديني العقلية
٢٤	٤ - انتشار الإصلاح الديني
٢٤	٥ - تصادم المعتقدات الدينية واستحالة التسامح
٢٧	٦ - نتائج الثورات الدينية

الفصل الثالث - شأن الحكومات في الثورات

٢٩	١ - ضعف مقاومة الحكومات في الثورات
٣١	٢ - كيف تؤدي مقاومة الحكومات الى انتصارها على الثورات

صفحة

- ٣١ - ثورات الحكومات ، مثال تركية والصين
٢٣ - العناصر الاجتماعية التي تبقى بعد أن تقلب الثورات الحكومات
الفصل الرابع - شأن الامة في الثورات
٣٥ ١ - ثبات روح الامة ومرونتها
٣٧ ٢ - كيف تتلقى الامة الثورة
٢٨ ٣ - شأن الشعب في الثورات
٢٩ ٤ - طبقات الامة

باب الثاني - النفسية التي تسود الثورات

الفصل الاول - تقلبات الخلق أيام الثورات

- ٤٢ ١ - تحول الشخصية
٤٣ ٢ - عناصر الخلق السائد للثورات
٤٤ ٣ - الحقد
٤٥ ٤ - الخوف
٤٦ ٥ - الحرص والحسد والزهو
٤٦ ٦ - الحماسة

الفصل الثاني - النفسية الدينية والنفسية اليعقوبية

- ٤٨ ١ - تقسيم النفسيات التي تسود الثورة
٤٨ ٢ - النفسية الدينية
٥١ ٣ - النفسية اليعقوبية

الفصل الثالث - النفسية الثورية والنفسية المجرمة

- ٥٤ ١ - النفسية الثورية
٥٥ ٢ - النفسية المجرمة

صفحة

الفصل الرابع - روح الجماعات الثورية

- ١ - صفات الجماعات العامة ٥٧
- ٢ - كيف تتحدد روح العرق تقلبات الجماعات ٥٨
- ٣ - شأن الزعماء في الحركات الثورية ٦٠

الفصل الخامس - روح المجالس الثورية

- ١ - صفات المجالس الثورية الكبرى ٦١
- ٢ - روح الأندية السياسية ٦٢
- ٣ - اشتداد المشاعر التدريجي في المجالس ٦٤

الجزء الثاني - الثورة الفرنسية

الباب الأول - مآخذ الثورة الفرنسية

الفصل الأول - آراء المؤرخين في الثورة الفرنسية

- ١ - رواة الثورة الفرنسية ٦٥
- ٢ - نظرية القضاء والقدر في تفسير الثورة الفرنسية ٦٧
- ٣ - شكوك المؤرخين في تأثير الثورة الفرنسية ٦٨
- ٤ - إنصاف المؤرخين ٧٠

الفصل الثاني - مبادئ النظام السابق النفسية

- ١ - الملكية المطلقة ودعائم النظام السابق ٧٣
- ٢ - مساوىء النظام السابق ٧٣
- ٣ - الحياة في العهد السابق ٧٤
- ٤ - تحول المشاعر الملكية أيام الثورة الفرنسية ٧٥

صفحة

الفصل الثالث - الفوضى النفسية أيام الثورة الفرنسية وما نسب الى الفلاسفة من الشأن

١ - مصدر المبادئ الثورية وانتشارها ٧٧

٢ - تأثير فلاسفة القرن الثامن عشر في تكوين الثورة الفرنسية ،

نفورهم من الديمقراطية ٨٠

٣ - مبادئ الطبقة الوسطى الفلسفية أيام الثورة الفرنسية ٨٢

الفصل الرابع - الاوهام النفسية أيام الثورة الفرنسية

١ - الروح الشعبية وأوهام الناس في الانسان الفطرى وفي الرجوع الى الحالة الفطرية ٨٣

٢ - أوهام الناس في قوة القوانين وفي إمكان فصل الانسان عن ماضيه ٨٤

٣ - أوهام الناس في قيمة المبادئ الثورية ٨٥

الباب الثانى - تأثير العقل والعاطفة والتدين والاجتماع أيام الثورة الفرنسية

الفصل الاول - روح المجلس التأسيسى

١ - المؤثرات النفسية أيام الثورة الفرنسية ٨٧

٢ - انقضاء العهد السابق - اجتماع مجلس النواب ٨٩

٣ - المجلس التأسيسى ٨٩

الفصل الثانى - روح المجلس الاشتراعى

١ - الحوادث السياسية أيام المجلس الاشتراعى ٩٦

٢ - أحوال المجلس الاشتراعى النفسية ٩٧

الفصل الثالث - روح مجلس العهد

١ - قصة مجلس العهد ١٠٠

صفحة

١٠٢

١٠٤

٢ — تأثير انتصار الديانة اليعقوبية

٣ — صفات مجلس العهد النفسية

الفصل الرابع — حكومة مجلس العهد

١٠٧

١٠٨

١١١

١ — شأن الأندية والجمعية الثورية أيام مجلس العهد

٢ — الحكومة أيام مجلس العهد

٣ — نهاية مجلس العهد — حكومة الديركتوار

الفصل الخامس — مظالم الثورة الفرنسية

١١٣

١١٤

١١٦

١ — الأسباب النفسية لمظالم الثورة الفرنسية

٢ — محاكم الثورة الفرنسية

٣ — الهول في المديریات

الفصل السادس — جيوش الثورة الفرنسية

١١٩

١٢٠

١٢١

١ — مجالس الثورة والجيوش

٢ — مكافأة أوربة للثورة الفرنسية

٣ — العوامل النفسية والعوامل الحرية التي أوجبت انتصار جيوش

الثورة الفرنسية

الفصل السابع — روح زعماء الثورة الفرنسية

١٢٤

١٢٥

١٢٧

١٣١

١٣٣

١ — نفسية رجال الثورة الفرنسية. شأن الأخلاق القوية والأخلاق الضعيفة

٢ — نفسية النواب أيام بعثتهم .

٣ — دانتون وروبسيير

٤ — فوكيه تنفيل — دوما — يوفارين — مارا

٥ — مصير رجال العهد الذين ظلوا أحياء بعد انتهاء الثورة الفرنسية

صفحة

الباب الثالث - النزاع بين المؤثرات الوراثية والمبادئ الثورية

الفصل الاول - تقلص الفوضى - حكومة الديركتوار

- ١ - نفسية الديركتوار ١٣٥
- ٢ - حكومة الديركتوار المستبدة ١٣٧
- ٣ - ارتقاء بوناپارت ١٣٩
- ٤ - علل استمرار الثورة الفرنسية طويلا ١٤٠

الفصل الثاني - إعادة النظام ، الجمهورية القنصلية

- ١ - كيف أقرت القنصلية أمر الثورة الفرنسية ١٤٢
- ٢ - تنظيم فرنسة في العهد القنصلي ١٤٣
- ٣ - العوامل النفسية التي أوجبت نجاح القنصلية ١٤٤

الفصل الثالث - النتائج السياسية التي نشأت في قرن واحد

عن تصادم التقاليد والمبادئ الثورية

- ١ - الأسباب النفسية التي أدت الى استمرار الحركات الثورية في فرنسة ١٤٦
- ٢ - خلاصة الحركات الثورية التي وقعت في فرنسة منذ قرن ١٤٨

الجزء الثالث - تطور المبادئ الثورية في الوقت الحاضر

الفصل الاول - تقدم العقائد الثورية بعد الثورة الفرنسية

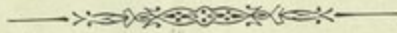
- ١ - انتشار المبادئ الديمقراطية البطيئة بعد الثورة الفرنسية ١٥٣
- ٢ - النصب المتفاوت لمبادئ الثورة الفرنسية الثلاثة ١٥٥
- ٣ - ديمقراطية الكتاب والديموقراطية الشعبية ١٥٦
- ٤ - التفاوت الطبيعي والمساواة الديمقراطية ١٥٧

الفصل الثانى - نتائج التطور الديموقراطى

- ١ - تأثير المبادئ التى لا قيمة عقلية لها فى التطور الاجتماعى ١٥٩
- ٢ - الروح المعنوية والنفسية التى نشأت عن المعتقدات الديموقراطية ١٦٠
- ٣ - الانتخاب العام وممنخوبه ١٦٣
- ٤ - الاحتياج الى الاصلاح ١٦٤
- ٥ - الفروق الاجتماعية بين أنواع الديموقراطية ١٦٥

الفصل الثالث - الاشكال الحديثة للمعتقدات الديموقراطية

- ١ - النزاع بين رأس المال والعمل ١٦٧
- ٢ - نشوء طبقة العمال والحركة النقابية ١٦٨
- ٣ - لماذا تتحول بعض الحكومات الديموقراطية الحديثة بالتدريج الى طوائف ادارية ١٧٠



سلسلة المطبوعات الحديثة

هذه الكتب القيمة تطلب من جميع المكتبات الشهيرة أو من المطبعة العصرية
بعنوانها الثابت (صندوق البريد رقم ٩٥٤ - مصر)

Elias' Modern Press,
P.O.Box 954, CAIRO, (Egypt)

٧٠	القاموس العصري ، انكليزي عربي	لا لباس انطون الياس (طبعة ثالثة)
٣٥	» » » » » »	(طبعة ثانية)
٧٠	» » » » » »	(طبعة ثانية مطولة)
٣٥	» » » » » »	المدرسي وبالعكس (٨,٠٠٠ كلمة)
٣٠	» » » » » »	قاموس الجيب وبالعكس
٢٠	» » » » » »	فقط
١٥	» » » » » »	انكليزي عربي
٧٠	» » » » » »	سقراط سبيرو ، عربي انكليزي (باللفظ)
٥٠	» » » » » »	انكليزي عربي (باللفظ)
١٠٠	» » » » » »	وبالعكس (الاثنان معا)
١٢	الهدية السنوية لطلاب اللغة الانكليزية	لا لباس انطون الياس (باللفظ)
١٠	التحفة المصرية	(مطول)
١٠	الف كلمة الماني (كتاب لتعليم اللغة الالمانية بسهولة)	
٥	حكايات للاطفال جزء اول (مصور بالالوان)	الاستاذ كامل كيلاني
٥	» » » » » »	جزء ثان
٥	» » » » » »	ثالث
٥	» » » » » »	جغرافية للاطفال ، جزء أول
١٥	روح الاشتراكية (لغوستاف لوبون)	وترجة الاستاذ محمد عادل زعيتر
١٥	روح السياسة	» » » » » »
١٥	» » » » » »	الثورات (او الثورة الفرنسية) (لغوستاف لوبون)
١٠	الآراء والمعتقدات	» » » » » »
٢٠	اصول الحقوق الدستورية (لابسمن)	» » » » » »

٨	الحضارة المصرية (لغوستاف لوبون)	وترجمة الاستاذ صادق رستم
١٥	حضارة مصر الحديثة . محاضرات عن مصر والشرق لكبار رجل مصر	
١٠	الحركة الاشتراكية (لرمزي مكديونالد)	وترجمة الاستاذ محمود المراي
٥	تذكرة الكاتب ، أو الاغلاط القويّة الدارجة للاستاذ أسعد خليل داغر (طبعة منقحة)	
١٢	مراجعات في الادب والفنون	(للاستاذ عباس محمود العقاد)
١٥	ملق السبيل ، في مذهب النشوء والارتقاء	للاستاذ اجماعيل مظهر
١٥	الدنيا في اميركا ، مصوّر	(للاستاذ امير بقطر)
١٠	التربية الاجتماعية (على بك فكرى)	
٥	التعليم والصحة (للدكتور محمد عبد الحميد بك)	(لازم لكل معلم ووالد)
١٠	تربية دودة القز وأشجار التوت (للاستاذ محمد بسيم)	
٨	اليوم والغد	(للاستاذ سلامة موسى)
١٠	مختارات سلامة موسى	
٨	نظرية التطور واصل الانسان ، مصور	
٢٠	اناثول فرانس في مبادئه (للامير شكيب ارسلان)	
١٠	رسائل غرام جديدة ، مصوّر	(للاستاذ سليم عبد الاحد)
١٠	الفريال ، في الادب المصري (للاستاذ مخايل نعيم)	
١٥	في اوقات الفراغ (للدكتور محمد حسين هيكل بك)	
٨	عشرة ايام في السودان	
٨	نسبات وزوايج ، شعر منتور ، مصور ،	للاستاذ نقولا يوسف
١٠	قبسّ الرّيح	(للاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني)
١٥	حصاد المشيم (طبعة ثانية مكبرة)	
٢٥	جمهورية أفلاطون (للاستاذ حنا خياز)	
١٢	يسوع ابن الانسان ، طبعة جديدة مصورة	(لجبران خليل جبران)
٥	آلهة الارض — وصلاة بايني (معا)	
٨	الني (طبعة ثانية)	
٥	المجنون	
٥	رمل وزبد (تحت الطبع)	
٦	مراقى النجاح	(كتاب ثمين للارشندريت انطونيوس بشير)
٥	اعترافات تولستوى	
٥	ثلاثة مفكرين	
٥	خواطر حمار ، مصور ،	ترجمة الاستاذ حسين الجمل

٣	الحقوق الوطنية للاستاذ فرانسيس ميخائيل
٥	مركز المرأة في شريعة موسى ومجوراني (للاستاذ العقاد)
١٠	المرأة الحديثة وكيف نسوسها (للاستاذ عبد الله حسين المحامي)
٥	المرأة بين الماضي والحاضر ، (الاستاذ محمود خيرت المحامي)
١٥	الحب والزواج ، مصور (للاستاذ نقولا الحداد)
١٥	ذكراً وأناثي خلقتهم
٥٠	علم الاجتماع (جزآن كبيران)
٢٥	الجزء الواحد بمفرده
١٥	أسرار الحياة الزوجية ، للدكتورة ماري ستوب
٣٠	الامراض التناسلية وعلاجها ، مصور (للدكتور غري)
٢٠	الضعف التناسلي (الكتاب الاول) مصور
٢٠	المرأة وفلسفة التناسليات ،
٥	الطب القديم — عن كتاب خطي قديم — منقح (طبعة ثانية)
١٥	الزينة الحمراء ، بالصور ، لاناتول فرانس ، وترجمة الاستاذ احمد الصاوي محمد
١٠	تايبس
١٠	جريمة سلفستر يونار
١٠	القصص المصرية (٨٠ قصة كبيرة مصورة) للاستاذ توفيق عبد الله
١٠	مسارح الازهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة) للاستاذ خليل بيدس
٥	مريم المجدلية (تأليف الكاتب الشهير موريس مترلنك)
٦	أميرة بابلية لدى الدروز
٥	مكايد الحب في قصور الملوك (ترجمة الاستاذ اسعد خليل داغر)
١٢	رواية احوال الاستبداد (كبيرة مصورة) للاستاذ خليل بيدس
١٠	« فانتة المهدي ، او استعادة السودان (الاستاذ محمد علي)
١٥	« الثامن ، عصرية اجتماعية اخلاقية (ايليا ابو رزق)
٨	« الانتقام العذب (ترجمة الاستاذ اسعد خليل داغر)
٦	« المرأة المفترسة (مترجمة عن الافرنسية بقلم الاستاذ رستم)
٥	« النفس الحائرة (قصة مصرية جميلة) للاستاذ حبش
٥	« فقر وعفاف (ترجمة الاستاذ احمد رأفت)
١٢	« باريزيت ، كبيرة مصورة (للاستاذ توفيق عبد الله)
١٢	« غرام الراهب او الساحرة المجدودة
٢	« الفاجرة ، او بول دي سويف

٧٥	رواية روكمبول ، ١٧ جزء	
٥	» » (الجزء الواحد رواية كاملة)	
٢٥	» » ام روكمبول ، ٥ اجزاء	
٢٠	» » باردليان ، ٣ اجزاء كبيرة	
٢٠	» » الملكة ايزابو ، ٤ اجزاء	
٢٠	» » الاميرة فوستا ، جزء آن كبيران	
٢٠	» » عشاق فنيسيا »	
١٦	» » كاييتان »	
١٦	» » بائعة الخبز »	
١٦	» » الساحر العظيم »	
١٦	» » الوصية الحمراء »	
١٢	» » فلمبرج »	
١٠	» » فارس الملك ، جزء واحد	
١٠	» » ضحايا الانتقام »	
٥	» » المتنكرة الحناء »	
٥	» » مروضة الاسود »	
٥	» » شهداء الاخلاص »	
١٦	» » دار العجائب ، جزء آن	(للمرحوم نقولا رزق الله)
١٠	» » فرنسوا الاول (كاملة في جزء واحد)	» »
١٠	» » الجنون فنون » »	» »
٨	» » حورية » »	» »
٨	» » الغلامان الطريدان »	» »
٨	» » الشقيةتان » »	» »
٥	» » احسن الاول ، تمثيلية ، (حائزة لجائزة وزارة المعارف) لعادل غضبان	

القاموس المدرسى

انكليزى عربى وعربى انكليزى معاً

عدد صفحاته ٨٠٠ بالحجم المتوسط وكلماته ٤٧٠٠٠ وقد بذل مؤلفه الأستاذ الياس جهد الجبارة فى جعله شاملاً لكل ما هو ضرورى لطلبة المدارس من المفردات والجل الاصطلاحية ، وجعله وسطاً بين « القاموس العصرى » المطول و « قاموس الجيب » المختصر . وقد قررت وزارة المعارف المصرية استعماله لتلاميذ السنة الأولى من مدارسها الثانوية وثمنه ٣٥ قرشاً فقط .

التحفة المصرية

طلاب اللغة الانكليزية

(الطبعة الخامسة)

يحتوى هذا الكتاب مجموعة كبيرة من المفردات والجل والخطابات الكثيرة الاستعمال فى الأعمال اليومية والمعاملات التجارية والادارية والحكومية ، ولا يستغنى عنه أى طالب للغة الانكليزية ، فسل من تقدمك فى درس هذه اللغة عن هذا الكتاب يخبرك بفائدته العظيمة . صفحاته ٣٠٢ وثمنه ١٠ قروش

تذكرة الطالب

(طبعة ثانية)

واضع هذا الكتاب الكبير حضرة العلامة اللغوى الاستاذ أسعد خليل داغر ، وهو يتضمن التنبيه على أهم الغلطات اللغوية الدائرة فى أقلام الكتاب الآن (طبعة منقحة . صفحاته ١٦٠ وثمنه ٥ قروش)

الهرمية السنية

لطلاب اللغة الانكليزية

يكفي للتوويه بفائدة هذا الكتاب البديع أن نذكر أنه طبع للمرة السابعة . وكل من بدأ دراسة اللغة الانكليزية بواسطته استفاد جداً من سهولة أسلوبه ، خصوصاً لأن طريقته الحديثة التي ابتكرها مؤلفه « للفظ الكلمات الانكليزية بأحرف عربية » هي الطريقة التي لا يمكن إيجاد أمهل وأصح منها - إشتهر نسخة منه وجرب أن تتعلم اللغة الانكليزية بغير معلم لتعرف فائدته . ثمنه ١٢ قرشاً .

الحركة الاشتراكية

المستر رمزي مكدونالد مؤلف هذا الكتاب ، ورئيس حكومة انكلترا الآن ، معروف بنزعه الاشتراكية ، وفي كتابه هذا يبسط لك زبدة آراءه في الحركة الاشتراكية وتطورها سياسياً واقتصادياً ، وما هو من صميم الاشتراكية ، وما هو ليس منها كالفوضوية والشيوعية ، وإلغاء الملكية الخاصة ، والمساواة . وقد نقله الاستاذ محمود حسنى العرابي إلى العربية في أسلوب سهل يضارع أسلوب المؤلف (صفحاته ١٦٨ بالقطع الكبير وثمانه ١٠ قروش)

المرأة الحديثة

وكيف نسوسها

لما كان حديث المرأة الحديثة هو الشغل الشاغل للمجتمعات العامة والخاصة وموضوع بحث الفلاسفة والعلماء والأدباء فقد أقدم حضرة الكاتب النابه الاستاذ

عبد الله حسين الخريج في الحقوق والعلوم السياسية ، وكبير محرري جريدة الاهرام
الفراء ، على تأليف هذا الكتاب ، وأورد فيه آراء كبار الفلاسفة قديماً وحديثاً في المرأة ،
وأَسباب سوء التفاهم بينها وبين الرجل ، والحب وتأثيره في كل منهما . وأسباب
الخصام الذي يقع بين الزوجين ، ومسئولية كل من الرجل والمرأة فيه ، وفي النزاع
القائم بين الرجل والمرأة في سبيل الاحتراف والحرف والحكم والانتخاب . وتكلم عن
حقيقة الحب ، وفرق في أمره بين النساء المصونات والساقطات . وعن البغاء ، وعن
الزواج ، الخ الخ . وقد عالج هذه المواضيع بعبارات صريحة شائعة
(صفحاته ٢٦٦ وثمته عشرة قروش)

محاضرة مصر الحديثة

يشمل هذا الكتاب العظيم اثني عشرة محاضرة ألقاها إثنًا عشر عالم اختصاصي
من أكبر علماء مصر العالمين « في قاعة يورت التذكارية » بالجامعة الأمريكية
بالقاهرة في سنة ١٩٣٢ وكلها تدور حول موضوع واحد يهم كل شرقي الاطلاع عليه
وهو « حضارة مصر الحديثة » فمنها الثلاثة الأولى تناول موارد البلاد المادية ، ويلي
ذلك ستة محاضرات تبحث في حالة مصر الاجتماعية وكيفية تقدمها ، ثم ثلاثة في
التنظيم الاجتماعي . ويمتاز هذا الكتاب بأنه من وضع المصريين الذين لا تشوب آراءهم
صبغة أجنبية أو حزبية مثل سعادة الدكتور محمد شاهين باشا وكيل وزارة الداخلية
للشؤون الصحية . وفؤاد بك أباطه مدير الجمعية الزراعية الملكية ، وعبد الرحمن بك
فكري سكرتير عام مجلس الشيوخ والدكتور بهمن طبيب الأمراض العقلية ، والاستاذ
على بك عبد الرازق والدكتور حسين هيكل بك والآنسة « مى » واحمد بك
صفوت ، وسابا بك حبشى ، والأستاذ سلامه موسى ، والدكتور هيوم ، والأستاذ
اسماعيل القباني — والكتاب يقع في ٢٠٠ صفحة من القطع الكبير وبه خريطة كبيرة
وثنه ١٥ قرشاً

مختارات سلامه موسى

تتضمن نحو خمسين مبحثاً في الأدب والعلم ، مسبوكة في قالب الصراحة بأسلس وأفصح عبارة وأبلغ تركيب ، وهي جديرة بأن يقتنيها كل قارئ يروم الاستفادة مما يطالعه (صفحاته ٣٢٠ وثمانه عشرة قروش)

نظرية التطور واصل الإنسان

كتب الأستاذ سلامه موسى هذا الكتاب النفيس بأسلوب مغر اجتنب فيه القضايا العويصة والمسائل المعقدة واقتصر على ما يفهمه جمهور القراء لتكون عندهم فكرة إجمالية صحيحة عن هذه النظرية التي لها الشأن الأول في الثقافة الحاضرة (عدد صفحاته ٢٢٥ وثمانه ٨ قروش)

اليوم والغد

الأستاذ سلامه موسى كاتب خفيف الروح خصب مجيد ، تقرأه فكأنك تقرأ أحد كبار كتاب الانكاييز الذين أحسنوا الدرس وثقفوا عقولهم باتقان حتى ينتفع قراؤه بمخالصة مطالعته . وهذا الكتاب يبحث موضوعاً هو أهم ما يشغل أفكار المفكرين اليوم ، بعبارة بسيطة جريئة خالية من التعقيد مكتوبة بقلم من نار (صفحاته ٢٦٠ وثمانه ثمانية قروش)

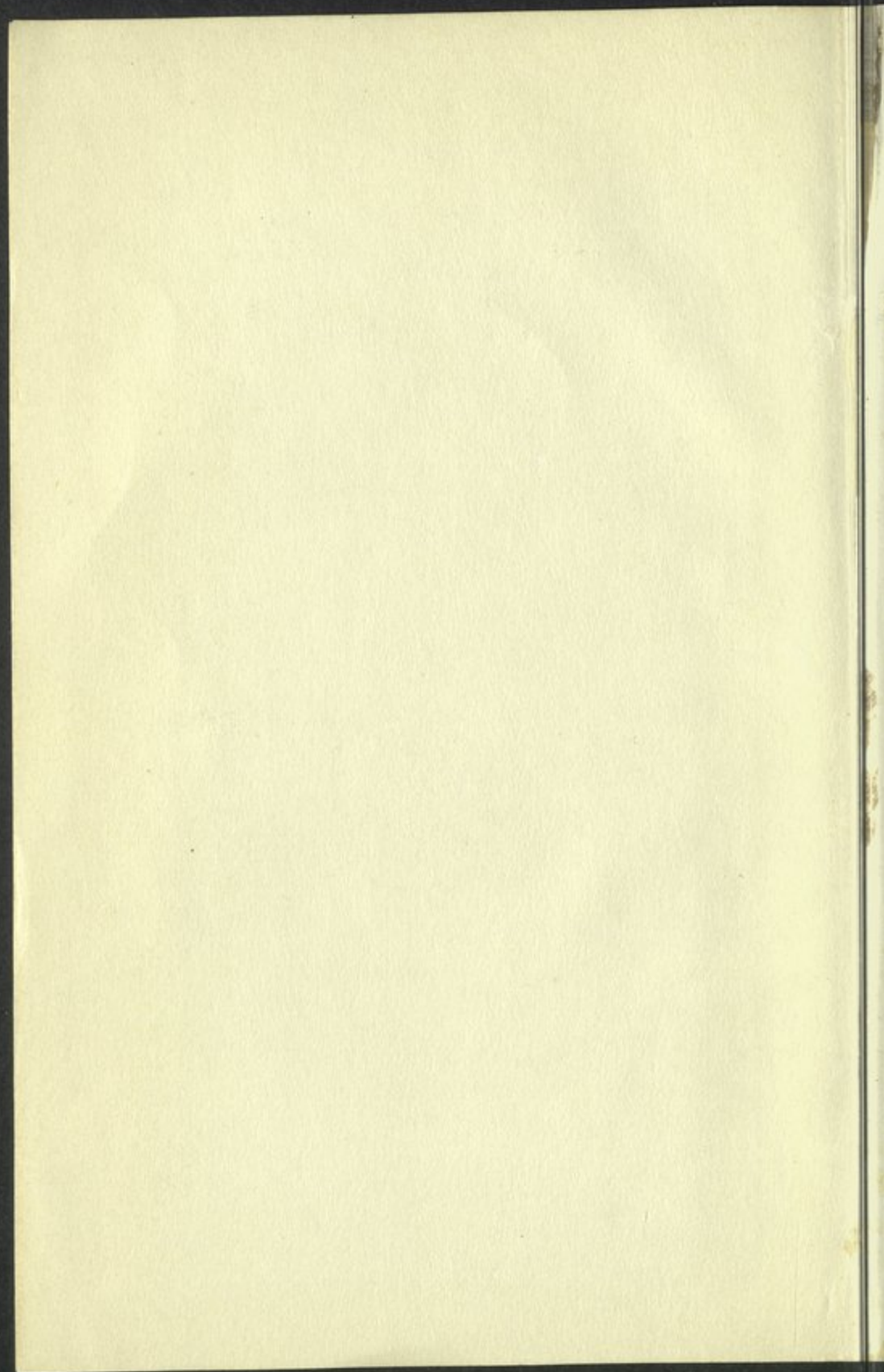


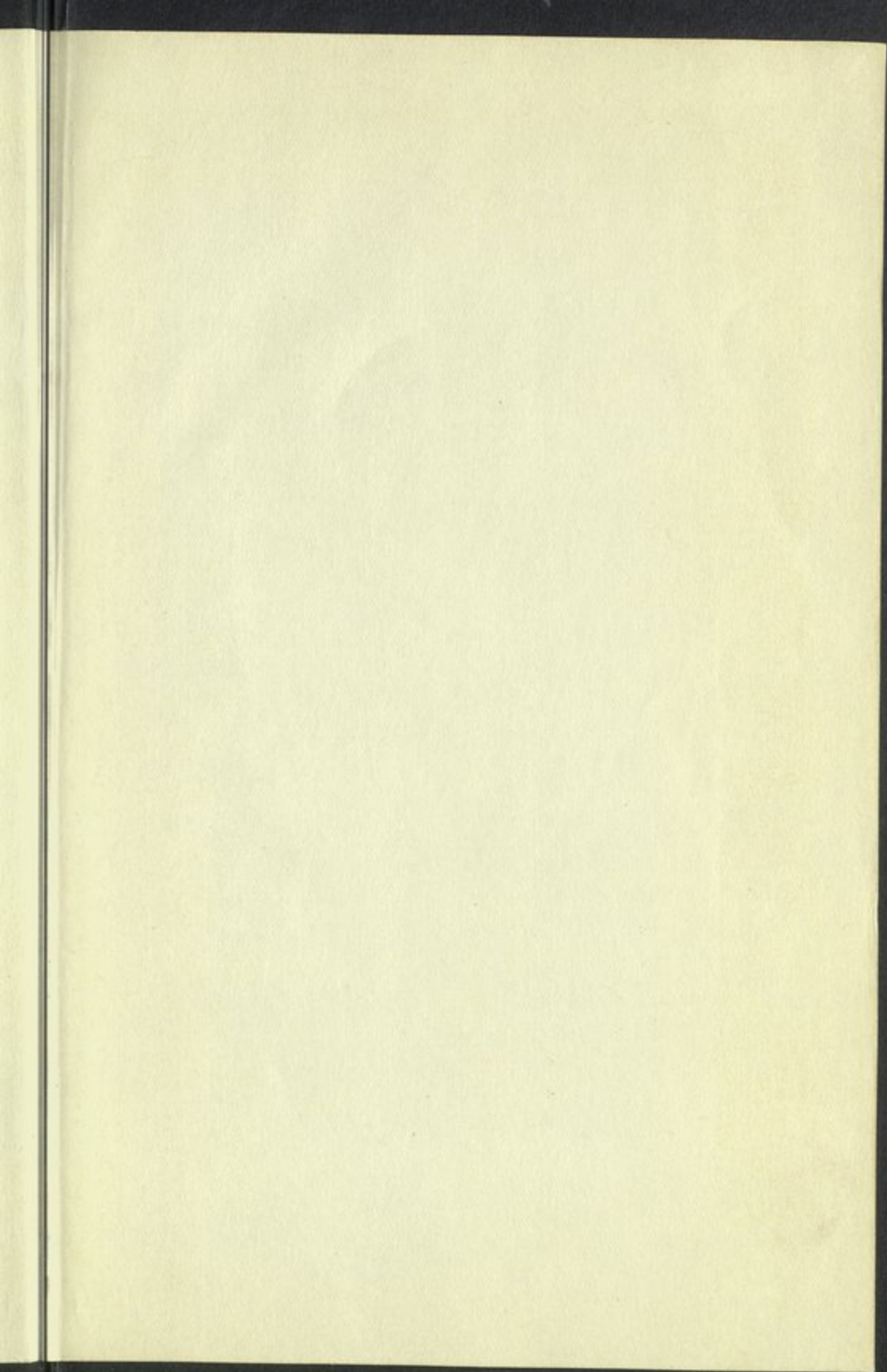
هذه القواميس قد قررتها وزارة المعارف المصرية لمدارسها الثانوية والابتدائية

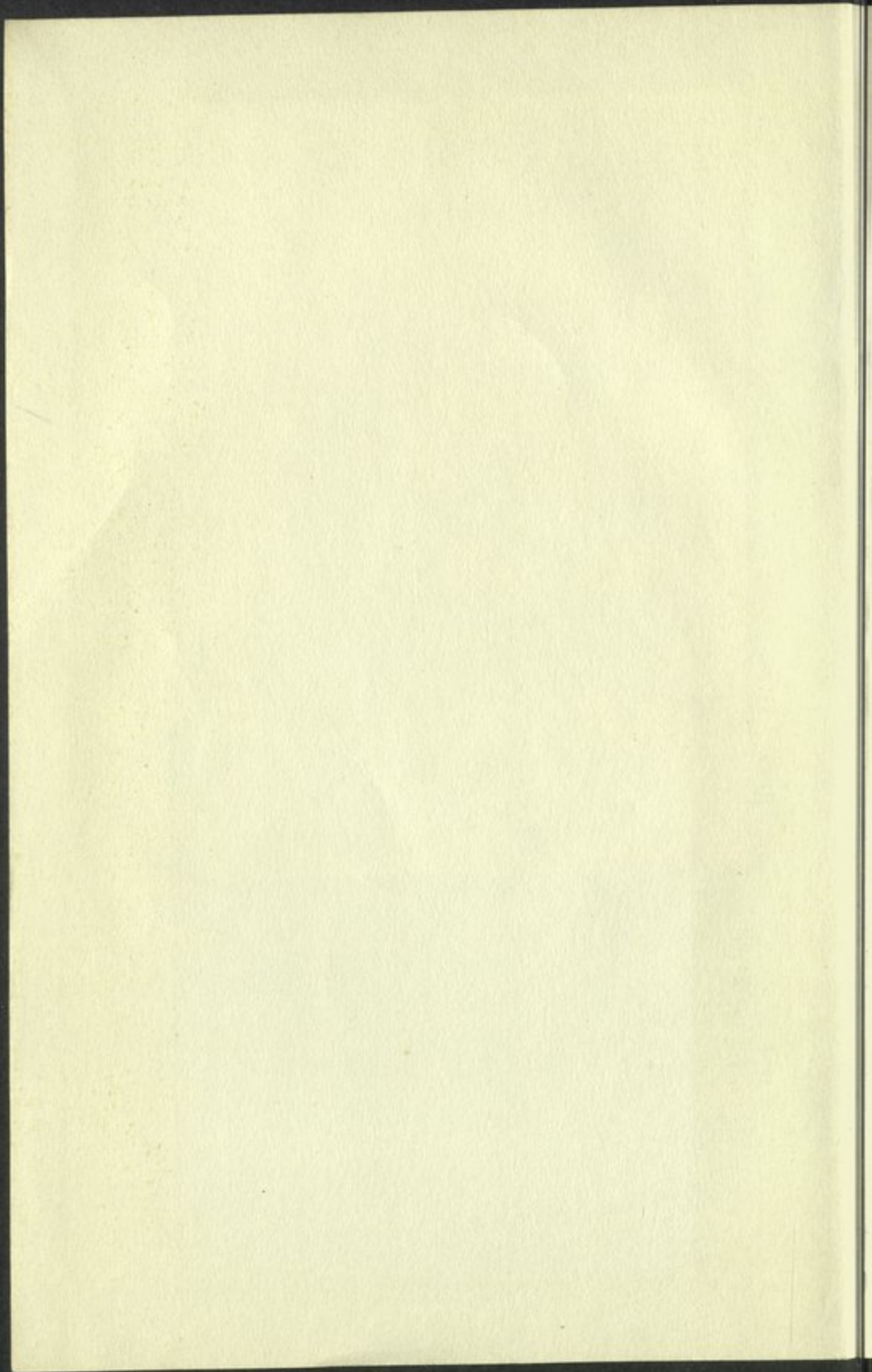
القاموس العصري الانكليزي أو العربي ٧٠ قرشاً ، والمدرسي ٣٥ قرشاً
 والجيب الانكليزي ١٥ قرشاً ، والعربي ٢٠ قرشاً ، والاثنان معاً ٣٠ قرشاً

المطبعة العصرية بشارع الخليج الناصري رقم ٦ بالفجالة ، بمصر

تليفون نمرة ٥٩٧٥٦







DATE DUE

5 JUL 1974		JAFET LIB. 15 MAR 2009 Circulation Dept. 4
2 JUL 1974		JAFET LIB. 22 OCT 2008 Circulation Dept. 1
JAFET LIB. 8 APR 1977		JAFET LIB. 2009 Circulation Dept. 5
J. LIB. 30 JAN 1991		JAFET LIB. 30 JAN 2009 Circulation Dept. 4
27 APR 1967		JAFET LIB. 22 OCT 2012 Circulation Dept. 4

لو بون، غوستاف
روح الثورات والثورة الفرنسية



01014997

323.2
L44x A2
C-2

323.2
L44r2A